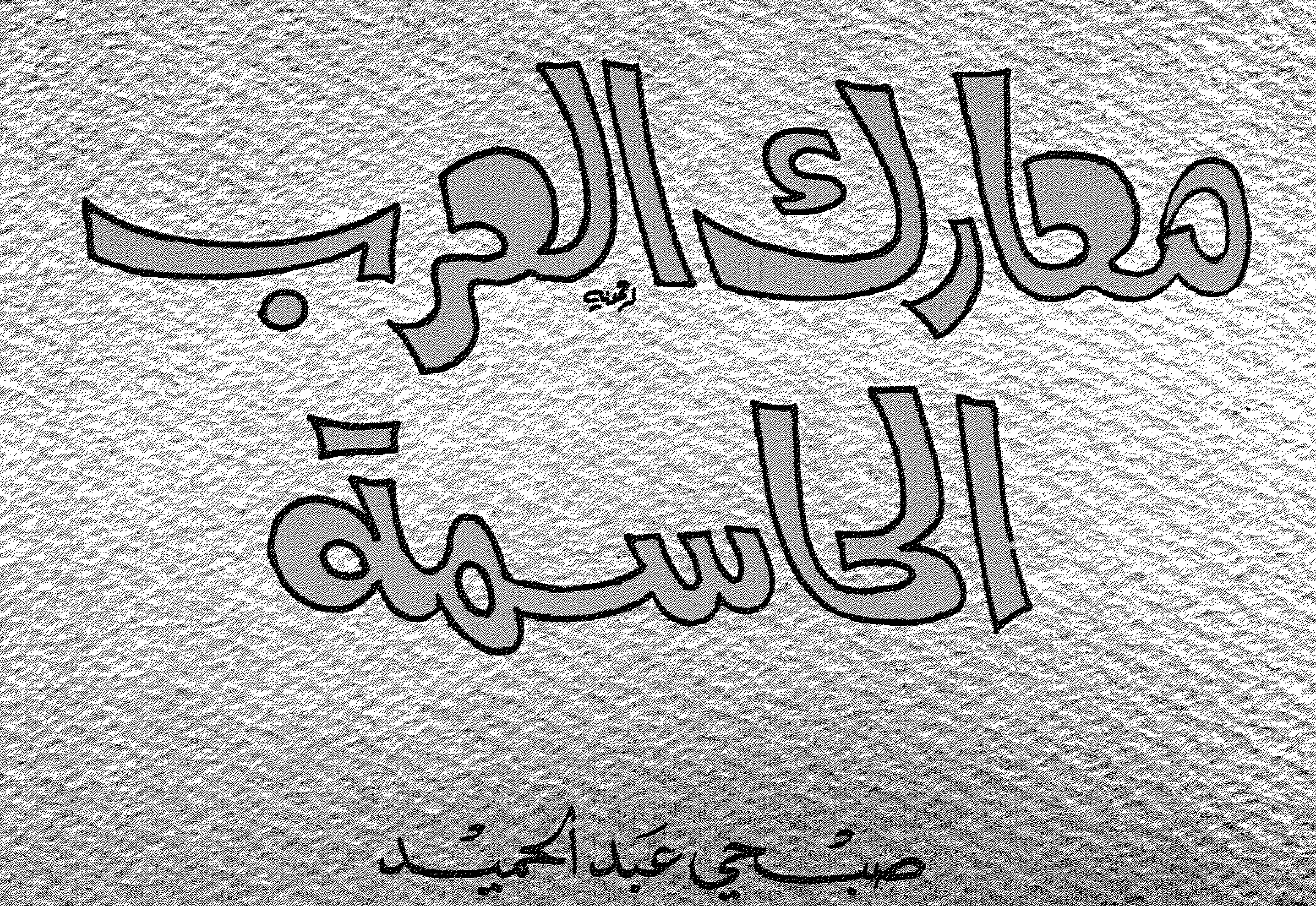
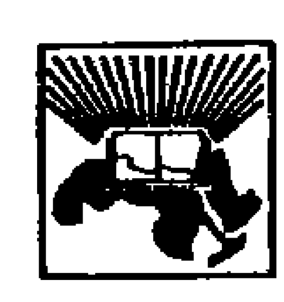




الدار العربية للموسوعات


معارك العرب الحاسمة



الدار العربية للموسوعات

ص. ب ٥٣٤٨/ ١٣ تلكس ARATRD LE٢٣١٠٧

بيروت ـ لبنان .

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

مَعَارِكُ العَرَبِ الحَاسِمَة

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

الإهـداء

إلى كل عربي آمن بوحدة الأمة العربية
وعمل من أجلها ، وضحى ويضحي بكل غال ورخيص
في سبيل تحقيقها . إلى كل عربي استعذب ويستعذب الموت
في سبيل استعادة أمجاد امته
واعـادة بناء دولتـه العربيـة الكبرى من المحيط الاطلسي الى الخليـج
العربي . إلى كل عربي ناضـل ويناضـل لتخليص أمته من الاستعبـاد
والاستغلال
والانحلال لبناء مجتمع الكفاية والعدل ،
مجتمع الرخاء والإزدهار .
إلى هؤلاء جميعاً اهدي كتابي هذا .

صبحي عبد الحميد

مقدمة الطبعة الثالثة

عندما فكرت بالكتابة عن معارك العرب ، انتخبت عدداً من المعارك الكبرىٰ التي خاضتها الجيوش العربية بعد ظهور الإسلام وأدت إلى نتائج حاسمة غيرت مسار التاريخ ، ولقد توخيت انتخاب المعارك التي انتصر بها العرب لتذكير شباب اليوم المتعطش إلى المجد بماضي امتهم المجيد . وفي الطبعة الثانية اضفت إلى المعارك المنتخبة معركة عين جالوت التي اوقفت الزحف المغولي الذي اجتاح العراق وسورية ودمر مدينة بغداد . وفي هذه الطبعة قررت الكتابة عن معركتي ذي قار وتور . وبالرغم من أن معركة ذي قار لا تعتبر من المعارك الحاسمة ، إلا أنها كانت أول نصر يحرزه العرب على الفرس ، وقد مهد هذا النصر الطريق للنصر الكبير الذي تحقق في معركة القادسية الحاسمة وبها هزمت الامبراطورية الفارسية ، وانهارت بعد معركة نهاوند إلى الأبد . ولقد سبقت ذي قار القادسية بسنين قليلة .

ولقد رأيتُ الكتابة عن معركة (تور) (بلاط الشهداء) رغم ان العرب خسروها لأنها تعتبر من المعارك الحاسمة في تاريخ العالم ، وفيها دروس كثيرة يمكن الاستفادة منها في استقراء المستقبل من دراسة اخطاء الماضي لتجنب تكرار

الوقوع في مثل هذه الاخطاء التي لا تخلو من انتكاسات لها أثرها الواضح في مسار الأمم .

كما أنني اضفت معلومات جديدة لمعركتي اليرموك والقادسية الهامتين . وارفقت في نهاية الكتاب ملحقاً بالمصطلحات العسكرية العربية التي كانت مستخدمة في ذلك الوقت .

وأخيراً ارجو أن أكون قد وفقت بتقديم ما يفيد الشباب العربي الذي يطمح باعادة امجاد امته السابقة التي لا تعاد بغير وحدة الأمة العربية من محيطها إلى خليجها والله الموفق وبه نستعين .

تقديم

كانت نهاية القرن السادس للميلاد فترة أزمة خطيرة في تاريخ العرب ، فقد سادهم التمزق وعمتهم الفوضى ، واشتد التناقض الإجتماعي في المدن ، وغلبت البداوة على الحاضرة ، وباتت بلادهم هدف اطماع الساسانيين في الشرق وبيزنطية في الغرب وساحة صراع للقوتين أدى إلى زوال كياناتهم في العراق والشام واليمن .

وبدت في الجزيرة بوادر وعي ، وأثر برم بالوثنية ، وظهرت في مجتمعاتهم وأسواقهم الأدبية انعكاسات تتلمس حياة جديدة وتشير إلى ظهور لغة أدبية مشتركة .

وفي وسط الاخطار المحدقة والفوضى بزغ فجر الدعوة الاسلامية في مكة ليحدث تغييراً شاملاً في حياة العرب .

إنطلق العرب بالإسلام ، إذ تهيأت لهم وحدة العقيدة ، ووحدة القيادة ووحدة الأهداف . وتدافعت راياتهم من يثرب لتحرر الجزيرة من التبعية والفوضى ولتشدها إلى كيان سياسي واحد ، فلما تم ذلك بانتهاء الردة ، انطلقت جموعهم إلى خارج الجزيرة في حركة فتوح لم تقف إلا في أواسط آسيا شرقاً وجبال البيرنة غرباً .

وبدت الفتوحات العربية الإسلامية حدثاً فذاً في التاريخ . وذهب الباحثون يتلمسون التفاسير فمنهم من أعتبر الفتوح موجة سامية ناشئة عن الجفاف المتزايد للجزيرة ، ومنهم من اعتبرها ظاهرة للصراع بين البادية والحاضرة ، ومنهم من أعطاها تفسيراً مادياً صرفاً .

وليس هذا محل مناقشة هذه التفاسير ، ويكفي أن نبين أن الإسلام وحد العرب فكرياً وسياسياً ، وفرض عليهم الجهاد . ومع أن غنى البلاد المجاورة كان له أثره ، إلا أن القوة الدافعة كانت للرسالة الجديدة وما أوجدته من وعي ووحدة . كما أن خطر القوى المجاورة ، فارسية وبيزنطية ، على الحركة الجديدة كان له أثره الكبير . ولنتذكر بعد هذا أن تنظيم الأمة خطط على أساس تعبئتها للجهاد وتمثل ذلك في تكوين ديوان الجند ، وفي العطاء والضرائب ، وفي التنظيم الاداري ، وفي بناء المدن الجديدة مثل الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان . لقد حصلت تعبئة فكرية وبشرية واقتصادية في سبيل الجهاد فكانت قاعدة التوسع السريع .

ومن ناحية اخرى لم تكن الفتوحات مجرد غزوات بسيطة ، بل كانت تسير وفق تخطيط عام يتضح من دراسة سير الفتوحات . فالحملات الأولى التي وجهت إلى العراق والشام اقتصر نطاقها على الأراضي المجاورة للصحراء ـ معقل العرب ـ حيث تعيش مجموعات عربية كبيرة . أراد العرب بذلك أن يوجدوا لأنفسهم مراكز يندفعون منها في توسعهم المقبل . ويتبين هذا في فعاليات خالد بن الوليد في العراق (إذ احتل الابلة ودار حول وادي الفرات ليحتل الحيرة والانبار على حافة الصحراء . ويصدق هذا على فعاليات الفرق الثلاث التي أرسلت إلى الشام (سنة ٦٣٣م) .

وكانت القوى التي أرسلت إلى العراق والشام صغيرة فحسبها الساسانيون والبيزنطيون غزوات بدوية ، ثم انتبهوا لخطرها فبدأوا باتخاذ مواقف اكثر

جـدية . وعـلى أثر ذلـك بدأت تتـوارد قوات اضـافية من المـدينة وبـدأ الصراع الجدي مع البيزنطيين والساسانيين .

وإتجـه الاهتمـام إلى الشـام أولاً لأنها أوثق روابط بـالحجـاز ، ولاهميتهـا الستراتيجية . فبدأت العمليات القوية المنظمة فيهـا وبهذا تبـدأ المرحلة الثـانية . وقعت في الشـام سلسلة معارك وكـانت المعركـة الحاسمـة في اليـرمـوك في (٢٠ آب ، اغسطس ، سنة ٦٣٦) وبها تقرر مصير الشام ، وتم الاستيـلاء على بقيـة البلاد خلال سنتين . ويلاحظ في هـذه المرحلة تضـافر القـوى العربيـة ووضعها تحت قيادة عليا واحدة . كما أبدى الأهلون ميلا للعرب .

وبعد اليرموك بدأت المرحلة الثانية في العراق ، بإرسال امـدادات جديـدة وتعيـين قيادة عليـا لجبهة العـراق . وكانت القـادسية (حـزيران ، مـايو ، سنـة ٦٣٧) معركة فاصلة أعقبها فتح العراق ، كـما كانت جلولاء آخـر معركـة مهمة (في نهاية سنة ٦٣٧) وبها ختم مصير العراق[1] وبهذا انتهت المرحلة الثانية .

ثم بـدأت المرحلة الثـالثة ، ولم تكن استمـرار الفتوح وحسب بـل كـانت ضرورة ستراتيجية وربما كانت ضرورة اقتصـادية . فقـد كانت القـوة الساسـانية تهدد العراق ، وكانت الاسكندرية في مصر قـاعدة لـلاسطول البيـزنطي وخـطراً مبـاشراً عـلى سوريـا وربما عـلى الحجاز وكـانت حيـويـة لتمـوين الحجـاز . لـذا فالروايات المعروفة التي تبين أن الحملة على مصر كادت أن توقف غير مقبولة .

وبـدأت الهجرات القبليـة الـواسعـة إلى الهـلال الخصيب بعـد القـادسيـة واليـرموك . وأنشـأ العرب الكـوفة والبصـرة لتكون دور هجـرة ومراكـز للقوات العربية ومحطات للتوسع شرقاً .

وكانت حركة الفتوح في ايران صادرة عن الكوفة والبصرة ، كما اشتـركت قوات من البحرين وهي القاعدة الثالثة ـ في فتح فارس .

---

(١) فتحت الموصل سنة ٦٢١ على يد عياض بن غنم من شمال سورية .

أما الحملة على مصر فكانت استمرار للحملة على سورية . ولم يبد الأهلون أية مقاومة للعرب باستثناء حالة واحدة هي الاسكندرية ذات الثقافة الهلنية وكانت خطة الحملة على مصر على نسق الحالات السابقة ، تبدأ بجيش صغير ، ثم تتوالى النجدات حسب الحاجة ، هذا اضافة إلى وجود اسطول يسند القوات البرية ويحميها . وفي مصر بنيت الفسطاط (الخيمة) لتكون مركزاً عسكرياً وإدارياً ، وصارت قاعدة لاندفاع الفتوح غرباً . وكانت خطتها مثل خطط الكوفة والبصرة .

أما الحملات التالية غرباً فكانت لحماية الفتوحات السابقة . فتح عمر برقة (سنة ٦٤٣) ، وتوسع عبد الله بن سعد إلى طرابلس ، وثبت مشكلة الحدود الجنوبية بمعاهدة مع النوبة (في نيسان ، ابريل ، ٦٥٢) . ووجه عناية خاصة للاسطول الذي بدأ به عمرو لحماية السواحل البحرية .

ولما كان الأسطول البيزنطي يشكل خطراً على العرب ، فقد أهتم أمير الشام ببناء الأسطول ، وبدأ يلتفت إلى الجزر المجاورة ، وكان الاصطدام بالبيزنطيين حتمياً ، وفي سنة ٦٥٥ ، وقعت معركة ذات الصواري بين الأسطول البيزنطي (من ٥٠٠ سفينة) والأسطول العربي ، وكانت نصر للعرب يوازي انتصار اليرموك .

ثم توقفت هذه الموجة من الفتوح اثناء الفتنة ، ولم تبدأ الموجة التالية إلا في الفترة الأموية . فأتسعت الفتوح إلى أواسط آسيا وإلى صقلية وجنوب فرنسا . وجابه العرب في كل الجبهات حدوداً مضطربة وجيراناً خطرين فهناك الشعوب الإيرانية ـ التركية على الحدود الشرقية والبيزنطيون إلى الشمال والفرنج إلى الغرب . وتحولت هذه الحدود إلى ساحات حملات محلية وصراع متصل .

إن تاريخ الفتوح هو تاريخ انطلاق الأمة العربية ، بعد أن توحدت فكرياً وعقائدياً وسياسياً ، لتحمل رسالة انسانية إلى أقاصي المعمورة . وهي فتوح كشفت الموجة الغربية وهاجمتها في عقر قواعدها .

أمـا الحروب الصليبيـة ، فهي تعبير عن انعكـاس الموجـة بهجـوم الغـرب الأوروبي على البلاد العـربية بـدعوة من بيـزنطيـة المهددة ، وبحجـة الدفـاع عن الأراضي المقدسة وانقاذها من المسلمين .

رفع الصليبيون راية الجهاد ، لتظلل الدوافـع الحقيقية ، اقتصـادية متمثلة في السيـطرة على طـرق التجارة وفتـح أسـواق الشـرق ، وسيـاسيـة في التـوسـع الاستعماري وفي ايجاد ساحة مغامرات بعد أن ضاق الجو الإقطاعي بالمغامرين ، ودينية لضرب الإسلام وممثليه .

وكـانت الـظروف مـواتيـة للغـرب ، تتمثـل في ضعف الخـلافـة وتسلط السـلاجقة حـديثي العهد بـالإسلام عـلى كثـير من بـلادهـا ، هـذا إضـافـة إلى انقساماتـه السريعـة وظهور دويـلات وإمارات محـل الكيان السيـاسي الموحـد ، وضعف الامكانات العسكرية وتدهور البحرية العربية .

وإن تحدثنا عن التفكك السياسي ، فـإن التفكك الاجتمـاعي لم يكن أقل خطورة ، فقد ظهرت الفتن المذهبيـة ، واشتد التفـاوت الاجتماعي ومـا يصحبه من صـراع ، واتسعت الحركـات العامـة ، ونشـطت المجمـوعـات القبليـة عـلى حساب المجموعات الحضرية .

وحين جاءت الحملة الصليبية الأولى وجدت هـذه التجزئـة وغلبة مـطامع الأمراء وشدة تنافسهم ، وضعف الوعي وعـدم تقديـر الخطر الخـارجي ، فتيسر للصليبيين تكوين امـاراتهم وفرض سلطانهم عـلى اجزاء من فلسـطين . ولم يكن انتصار الغرب ناشئاً عن تفوق حضاري أو عن تفـوق أنواع السـلاح ، فالعكس هو الأصح حتى اعتبرت الحروب الصليبية آخر الموجات البربريـة بنظر البعض ، بل جاء التفوق نتيجة ركود وتجزئة في الشرق العربي .

تكونت الإمارات الصليبية على الساحل ، وحـاول الغرب تشجيـع الهجرة إليهـا لتثبيت كيانـاتهـا كـما حـاول أن يحـافظ عـلى شـريـانها الحيـاتي وهـو طـرق المواصلات البحـرية . وحـاول الغرب أيضـاً أن يجعل من الإمـارات الصليبيـة

محطات لتوسيع سيطرته ولتعزيزها في حملات صليبية متتالية وقاعدة لضرب العرب والمسلمين .

وكانت قسوة الصليبيين تجاه المسلمين ، وما حملوه من روح عدائية استعمارية من أسباب رد الفعل ، وإثارة فكرة الجهاد والاستشهاد بين الناس . كما أن الأخطار المتزايدة أدت إلى محاولة الزنكيين ثم الأيوبيين رد العدوان وضرب الصليبيين .

وكان الاتجاه لتوحيد القوى العربية الإسلامية أول عمل جدي لمجابهة الصليبيين ، وبداية النهاية لاستعمارهم ، وحين تم جمع الجزيرة وشمالي سورية ومصر ضمن دولة واحدة تأكد التفوق الإسلامي .

ولا بد أن نلاحظ أن الوحدة السياسية هذه رافقتها وحدة فكرية بدت بوادرها من قبل انتهاء سلطان الفاطميين وتمت بعد زواله .

ولكن الخطر الصليبي استمر ما دام الطريق البحري بأيديهم وما دامت الامدادات متصلة من الغرب ، فلما قطع هذا الشريان تم التفوق .

ولم تكن الحروب الصليبية حدثاً مفرداً ، بل كانت حلقة في سلسلة الصراع الطويل بين الشرق والغرب . وقد تلاها تقدم العثمانيين غرباً وسيطرتهم على البحر الأبيض وبلوغهم أبواب اثينا .

وعاد الغرب من جديد في مطلع القرن العشرين إلى غزو استعماري واضح ومع أنه لم يرفع راية الصليب ، إلا أن الادعاءات الدينية وذكريات الغزو الصليبي كانت قائمة .

وأوجد الاستعمار اسرائيل وفرضها بالقوة تحت ستار من ادعاءات دينية وانسانية لتكون طليعة له ، وقاعدة استراتيجية وسط القارات الثلاث ، لحماية مصالحه واستغلاله الإقتصادي ، ولضرب القومية العربية الفتية ، كما أرادها أن تكون مركزاً يغزو منه بشكله الجديد الشرق العربي وافريقيا .

هذه نظرة سريعة إلى نطاق الكتاب ، لم أرد بها تقديمه بل توخيت رسم اطار عام لموضوعاته .

إن التاريخ يكتسب معنى وحيوية إن كتب وأمام الكاتب تجارب الحاضر ، وإن كتب فليلقي ضوءاً على المشاكل القائمة . ونحن نمر بفترة توجب تفهماً أعمق لتاريخنا وادراكاً لعناصر القوة والذفع فيه .

وقد تناول المؤلف معارك الفتح الكبرى ومعركة حطين . ويهمنا في كتابه أنه كتب بروح عربية ، وانطلق من وجهة نظر عسكرية في دراسة المعارك . ونلاحظ قبل هذا أن الكاتب يعيش في تجارب الحاضر حين يكتب عن الماضي ويرى تتابع الحلقات في سلسلة واحدة .

إن أحداث التاريخ لا تعيد نفسها ، ولكن خطوطه الأساسية لا تنقطع . لقد ردت الفتوحات العربية الإسلامية غزو الغرب الممتد بين الاسكندر والبيزنطيين ، وأسهمت حطين بدور أساسي في رد غزو الغرب المتمثل بالصليبيين . وكان ذلك ممكناً في الحالين حين تحققت الوحدة السياسية والفكرية ووحدة القيادة وحين أعدت تعبئة شاملة اقتصادية وبشرية ومعنوية .

إن مرحلتنا الحاضرة تحتم علينا اتخاذ هذه الخطوات وقد آن لنا أن نعي متطلباتها وأن نعد لها وأن نفيد من عبر التاريخ .

وإني إذ أقدر للكاتب ما بذل من جهة ، فإني لن أحاول تقييم مؤلفه ، بل أدع ذلك للقارىء ليراه من خلال قراءته .

الدكتور عبد العزيز الدوري

تمهيد

كانت منطقة الشرق الادنى ولا تزال أهم مناطق العالم من حيث الموقع والموارد الطبيعية الموجودة فيها . فهي الجسر الذي يربط الشرق بالغرب ، ومواردها الزراعية والمعدنية كانت ولا تزال مطمع الشرق والغرب على حد سواء ، ومطمح تفكير الدول الكبرى التي قامت هنا وهناك منذ فجر التاريخ تتوخى التوسع شرقاً أو غرباً لتحقيق أهدافها الاستعمارية اقتصادياً وسياسياً .

برز الاستعمار بظهور الامبراطوريات الكبرى في العالم ، وكان العامل الاقتصادي أهم ما يدفعها إلى التوسع والفتوح لتسيطر على مصادر الثروة ومنابعها وتغرف من مواردها اشباعاً لشعوبها وترفاً على حساب الآخرين .

ولم يكن توجه الاسكندر إلى الشرق ووصوله إلى الهند عبر منطقة الشرق الأدنى خالياً من الغرض الإقتصادي ، بل أن ما سمعه عن ثروة سورية الطبيعية[1] ومصر والعراق والهند كان الدافع الأول لزحفه هذا .

وأعقبه الرومان والبيزنطيون فسيطروا على سورية ومصر وشمالي افريقيا لمدة طويلة من الزمن يغرفون من مواردها الهائلة لتنعم بها روما والقسطنطينية

(١) المقصود بسورية الطبيعية (سورية الحالية ولبنان والاردن وفلسطين) .

والبندقية فتعيش في حياة مترفة ، تبني المدن والقصور والكنائس الفخمة التي لا تزال تحفا فنية خلفتها لأوروبا تلك الدول التي بنتها بأموال الشرق .

كان العامل الاقتصادي من أبرز دوافع الحملات الصليبية المتعاقبة على المنطقة العربية ، إذ هدفت إلى الاستيلاء على موانىء البحر الأبيض المتوسط العربية لتسيطر على الجسر الذي يربط أوروبا بآسيا وتتنعم (بسمنها وعسلها) كما قال البابا اربانوس الثاني المحرض الأول للحروب الصليبية في خطابه الذي ألقاه في مدينة كليرمون الفرنسية معلناً بدء الحملة حيث جاء فيه[1] :

« تقدموا إلى البيت المقدس . انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لانفسكم فهي تدر سمناً وعسلاً انكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ، وإن خذلتم فستقضون حيث مات يسوع ، فتخلدون في النعيم الدائم » .

وما كانت حملة نابليون على مصر وسورية إلا للاستفادة من مواردهما ضمن الامبراطورية الفرنسية التي كان يحلم بتأسيسها .

ثم جاء الاستعمار الحديث فسيطر على مصر وشمال افريقيا ثم استولى على باقي البلاد العربية بعد انتصاره في الحرب العظمى الأولى ، وانشأ فيها قواعد عسكرية لتحمي مصالحه الاقتصادية في المنطقة .

وما كادت الحرب العظمى الثانية تضع أوزارها حتى غير الاستعمار نظرياته الاستعمارية القديمة ، فاضطر أمام الحاح شعوب المنطقة المتطلعة الى الحرية والاستقلال ، وتحت ضغط التكاليف الباهظة التي تستنزفها ادامة هذه القواعد في المنطقة إلى الاعتراف بالاستقلال السياسي لبعض اقطارها ، والانسحاب من معظم هذه القواعد تاركاً ركيزة في قلب الوطن العربي تؤمن له قاعدة دائمة قوية لتهديد البلاد العربية برمتها ، ولتحافظ على مصالحه ، ولم تكن

---

(١) « مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية » ، محمد صبيح ، ص ٢١٦ .

تلك القاعدة الا اسرائيل التي اقامها الاستعمار الأوروبي في فلسطين ، كما أقام من قبل المملكة اللاتينية في القدس لتحمي مصالحه وتسيطر على طرق تجارته . ولقد جنى الاستعمار فوائد آنية وسريعة من اسرائيل حيث استخدمها لضرب مصر عام ١٩٥٦ ، عندما قضت حكومة الثورة على امتيازاته في قناة السويس .

لا يزال الاستعمار الغربي يحمي ربيبته إسرائيل ويقويها لتكون الشوكة الدامية الدائمة في قلب الأمة العربية يحركها كالدمية ضد أي بلد عربي يهدد مصالحه السياسية والاقتصادية والعسكرية .

وكانت الأرض العربية مهداً للحضارات الأولى في التاريخ وهي أول منطقة برز فيها كيان الدولة بمفهومه الصحيح . فقامت فيها امبراطوريات عظيمة دانت لها المنطقة بأسرها . ففي العراق قامت الامبراطوريتان البابلية والاشورية ، وفي مصر قامت امبراطورية الفراعنة ، وفي سورية أسس الفينيقيون دولتهم الكبرى .

وما كادت هذه الامبراطوريات تضمحل وتتهاوى الواحدة تلو الأخرى حتى قامت امبراطوريتان كبيرتان في الشرق والغرب هما الامبراطورية الفارسية في إيران والرومانية في الغرب ، وأخذت هاتان الامبراطوريتان تتنازعان للسيطرة على المنطقة الهامة في الشرق الأدنى ، فاستولى الفرس على العراق ، وسيطر الرومان على سورية الطبيعية ومصر وشمال افريقيا ، وبقيت البقاع العربية خاضعة للاستعمار حتى ظهر الإسلام الذي عمل على توحيد البلاد العربية تمهيداً لنشر رسالته الخالدة في العالم أجمع .

كان نهج النبي العربي (ص) وخلفائه من بعده تحرير الأرض العربية من غاصبيها ، لذلك ما كاد يتم القضاء على الجاهلية في جنوب الجزيرة ودخول أهلها كافة في الدين الجديد الذي نفخت فيهم عقيدته السمحاء روحاً معنوية عالية ودفعهم ايمانهم به إلى استعذاب الموت في سبيل تحقيق الرسالة الجديدة ، حتى بدأ الخليفة الصديق بتجهيز الجيوش القوية وتسييرها نحو الشام والعراق

لتحريرهما وضمها إلى الدولة الجديدة . وفعلاً تمكنت الجيوش العربية في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب من تحرير سورية وتحطيم الجيش البيزنطي في معركة اليرموك الحاسمة ، وتحرير العراق من الفرس بعد معركة القادسية الحاسمة ثم القضاء على الجيش الفارسي في معركة نهاوند التي كان من نتائجها زوال الامبراطورية الفارسية بعد مدة وجيزة . وفي عهده أيضاً تمكن عمرو بن العاص من تدمير جيش « المقوقس » الرومي في معركة عين شمس وحرر مصر العربية من السيطرة الرومانية .

وفي عهد الأمويين تم تحرير شمال افريقيا بأجمعه ، وهكذا توحدت البلاد العربية لأول مرة في التاريخ وأصبحت حدودها تمتد من الخليج الى المحيط .

ثم جاء عصر الفتح والتوسع لنشر رسالة الإسلام والتبشير بها في أطراف العالم . فتح الأمويون اسبانيا ودمروا الجيش القوطي في معركة لكة أو « وادي البرباط » الحاسمة . فدانت لهم اسبانيا وباتوا يهددون فرنسا وباقي الدول الاوروبية .

أما في الشرق فدانت لهم فارس والهند وبخارى وسمرقند ووصلوا إلى حدود الصين . وخلال حقبة قصيرة من الزمن أسسوا امبراطورية تمتد من حدود الصين شرقاً حتى حدود الاطلسي غرباً . وبات العالم يخشى أو يهاب هذه الامبراطورية العظيمة ويخطب ودها .

في عام (٧٥٠م) قوض بنو العباس حكم الأمويين ونقلوا عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد ، فدانت الامبراطورية العربية الى الحكم الجديد عدا الاندلس التي استقل بها عبد الرحمن الداخل ، وهو فتى اموي هرب من مطاردة العباسيين للأسرة الأموية إلى شمال افريقيا ومنها عبر إلى اسبانيا حيث أسس الدولة الأموية الزاهرة في الاندلس . وباتت الدولتان العربيتان في المشرق والمغرب أقوى من عقاب الجو ، تهابها أوروبا المسيحية وآسيا الوثنية . وأصبحت مدنها الرئيسية قبلة أنظار طلاب العلم والباحثين يقصدونها للتزود من مناهلها .

فجامعاتها في بغداد وقرطبة وغيرهما غدت معينا خصباً للعلم والفن والأدب .

إلا أن الزمن لم يصف للعرب طويلاً إذ دب الخلاف فيا بينهم وهدهم التنازع على الحكم والخلافة فضعف نفوذ بغداد وقرطبة ، واستقل حكام الاقاليم ، فقامت دول الطوائف في الشرق والغرب ، وانقسمت الامبراطورية الى أجزاء صغيرة ، لكل جزء حاكم أو أمير أو سلطان ، يتنازعون فيما بينهم . ولقد استغل الأجانب هذه النزاعات فسيطروا على قسم كبير من هذه الأقاليم والامارات ، وأصبحت الاسر الفارسية والتركية تحكم هنا وهناك ، ولم يبق للخلفاء إلا الأسم .

وفي هذا الخضم قامت في مصر خلافة الفاطميين التي استطاعت أن تسيطر على مصر وسورية وشمال افريقيا . ثم انقسمت على نفسها ، وتفرقت الى دويلات ضعيفة .

وما حلّ القرن الحادي عشر حتى كانت الأمبراطورية العربية مجزئة ، واهنة ، ضعيفة ، يحكمها ثلاثة خلفاء صوريين لا سلطان لهم ولا نفوذ ، أحدهم في بغداد ، والثاني في القاهرة ، والثالث في قرطبة .

كانت الحروب الداخلية بين هذه الإمارات والأقاليم تكاد لا تنتهي ، وكل أمير يريد التوسع على حساب جاره ولقد بلغ بهم الأمر أن استعانوا بالأجانب للقضاء على منافسيهم العرب .

إستغل الأوروبيون هذا التفكك والإنحلال والضعف وقرروا التقدم لسحق هذه الدويلات وإحتلال سورية الطبيعية بتحريض من امبراطور بيزنطة الذي خسر اسلافه الأباطرة في القرن السابع سورية ومصر وشمال افريقيا .

في أوائل القرن الحادي عشر أخذت أوروبا المسيحية تنهض من غفوتها متأثرة بحضارة العرب الزاهرة في الاندلس حيث غزا الفكر العربي أوروبا برمتها . فظهرت فيها الدول القوية ، واستشرى بها الاقطاع ، وقامت فيها المدن

الكبرى التي أخذت تنمو خاصة تلك التي كانت على سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث ظهر فيها طبقة من التجار سيطروا بأموالهم على سياسة تلك المدن وأخذوا يوجهونها لتخدم مصالحهم التجارية . أخذ هؤلاء التجار يفكرون بأسواق الشرق التي كانت تمدهم بالمواد الاولية ، ويحلمون بالسيطرة على موانئه ومدنه الواقعة على طرق قوافلهم التجارية ، وكانوا يحلمون بالسيطرة على منابع الشرق الزراعية والمعدنية الهائلة . وكانت أهم هذه المدن التجارية البندقية وبيزة وجنوه في ايطاليا ، ومرسيلية ومونبيلية في فرنسا . وكانت البندقية أهم هذه الموانىء التجارية[1] وأشدها تعطشاً للسيطرة على موانىء البحر الأبيض المتوسط . حتى أنها انشأت المخازن والمستودعات في كل مكان حتى في شبه جزيرة القرم ، وعقدت معاهدة تجارية مع بغداد ، وأرسلت عملاءها إلى انحاء الشرق العربي والشرق الأوسط . وكان التجار يحملون البضائع المختلفة من الصين والهند كالعطور والتوابل والصموغ والحرير والاصباغ والسكر والعاج والبخور والاحجار الكريمة حيث توزع في أوروبا . وفي مقابل ذلك ينقلون إلى الشرق ما تنتجه مصانعهم اليدوية من الانسجة والاجواخ . ولقد ارتبطت المدن التجارية في فرنسا وايطاليا برابطة اقتصادية قوية وقام بينها تضامن وثيق .

وبينما كانت هذه المدن تتنازع السيطرة على أسواق الشرق مع منافستهم اللدودة القسطنطينية ، ظهر لهم منافس جديد بظهور الدولة السلجوقية التي استطاع سلطانها « ألب ارسلان » سنة ١٠٧١م ، أن يحطم الجيش البيزنطي في معركة « ملاذكرد » الشهيرة وأسر امبراطور بيزنطة « رومانوس ديوجين » . وجاء بعده ابنه ملكشاه ، وتوسع بدولته فانتزع سورية من الفاطميين ، وفي سنة ١٠٨٤م احتل انطاكية وأنشأ في أزمير اسطولاً كبيراً بات يهدد اساطيل أوروبا التجارية بالفناء .

تحفزت المدن الاوروبية تجاه هذا الخطر الذي اخذ يهدد مصالحها التجارية

---

(١) صلاح الدين الأيوبي ـ قدري قلعجي .

وراحت تنادي بضرورة اقصاء الاتراك السلاجقة عن حوض البحر الأبيض المتوسط . ولما كان الاتراك مسلمين فقد بثت فكرة الحرب للقضاء على المسلمين .

استمرت سلسلة الحروب بين السلاجقة والبيزنطيين حتى عام ١٠٩٥م حين استنجد الامبراطور البيزنطي « الكسيوس كومنين » بالبابا « أربانوس الثاني » طالباً مساعدته في استعادة آسيا الصغرى من حكم السلاجقة المسلمين . وعلى ضوء ما سمعه هذا البابا عن اضطهاد السلاجقة للمسيحيين والحجاج بدأ يفكر في مشروع[١] لطرد المسلمين من آسيا الصغرى بالجهد والعزيمة اللتين يجري بهما طردهم من اسبانيا . وفي الوقت نفسه كان يهدف من وراء هذا المشروع إلى السيطرة على الكنيسة الشرقية وربما كان يطمح بتوحيد الكنيستين الغربية والشرقية .

ولقد أقنع مبعوث الامبراطور البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء .

وفي اجتماع « كليرمون » عام ١٠٩٥م أعلن البابا الحرب الصليبية ، ودعا ملوك أوروبا وامراءها بالمسير نحو الشرق بدعوى انقاذ بيت المقدس ، مهد المسيح ، من المسلمين .

وهكذا اجتمعت العوامل الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية اضافة الى شهوة المجد التي سيطرت على بعض ملوك أوروبا وامرائها مقلدين بذلك الفاتحين الأوائل كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبعل . وقد أدت هذه العوامل إلى اندفاع الأوروبيين نحو الشرق للاستيلاء على الأرض العربية .

ويعرف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الحروب الصليبية بأنها[٢] :

---

(١) الحركة الصليبية ج ١ ص ١٣٠ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
(٢) الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥ .

« حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين ، وبخاصة في الشرق الأدنى ، بقصد امتلاكها ، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والإقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق » .

في عام ١٠٩٧م تقدمت الحملة الصليبية الأولى ، واكتسحت آسيا الصغرى.، واحتلت القسم الساحلي من سوريا وفلسطين حتى وصلت القدس واحتلتها ، وأسست مملكة لاتينية فيها استمرت تحكم هذه الاقاليم حتى عام ١١٨٧م .

فتك الأوروبيون بغزواتهم المتكررة بملايين العرب بصورة وحشية لم يسبق لها مثيل ، ولم يراعوا حرمة لشيخ أو طفل أو امرأة . وخلال هذه الحقبة من الزمن كانت دويلات العرب الضعيفة الواهنة تدافع عن نفسها وممتلكاتها فقط ، إذ لم تكن قادرة على الهجوم منفردة لطرد العدو الذي اغتصب أعز بقعة من أرض العرب . ولم يفكر أي أمير من أمراء هذه الدول بالوحدة والتكاتف تمهيداً لقلب الدفاع الى الهجوم والتعاون على طرد الاجنبي الغاصب .

وفي أواسط القرن الثاني عشر ظهر عماد الدين زنكي أمير الموصل وحلب ، ومن بعده ابنه نور الدين اللذان قدرا الخطر وعزما على توحيد العرب لمجابهة العدو وازالته . ولقد نجحا في توحيد بعض الامارات العربية في سوريا ومصر ، وجاء بعدهما البطل صلاح الدين الأيوبي وعزم على توحيد القيادة السياسية والعسكرية للعرب والقضاء على دويلات الطوائف وتأسيس دولة عربية واحدة قوية ، قادرة على طرد الصليبيين واسترداد الأرض السليبة .

وبعد حروب داخلية تمكن هذا القائد الفذ من توحيد مصر وسوريا

وشمال العراق واليمن وغرب الجزيرة العربية وأسس دولة عربية قوية استطاعت بمدة وجيزة تدمير الغاصبين واستعادة المدن والأقاليم منهم ، ولم تحل سنة (١١٨٧م) حتى دمر الجيش اللاتيني تدميراً كاملاً في **معركة حطين الفاصلة** . واستردت القدس ، ولم يبق للصليبيين سوى نفوذ صغير في بعض مدن الساحل تزحوا عنها نهائياً عام ١٢٩١م .

وفي الفترة نفسها كانت تدور حرب صليبية أخرى في اسبانيا حيث استغل الاسبان انحلال الدولة العربية في الاندلس ، وتعدد دول الطوائف فيها ، وتنازع أمرائها على الحكم ، واستعانة بعضهم بهم ضد الآخر ، فأخذوا يتقدمون لاحتلال المدن والاقاليم . وكلما توسعت عوامل الفرقة والضعف بين دويلات العرب ترسخت عوامل الوحدة والقوة بين دويلات الاسبان .

ففي سنة ١٢٣٠م حقق « فردناند الثالث » ملك « قشتالة » الوحدة مع مملكة « ليون » ، واستطاع سنة ١٢٣٦م احتلال قرطبة ، العاصمة السابقة للخلافة ، وفي سنة ١٢٤٤م استولى على أشبيلية ، وفي سنة ١٢٥٠مم احتل قادس وشريش .

وفي سنة ١٢٦٦م استولى « الفونس العاشر » على مرسية ولم يبق للعرب الا مقاطعة غرناطة حيث لبثوا قرنين آخرين .

وفي اواسط القرن الخامس عشر تزوج فردناند ملك « ارغون » من ايزابلا ملكة « قشتالة » فتوحدت المملكتان . وقرر الملك انتزاع غرناطة من العرب فتم له ذلك عام ١٤٩١م بعد معارك طاحنة استمرت عشر سنوات . وانقرضت بذلك الدولة العربية في الاندلس ، ولم تقم لها قائمة بعدها .

كان البابا يدفع ملوك الاسبان للوحدة ويحرضهم على حرب المسلمين وطردهم من اسبانيا ، ويحرض الاوروبيين على التطوع في هذه الحرب ، فتطوع

عدد من الانكليز والسويسريين والالمان والفرنسيين وشاركوا الاسبان في حرب العرب .

وبالرغم من أن شروط تسليم غرناطة نصت على عدم الانتقام من العرب والاساءة اليهم ، إلا أن الاسبان ما كادوا يدخلونها حتى قرروا القضاء على الدين الاسلامي قضاءً مبرماً ، فاستعملوا افظع وسائل التعذيب والقتل . واستمرت هذه الوسائل حتى القرن السابع عشر ، واضطر عدد كبير من المسلمين إلى اعتناق الدين المسيحي تخلصاً من التعذيب والاضطهاد .

وبعد معركة حطين بـ ٨٠ سنة تعرضت البلاد العربية إلى غزوة شرسة جديدة فاقت الغزوة الصليبية وحشية وقساوة . فقد زحفت جموع المغول من الشرق واجتاحت الدولة الاسلامية الخوارزمية واحتلت تركستان وخراسان وأفغانستان وإيران . ثم توجه القائد المغولي هولاكو إلى العراق فاحتل مدنه وقتل الملايين من أبنائه ، وحاصر بغداد وتمكن من احتلالها في ١٠ شباط ، فبراير ، ١٢٥٨م ، ودمر كل معالم الحضارة فيها وقضى على الخلافة العباسية ، وعمل في ابنائها قتلاً وسبيا حتى بلغ عدد القتلى في المدينة نفسها أكثر من مليون شخص . وبعد أن استتب له الأمر في العراق زحف على سوريا فدمر مدنها الواحدة بعد الأخرى ، ثم دخل دمشق وعمل فيها ما عمله في بغداد ، ثم انحدر الى فلسطين في طريقه الى مصر .

أما العرب فقد تفككوا مرة ثانية بعد موت صلاح الدين الأيوبي وضاعت وحدتهم ، واستقل كل أمير أو قائد من ورثته في أقليم . فكان حاكم دمشق يضمر الحقد لحاكم حلب أو حاكم الموصل . كما أن هؤلاء الحكام قطعوا كل صلة لهم بالخليفة في بغداد أو بالسلطان في القاهرة .

وهكذا تفرق العرب مرة أخرى مما سهل على المغول الاستيلاء على العراق وسوريا بيسر وسهولة . ولقد ساعد بقايا الصليبيين المغول في بداية الأمر ولكنهم لما شعروا بضعفهم انقلبوا عليهم أخيراً .

ولما دق الخطر أبواب مصر أخذ سلطانها سيف الدين قطز يستعد للحرب لانقاذ مصر وباقي البلاد العربية من هذا الاعصار المدمر . ولما كملت استعداداته تقدم بجيشه الى فلسطين حيث اشتبك في قتال رهيب مع المغول في عين جالوت وتمكن من احراز النصر واستعاد الأرض السورية جميعها وأوقف المد المغولي الذي بدأ بعد هذه المعركة بالانحسار .

وهكذا في فترة وجيزة لم تتجاوز ١٠٠ سنة ، جرت على أرض فلسطين معركتان فاصلتان انتصر بهما العرب على أبشع غزوتين تعرضوا لهما في تاريخهم ، الغزوة الصليبية من الغرب والغزوة المغولية من الشرق .

إن دراسة معارك التحرير هذه فيها عبر ودروس ، فهي تذكرنا بماضينا السعيد ، وعظمة أمتنا العربية ، وتعلمنا دروساً في التضحية والشجاعة والاقدام والصبر ، والإيمان بالعقيدة ، وتأثير المعنويات العالية والقيادة الجيدة في نوال النصر . كما أن دراستها تعطينا فكرة عن فن الحرب في ذلك الوقت ، ذلك الفن الذي برع فيه أجدادنا ، ودل على أن عقيدتهم السوقية التعبوية كانت متينة البنيان ، فسوقهم الجيش من المدينة المنورة الى الشام والعراق ومصر وفارس ، يدل على تفهم دقيق لفن السوق الذي كان متبعاً في ذلك الوقت .

والتعبئة التي اتبعوها في ساحة اليرموك والقادسية ونهاوند وعين شمس ولكة وحطين وغيرها من المعارك ، تدل على ان قادتهم كانت لديهم فكرة تعبوية ممتازة ومهارة لا تجاري في إدارة المعارك .

وبامكاننا استنباط دروس عسكرية قيمة من دراسة هذه المعارك التي طبقت فيها بعض مبادىء الحرب المعروفة في الوقت الحاضر ، هذه المبادىء التي لم تكن مدونة أو مسماة حتى جاء نابليون فثبتها .

وفوق هذا وذاك فقد برز في هذه المعارك عدد كبير من القادة العظام كانت سيرتهم ولا تزال محل دراسة العسكريين في كل زمان ومكان . كالقائد العبقري

خالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وموسى ابن نصير وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع ومحمد القاسم وطارق بن زياد وصلاح الدين الايوبي وغيرهم كثيرون .

إن الذي أهدف اليه من هذه الدراسة هو أن أضع أمام شبابنا الصاعد المتوثب إلى المجد نماذج فريدة من المعارك البطولية التي قادها أبطال افذاذ عرفوا بمتانة العزم وقوته .

وأرجو أن أكون بعد هذا قد وفقت للوصول إلى الغاية التي آمل أن نستمد منها قوة لبناء مستقبلنا الذي نتطلع اليه ونعمل جاهدين على تحقيقه .

صبحي عبد الحميد

معركة اليرموك

التمهيد لفتح الشام

بعد أن استتب الأمر لأبي بكر الصديق في الجزيرة العربية ، وقضى على المرتدين في أطرافها ، أخذ يفكر جدياً في تحرير باقي الأرض العربية من الاستعمار ونشر الدعوة الاسلامية في ربوعها .

كان الألم يحز في قلب الصديق ، وهو يسمع باضطهاد الفرس والروم لاخوانه عرب العراق وسورية ، اذ طال خضوعهم للمحتل الغاصب ، وآن الأوان لتحرير هذه الأرض الطيبة من علوج الفرس والروم ، كما هاله تهديد هذا الاستعمار لمكة والمدينة مصدري الاشعاع والعقيدة الجديدة ، وعزمه على التقدم من الشمال والشرق للقضاء على الدعوة الاسلامية الصاعدة التي بدأت تهدد بقاءه ووجوده ، وتقاليده البالية . كل هذا جعل الصديق يقرر تحرير العراق وسورية ، فأخذ يستشير ذوي الرأي من أصحابه وقادته ومستشاريه ، واتفقت الكلمة على ضرورة تحرير هذين الاقليمين العربيين الهامين .

وما كاد يتخذ هذا القرار حتى وصلته أنباء تقدم المثنى بن حارثة الشيباني من البحرين باتجاه الشمال واحتلال القطيف وهجر ، ووصوله إلى مصب دجلة والفرات . ثم قدم المثنى بنفسه إلى المدينة ليقنع الخليفة بضرورة ارسال جيش قوي إلى العراق لتحريره من الفرس .

شجعت أخبار المثنى الخليفة على اتخاذ القرار النهائي بفتح الشام والعراق . وبعد تقدير دقيق للموقف ، ودراسة الوضع الداخلي للامبراطوريتين الفارسية والرومية وضعت الخطة السوقية العامة للفتح التي تتلخص بـ :

« إتخاذ موقف الدفاع على تخوم الشام تجاه تحركات الروم بالقوة المرابطة هناك . والبدء بتحرير العراق وتحشيد الجيوش اللازمة للقيام بالهجوم العام على قوات الفرس فيه . وحالما يتم تحريره تتحشد الجيوش لتحرير سورية » .

وكان لنجاح المثنى الأولي في العراق أثر في تشجيع الخليفة على اتخاذ هذه الخطة السوقية .

وتنفيذاً لذلك أمر المثنى بالمضي في تقدمه ، ثم جهز جيشاً بقيادة خالد بن الوليد الذي كان في اليمامة وأمره بالسير إلى العراق لمساعدة المثنى وتولي القيادة العامة للجيوش العربية المقاتلة فيه .

وفي الوقت نفسه أمر قائده على حدود الشام خالد بن سعيد ، بمراقبة الروم وتجنب الاصطدام بهم والعمل على بث الدعاية بين القبائل العربية الغسانية التي كانت في سورية واجتذابهم الى الدين الإسلامي وإثارة النخوة والعزة القومية في نفوسهم وتحريضهم ضد الروم .

اكتسحت الجيوش العربية بقيادة خالد بن الوليد جنوب العراق بسرعة ، وكانت مقاومة الفرس تنهار أمام عزيمة العرب وايمانهم ، إذ كانوا يقاتلون في سبيل نشر عقيدتهم وتحرير جزء عزيز من أرض العرب .

شعر الروم في الشام بالخطر الذي سيتعرضون له بعد انهيار الفرس بالعراق ، وأدركوا أن الدائرة ستدور عليهم فور الانتهاء من تحرير العراق ، لذلك قرروا مهاجمة الدولة العربية في عقر دارها ، مستغلين انشغال جيوشها الرئيسية في حرب فارس .

أخذ هرقل امبراطور الروم يحشد قواته للانقضـاض من سوريـة على مكـة والمدينة فيقضي على هذا الخطر الذي بات يهدد عرشه بالزوال .

ولمـا وصلت أنباء تحشـد الروم إلى خـالد بن سعيـد ، الذي كـان مقره في « تيماء » ، وجد أن جيشه الذي لا يزيد عدده على ٧ آلاف مقاتل غـير قادر عـلى الصمـود أمام هجـوم كبير تشنـه عليه قـوات الروم ، والمـوقف يتطلب منـه شن هجوم سريـع على قـواتهم المتفرقـة قبل أن يتم استعـداد وتحشيد وتـدريب القوة الـرئيسية فيؤثـر على هـذه الاستعدادات ويؤخـر عمليـة التحشـد ريثـما يتـدارك الخليفة الموقف السوقي بصورة عـامة . لـذلك أرسـل طلباً إلى الخليفـة يستأذنـه بالتقدم نحو الشمال .

استشار الخليفة أهل الرأي بالموضوع ، فأشـاروا عليه بتجهيـز جيش قوي لغـزو الروم خـاصة أنـه قد فـرغ نهائياً من القضـاء على المـرتـدين في اليمن وإن خالد بن الوليد قد وصل الحيرة في العراق .

وبينـما كان الصـديق منهمكـاً في اعـداد الجيش لارسـالـه إلى الشـام كـان خالد بن سعيد يرسل اليه الرسل تخبره بتجمعات الروم ، ويستحثه على السماح لـه بتحطيم هـذه الجيوش قبـل تكاملهـا . فأرسـل الخليفة اليـه أمره المشهـور : « أقدم ولا تحجم واستنصر بالله » .

بعـد هذا الأمـر تخطى خـالد بن سعيـد الحـدود وتـوغـل في أرض الشـام مكتسحـاً مفارز القـوات البيزنـطية حتى بلغ « القسـطل » الـواقعـة عـلى البحـر الميت ، وبعدها أخذت مقاومة الروم تشتـد ، فتعذر عـلى الجيش العربي التقـدم تجاه هذه المقاومة ، فأرسل خالد إلى الخليفة يطلب مدداً ، ولبى الخليفة الـطلب وأرسل النجدات من القوات التي جمعها ، فوصلت تباعاً كل من قـوة الوليـد بن عقبـة وقوة عكـرمة بن أبي جهـل وقوة ذي الكـلاع . وفي الـوقت نفسـه أصـدر الخليفة أمراً إلى عمرو بن العاص الـذي كان يقيم في قضـاضة أن يتقـدم بجيشه نحو فلسطين .

وما أن وصلت قوة الوليد وعكرمة وذي الكلاع حتى سارع خالد الى استئناف تقدمه .

كان القائد الروماني البطريق[1] « باهان » يتظاهر بالانسحاب أمام الجيش العربي مستدرجاً اياه إلى المحل المناسب الذي اختاره لقبول المعركة . وما أن وصل العرب قرب « مرج الصفر » بين واقوصة ودمشق حتى هاجمهم « باهان » وأحاط بهم وقطع خط رجعتهم ، فارتبك الجيش وفر خالد بن سعيد مع كتيبة من الجيش تاركاً ابنه صريعاً في الساحة ، فتولى القيادة محله عكرمة بن أبي جهل الذي استطاع الانسحاب بباقي الجيش الى حدود الشام ، وهناك جمع شتات الجيش وتحصن ينتظر وصول النجدات . أما خالد بن سعيد فاستقر ومن كان معه بعد هروبه بذي المروة وكان معه ثلاثة آلاف مقاتل وبقي مع عكرمة ستة آلاف مقاتل .

وما أن وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى الخليفة حتى جمع مجلساً حربياً من مستشاريه وقادته لمناقشة الأمر .

حزّ هذا الخسران وتلك الهزيمة في نفوس الجميع ، وارتاعوا للخطر الذي يهددهم إذا استمر الروم بزحفهم مستغلين النصر ، فأشاروا على الخليفة بتبديل الخطة السوقية ، وذلك باتخاذ موقف الدفاع في العراق في المحل الذي وصل إليه خالد ابن الوليد والاقتصار على المناوشات الطفيفة ، وتحشيد أكبر عدد ممكن من الجيوش للهجوم على الروم بالشام خوفاً من استغلالهم انتصارهم والتقدم نحو الجنوب للقضاء على الدولة العربية الفتية .

أصدر الخليفة أمراً إلى خالد بالتوقف عند الحيرة ، ثم جهز ثلاثة جيوش عهد بقيادتها لخيرة قادته وهم شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة عامر ابن الجراح[2] .

---

(١) البطريق : أكبر رتبة في الجيش الرومي وتعطى دائماً للقائد العام للجيش .

(٢) تقول بعض المصادر ان الخليفة ارسل هذه الجيوش الى الشام قبل اندحار خالد بن سعيد ووصلت الى مناطق تحشدها على حدود الشام اثناء انسحاب جيش خالد بن سعيد من مرج الصفر .

وتجمعت هذه الجيوش تباعاً في (الجرف) فإذا آن لاحدها أن يسير خرج اليه الخليفة مودعاً ، وكانت وصاياه لهم وهو يودعهم :

« إلا أن لكل أمر جوامع . فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ . إلا أنه لا دين لأحد لا ايمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له . إلا أن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به ، هذه التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، والحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة »[1] .

خطط تحشد الطرفين واستعداداتها

العرب :

كانت خطة تقدم وتحشد وأهداف الجيوش العربية التي اشتركت في فتح الشام ، كما يلي :

الجيش الأول :

قائده : عكرمة بن أبي جهل

قوته : ٦٠٠ مقاتل

واجبه : احتياط عام وحماية خط المواصلات ، وكان يعسكر على حدود الشام منذ انسحابه من معركة مرج الصفر .

الجيش الثاني :

قائده : يزيد بن أبي سفيان .

: **قوته** : ٧٠٠٠ مقاتل .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٩٠ .

هدفه : دمشق .
طريق تقدمه: المدينة ـ تبوك ـ البلقاء ـ معان ـ دمشق .

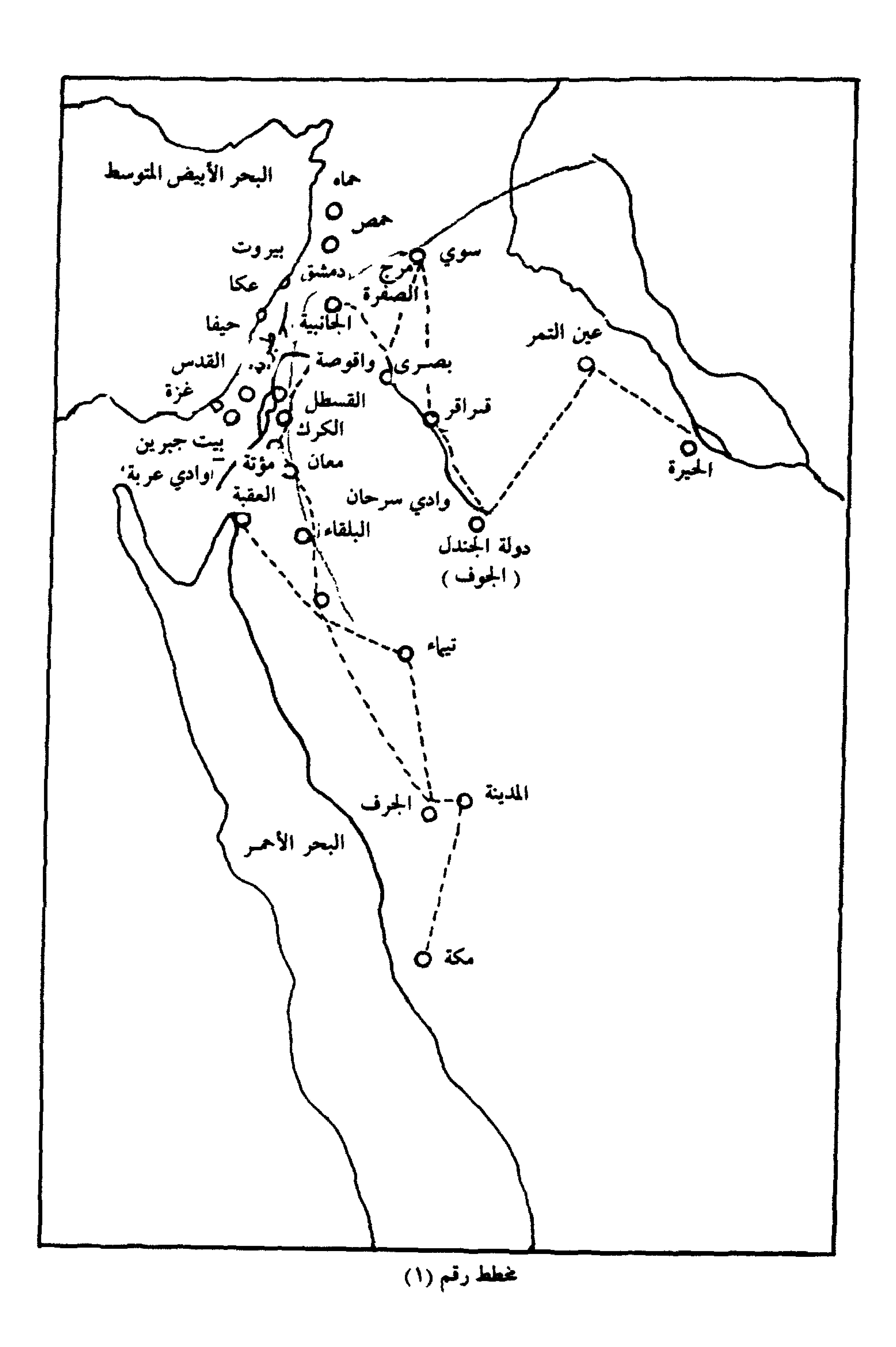
ولقد التحقت بهذا الجيش القوة التي كانت في ذي المروة مع خالد بن سعيد .

الجيش الثالث
قائده : عمرو بن العاص .
قوته : ٧٠٠٠ مقاتل .
هدفه : احتلال فلسطين .
كان يعسكر في وادي عربة ، وقد سلك اليه الطريق الساحلي مارا بالعقبة .

الجيش الرابع :
قائده : ابو عبيدة عامر بن الجراح
قوته : ٧٠٠٠ مقاتل
هدفه : حمص
طريق تقدمه : المدينة ـ تبوك ـ البلقاء ـ دمشق ـ حمص

الجيش الخامس
قائده : شرحبيل بن حسنة
قوته : ٧٠٠٠ مقاتل
هدفه : بصرى
طريق تقدمه : المدينة ـ تبوك ـ البلقاء ـ بصرى

لم يعين الخليفة قائداً عاماً لهذه الجيوش كما فعل في العراق عندما عين خالد ابن الوليد قائداً عاماً للجيوش المحاربة فيه . وكان كل جيش من هذه الجيوش مستقلاً عن الآخر وقد اوصاهم الخليفة بالتعاون فيما بينهم عند الحاجة



البحر الأبيض المتوسط
حماه
حمص
بيروت
دمشق
عكا
مرج
سوي
الصفرة
الجانبية
حيفا
القدس
واقوصة
بصرى
غزة
القسطل
قراقر
عين التمر
الكرك
بيت جبرين
مؤتة
معان
وادي عربة
العقبة
وادي سرحان
الحيرة
البلقاء
دولة الجندل
(الجوف)
تيماء
المدينة
الجرف
البحر الأحمر
مكة

مخطط رقم (١)

وان يتولى القيادة العامة إن اجتمعوا أبو عبيدة عامر بن الجراح . كما عين قادة هذه الجيوش أمراء على المناطق التي يفتحونها أيضاً .

كانت خطة الروم تستند إلى السماح للجيوش العربية بالتوغل داخل البلاد لاطالة خطوط مواصلاتها وعزلها عن قواعدها البعيدة في الجزيرة العربية ومن ثم مهاجمتها منفردة والقضاء عليها مستفيدين من قرب قواعدهم وقصر خطوط مواصلاتهم ، بعد أن نجحت مثل هذه الخطة مع خالد بن سعيد من قبل .

تقدم الجيش العربي :

عبر جيش يزيد بن أبي سفيان حدود الحجاز في اواخر سنة ٦٣٣م وعسكر في البلقاء[١] ثم وصل اليها أيضاً كل من جيش شرحبيل وأبي عبيدة على التوالي .

تحرك جيش أبي عبيدة من البلقاء إلى الجابية[٢] وعسكر على طريق دمشق بعد أن أخضع من قاومه من الروم والعرب الموالين لهم . ثم تبعه جيش شرحبيل فوصل الأردن وعسكر في مرتفع بأعلى وادي الغور فوق بحيرة طبرية ونهر الأردن وكان يهدف إلى التقدم نحو بصرى ومحاصرتها .

ويبدو من حركة الجيوش هذه أن الجيوش العربية كانت تتقدم دباخياً ،

---

(١) تقول بعض الروايات أن « يزيد » استمر في تقدمه ودخل فلسطين واشتبك مع الروم بمعارك ضارية اهمها معركة « دائن » وقد قضي على كل مقاومة صادفته .
إلا أنني لا أميل لتصديق هذه الرواية لأن فلسطين كانت هدف جيش عمرو بن العاص الذي كان يعسكر وقت تقدم جيش يزيد في وادي عربة . ثم ان هدف يزيد كان احتلال دمشق وطريق تقدمه كان يمر شرقي البحر الميت . لذلك فإن توقفه في البلقاء كان منطقياً منتظراً وصول باقي الجيوش لتنسيق خطته معها .

(٢) تقع الجابية في الجولان على مسيرة يوم واحد من دمشق ، وكانت مقرا للامراء الغسانيين .

وكان الغرض من تحرك جيش أبي عبيدة وشرحبيل قبل جيش يزيد تمهيد الطريق له لفتح دمشق . فقد كان واجب جيش شرحبيل تطهير الأردن والا فليس من المعقول أن يسبقه يزيد . ولما كان هدف أبي عبيدة هو حمص فليس من المنطقي أن يتخطى الجابية قبل أن يحتل جيش يزيد دمشق .

أما جيش عمرو بن العاص فكان معسكراً في وادي عربة مهدداً حبرون

استعدادات الروم :

على أثر النجاح الذي أحرزته الجيوش العربية في تقدمها الأولي نحو أهدافها قرر هرقل ايقاف تقهقر قواته وتبديل خطته إلى الصمود بوجه الجيوش الغازية لأبعد ما يمكن في الإمام ومنعها من التغلغل اكثر من ذلك في أرض الشام ، خاصة وانه قد أكمل استعداد وحشد قواته الجديدة التي ألفها لتدمير القوات العربية . لقد قرر الانتقال من خطة الانسحاب إلى خطة الهجوم وقد شجعه على اتخاذ هذا القرار المعلومات الدقيقة التي وصلته عن قوة الجيش العربي الذي كان عدده ٣٧ الف مقاتل موزعاً على الجيوش العربية الخمسة . وهذه القوة لا تقارن بتعداد الجيش الكبير الذي جمعه هرقل حيث بلغ عدده ٢٤٠ ألف مقاتل ، بضمنهم ٨٠ ألف فارس . كما أغراه موقف الجيوش العربية المتباعدة على التقدم لتحطيمها كلا على انفراد مستغلاً استقلالها وتباعدها وعدم وجود قائد عام ينسق أمورها ويسيطر على حركاتها اضافة الى تفوقه الساحق عليها .

شكل الروم من هذه القوة الكبير اربعة جيوش عهدوا لها الواجبات التالية :

الجيش الأول

قائده : الأمير تيودوريك (تذارق) ، شقيق هرقل .

قوته : ٩٠ ألف مقاتل .

واجبه : التقدم نحو فلسطين وتدمير جيش عمرو بن العاص فيها .

الجيش الثاني

قائده : الفيقار بن نسطوس

قوته : ٦٠ الف مقاتل

واجبه : تدمير جيش أبي عبيدة

الجيش الثالث

قائده : الدراقص

قوته : ٤٠ الف مقاتل

واجبه : تدمير جيش شرحبيل بن حسن

الجيش الرابع

قائده : جرجه بن تدرا (جرجيوس)

قوته : ٥٠ الف مقاتل

واجبه : تدمير جيش يزيد بن أبي سفيان

عهد هرقل بالقيادة العامة لهذه الجيوش للبطريق « باهان » ، أما هو فقد تحصن بحمص وجعلها مقراً له يوجه منها النجدات والمؤن إلى الجيوش المتقدمة . ومن مقارنة قوة هذه الجيوش بقوة الجيوش العربية نجد أنها تساوي سبعة أمثال الجيش العربي الذي يقابله . فكان تفوقاً ساحقاً لا بد أن ينتج عنه نصر أكيد .

كانت خطة الروم الجديدة تقضي بالتقدم مستفيدة من تفوقها الساحق وتدمير الجيوش العربية كلا على انفراد قبل أن تجتمع .

تبديل خطة العرب :

ولما وصلت أنباء هذه الحشود العظيمة إلى القادة العرب عقدوا مؤتمراً تبادلوا فيه الرأي ودرسوا الموقف دراسة دقيقة واتفقوا بأن بقاءهم متفرقين

متباعدين يسهل للروم تدميرهم لذلك لا بد من تجمعهم في منطقة واحدة وتحت قيادة واحدة وقبول المعركة في المحل الذي هم يختارونه .

وكان صاحب هذا الرأي عمرو بن العاص الذي لم يحضر الاجتماع بل أرسل رأيه لهم مكتوباً من فلسطين ، وقد أرسلوا رسولاً الى الخليفة ليشرح له الموقف بتفاصيله ويطلب موافقته على قرار القادة بالتحشد في اليرموك ، وارسال نجدات جديدة لهم تساعدهم على مقاومة الحشد الرومي العظيم .

وافق الخليفة على الخطة ووعد بارسال النجدات ووجه لجيوشه الوصايا التالية :

« إجتمعوا عسكراً واحداً ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم ، فاحترسوا من الذنوب والله ناصركم »[1] .

وعند وصول موافقة الخليفة أخذت الجيوش العربية تتحشد في منطقة اليرموك جنوب شرقي النهر شمال (اذرعات) وتولي قيادتها جميعاً أبو عبيدة تنفيذاً لأمر الخليفة السابق الذي أوصاهم بامارته أن اجتمعوا . وكان وقتذاك جيش شرحبيل يحاصر بصرى فترك كتيبة قوية في محاصرتها وسار بباقي الجيش إلى منطقة التحشد الجديدة .

تبديل خطة الروم :

لما علم الروم بتحشد الجيوش العربية جنوبي اليرموك تشاور باهان مع

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٩٢ .

هرقل وقررا تغيير خطة تقدمهم السابقة وتوجيه الجيوش كافة نحو اليرموك على أن تتحشد شمال النهر . وفعلاً غيرت هذه الجيوش خطوط تقدمها نحو منطقة التحشد[1] .

جمود الموقف :

أكمل الطرفان تحشدهما شمال اليرموك وجنوبه ولبثا شهرين يكملان استعداداتهما ، ولما استقر الروم في معسكرهم في المنطقة المحصورة بين نهر اليرموك ووادي الرقاد أرسل العرب عيونهم وجواسيسهم لاستطلاع المنطقة فوجدوا أن الروم قد حصروا أنفسهم في منطقة لها منفذ واحد فقرر القادة العرب عبور اليرموك والتعسكر في منطقة تسد هذا المنفذ[2] ، فاختاروا منبطحاً على طريق الروم شمال شرقي موضعهم وبذلك سدوا بوجههم طريق الانسحاب الوحيد . وكانت الجبال تحيط بهم من الجهات الاخرى ولما رأى عمرو بن العاص ذلك قال : « أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير » . أما الخليفة فبعد تمحيص المعلومات وجد أن لا بد من ارسال النجدات

---

(١) يقول الطبري ج ٣ ص ٣٩٣ .

« وبلغ ذلك هرقل فكتب إلى بطارقته أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلاً واسع العَطن ، واسع المطرد ، ضيق المهرب وعلى الناس التذارق وعلى المقدمة جرجة ، وعلى مجنبتيه باهان (الذي لم يصل إلى المنطقة حتى الآن) والدراقص ، وعلى الحرب الفيقار ، وابشروا فإن باهان في الأثر مدداً لكم . ففعلوا ، فنزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك ، وصار الوادي خندقاً لهم ، وهو لِهب لا يدرك (اللهب فرجة بين جبلين) . وإنما اراد باهان واصحابه ان تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين ، وترجع اليهم افئدتهم عن طيرتها » .

(٢) يقول الطبري ج ٣ ص ٣٩٣ .

« وانتقل المسلمون عن عسكرهم الذي اجتمعوا به ، فنزل عليهم بحذائهم على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم ، فقال عمرو : أيها الناس ، ابشروا ، حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير ، فأقاموا بأزائهم وعلى طريقهم ، لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون اليهم ، اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم ولا يخرجون خرجة إلا اديل المسلمون منهم (أي انتصر المسلمون عليهم) » .

ولا بد من أن يولي القيادة العامة[1] شخصاً جسوراً وحازماً وشجاعاً يتميز بالكفاءة والمقدرة ، ويبز القادة الموجودين في الشام . ولم يجد خيراً من خالد بن الوليد لهذا الأمر ، فقد كان أبو عبيدة على مقدرته رجلاً رقيق القلب ، وكان عمرو بن العاص على دهائه هياباً غير مقدام ، وكان عكرمة تعوزه دقة التقدير ، وكذلك شرحبيل .

أرسل الخليفة أمراً إلى خالد بن الوليد بالمسير من الحيرة إلى الشام بنصف قوته التي سار بها من اليمامة إلى العراق وتولي القيادة العامة لجميع الجيوش الموجودة فيها . وقال الخليفة يومذاك : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

يقول البعض أن الخليفة لم يعين خالداً بل أرسله مدداً وإن خالداً بعد وصوله اتفق مع باقي القادة على تولي القيادة كل واحد منهم يوماً على أن تبدأ به .

إلا أن الدلائل الكثيرة والوقائع الثابتة تؤكد أن الصديق عين خالداً قائداً عاماً وأورد أدناه بعضها :

١ - ولى الخليفة أبا عبيدة عامر بن الجراح القيادة العامة حين سارت الجيوش العربية إلى الشام حيث قال لهم : « أبو عبيدة قائدكم إن اجتمعتم » . وعليه ما دامت الجيوش العربية قد تجمعت في اليرموك فبديهي انها كانت تحت قيادة واحدة هي قيادة ابي عبيدة . وما دام خالد جاء مدداً فلا بد أن ينصاع لقيادة ابي عبيدة . لذلك فرواية اقتراحه ان يتولى القيادة كل يوم واحد منهم غير واردة .

---

(١) « الصديق ابو بكر » ، محمد حسين هيكل .

٢ ـ لقد تصرف خالد منذ وصوله أرض المعركة تصرف من يتولى القيادة العامة والاحداث التالية ستثبت ذلك .

٣ ـ ان المعركة دامت أكثر من يوم واحد « فترة الاستعداد والمعركة » ، وإن المصادر جميعها تؤكد أن خالداً كان القائد العام طوال هذه الفترة وما تولاها غيره .

٤ ـ وصل أمر الخليفة عمر بن الخطاب بعزل خالد وتوليه ابي عبيدة ، والمعركة في أوجها ، والمسافة بين ميدانها والمدينة طويلة جداً ، فكيف علم الخليفة الجديد بأن خالداً نصب نفسه قائداً عاماً ، فأصدر قراره بعزله ، لو لم يكن يعلم ان الخليفة السابق هو الذي عينه لقيادة الجيوش العربية حين أمره بالسير من العراق الى الشام .

٥ ـ تقول بعض المصادر ان الخليفة الصديق أرسل كتابين : الأول لخالد في العراق ، والثاني لأبي عبيدة في الشام يعلمهما بهما بتعيين خالد قائداً عاماً ، وأدناه نص الكتابين .

الكتاب الموجه لخالد

« إذا جاءك كتابي هذا فدع العراق وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في أهل القوة من اصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقي أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليكم » .

الكتاب الموجه الى أبي عبيدة

« أما بعد ، فإني قد وليت خالد بن الوليد قتال الروم في الشام فلا تخالفه واسمع له ، وأطع أمره فإني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ،

ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

تقدم خالد من العراق إلى الشام

تقدم خالد بن الوليد على رأس جيش قوامه ٩٠٠٠ مقاتل وعبر الصحراء قاطعاً مسافة ٥٠٠ ميل من الأرض الجرداء . وقد سلك طريق الحيرة ـ عين التمر ـ دومة الجندل « الجوف حالياً » ـ قراقر ـ بصرى . وبذلك كان قد قرر سلوك وادي سرحان ، إلا أنه عندما وصل قراقر قرر تغيير خط تقدمه وسلوك طريق أطول خوفاً من الاصطدام بالروم قبل وصوله منطقة التحشد العربية واعطاء خسائر لا مبرر لها خاصة وإن قوته قليلة لا يريد اضعافها بمجابهة قوات الروم القوية ، كما أراد مباغتة الروم بسلوك طريق غير مطروق .

إختار خالد طريقاً صحراوياً خالياً من الماء غير مأهول ، وكان دليله رافع بن عميرة الطائي .

سار الجيش في هذا الطريق خمسة أيام يتزود من الماء القليل الذي كان يحمله ، ويسقي خيوله من شق بطون بعض الابل التي سبق أن رويت ماء في قراقر وصروا آذانها وكعموها وخلوا ادبارها ليجعل منها صهاريج لري الخيل[١] وتوزيع لحمها لمعيشة الجيش .

وفي نهاية اليوم الخامس وصل الجيش قرية « سوى » الكائنة الى الشرق من دمشق وسلك منها طريق « حوارين » متجنباً المرور بالشام ، (راجع مخطط رقم ١) ، خوفاً من الاصطدام بجيوش الروم حولها حتى وصل اذرعات ومنها انحدر إلى بصرى[٢] فوجد حامية عربية من جيش شرحبيل تحاصر المدينة فنزل

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٠٩ نفس الطبعة .

(٢) تقول بعض المصادر ان الجيوش العربية وصلت إلى قرب اهدافها قبل هذا التاريخ وإن خالداً وصل الشام وجيش أبي عبيدة يحاصر دمشق فتولى القيادة العامة وشارك في فتحها . ثم تقدمت الجيوش واحتلت حمص وحماه وبعلبك . وجاء عزل خالد وهو يحاصر دمشق .

قربها فوضع خطة لاقتحام المدينة فتم فتحها على يده ، وبعد أن نظم أمورها ترك فيها حامية وتقدم الى معسكر الجيش العربي في اليرموك حيث تولى القيادة العامة .

وقد قطع خالد المسافة من الحيرة إلى بصرى بمدة ثمانية عشر يوماً .

أخذ خالد يستطلع أحوال الروم ومواضعهم في اليرموك ، ودرس نظام معركتهم وخصائص قادتهم ، وأسلوب تعبئتهم ، ونقاط الضعف فيهم مستخدماً كل الوسائل المتيسرة لجمع المعلومات عنهم ، وعلى ضوء هذه الدراسة بنى خطته .

وقبل المضي بسرد أحداث المعركة لا بد من تقديم القائد العام العربي ، فهو غني عن التعريف وأشهر من أن يطاول ، وكان بحق سيد قادات العرب . واعتبره المؤرخون بمصاف الاسكندر الكبير وهانيبال ويوليوس قيصر ونابليون ، ان لم يكن أعظمهم جميعاً . ولم يخسر أية معركة تولى قيادة الجيش فيها ، وقد انفرد بذلك بين قادة العالم العسكريين ، إنه خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . ينتسب الى عشيرة بني مخزوم القرشية ، وكان والده سيداً من ساداتها . أسلم بعد عمرة القضاء التي قام بها النبي « ص » قبل فتح مكة وذلك في العام الثامن للهجرة .

= ولما سمعت القيادة العربية بالتحشد العظيم الذي أعده هرقل في شمالي سوريا وخوفاً من تقدمه للقضاء على الجيوش العربية كل على انفراد ، قرر ابو عبيدة بالاتفاق مع باقي القادة الانسحاب نحو الجنوب والتحشد في منطقة اليرموك لمجابهة الجيش الرومي الكبير . فأخليت حمص وحماه وبعلبك ودمشق وعاد الروم اليها . ثم حدثت معركة اليرموك وانتصر فيها العرب وتقدموا مرة اخرى وطهروا سوريا من بقايا الروم .

إلا أني اعتقد أن الرواية الأولى التي ذكرتها آنفاً هي الأصح لأن التسلسل المنطقي للأحداث يؤكد أن معركة اليرموك سبقت فتح دمشق وباقي المدن ، إذ ليس من المعقول أن يسمح الروم باحتلال كل هذه المدن الخطيرة ولديهم مثل هذا الجيش الكبير بحجة استدراج العرب إلى الداخل وما كان في مقدور العرب فتح هذه المدن الخطيرة إلا بعد تدمير الجيش الرومي في معركة اليرموك الفاصلة وشل إرادة الروم في الدفاع عنها .

شارك في عهد النبي « ص » بغزوة مؤتة وفتح مكة وحنين ودومة الجندل والطائف واليمن ، فأبدى في هذه المعارك كافة بطولة نادرة وعبقرية عسكرية فذة حتى سماه الرسول « بسيف الله المسلول » .

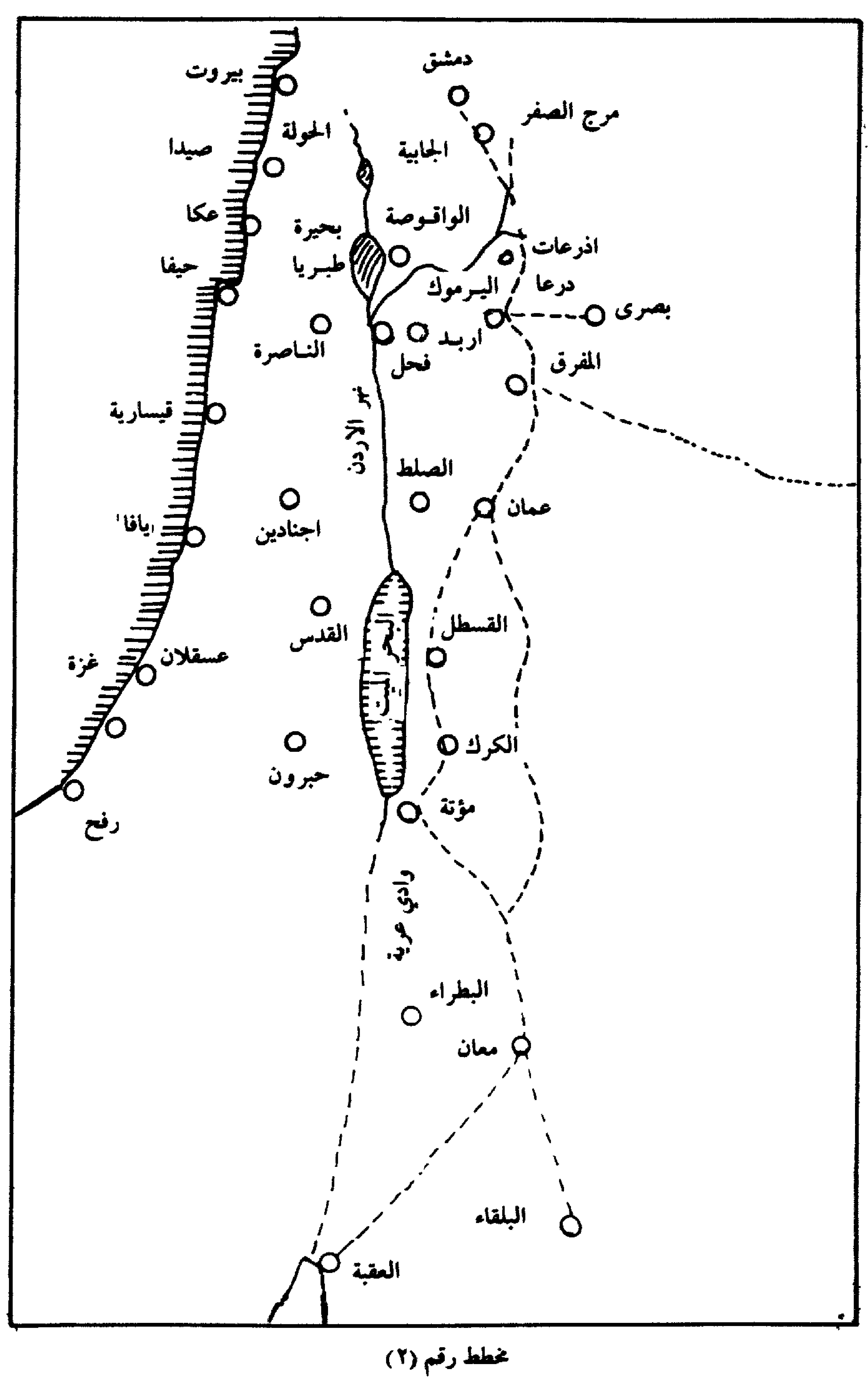
تولى قيادة الجيش في عهد أبي بكر في محاربة المرتدين فانتصر عليهم ، وكانت أعماله الرائعة في هذه الحروب مثار اعجاب الجميع . ثم تولى القيادة العامة في العراق ، وتمكن بهجماته الخاطفة احتلال أرض السواد ، ودحر الفرس في كل مكان ، ولولا أمر الخليفة له بالتوقف في الحيرة لاكتسح أرض العراق كلها ودمر الجيش الفارسي برمته . ثم تولى القيادة العامة في الشام وانتصر على الروم في معركة اليرموك الحاسمة ، تلك المعركة التي أخذت الاجيال في الشرق والغرب تتحدث عنها . وبعد عزله من القيادة العامة في عهد عمر بن الخطاب قاد أحد الجيوش التي وجهها القائد العام الجديد لفتح شمال سورية ، فكان كعادته القائد المنتصر في كل مكان .

كان خالد يتصف بكل صفات القادة العظام ، فهو عبقري في خططه ، عبقري في إدارته ، وفي تنظيمه . وكان شجاعاً ، مقداماً ، حاد الذكاء ، ثابت الجنان ، بعيد النظر ، سريع القرار ، قوي الإرادة ، ذا شخصية قوية نفاذة ، وفراسة في معرفة الرجال والقطاعات ، يملك الحاسة السادسة وهي « سبق النظر » ، يحب جنوده ويحبونه .

معركة اليرموك

وصف ساحة المعركة :

ينبع نهر اليرموك من جبال حوران ، وينحدر سريعاً في أرض متموجة ، حتى يلتقي بنهر الأردن جنوبي بحيرة طبرية بمسافة ٦,٥كم . وقبل التقائه بالأردن بثلاثين ميلاً يسير النهر على هيئة قوس . ويحيط جنوب هذا القوس سهل منبسط صالح لأن يعسكر فيه جيش كبير ، ولهذا السهل منفذ واحد ، قرب



دمشق
بيروت
مرج الصفر
الحولة
الجابية
صيدا
الواقوصة
عكا
بحيرة
طبريا
اذرعات
حيفا
درعا
اليرموك
بصرى
اربد
الناصرة
فحل
المفرق
قيسارية
نهر الاردن
الصلط
عمان
يافا
اجنادين
القسطل
القدس
عسقلان
غزة
الكرك
حبرون
مؤتة
رفح
وادي عربة
البطراء
معان
البلقاء
العقبة

مخطط رقم (٢)

وادي الرقاد ، وهذا السهل محاط بالجبال من ثلاث جهات . وعند مدخل القوس النهري تقع « واقوصة »[1] . ويشكل الرقاد عند التقائه باليرموك مدخل الواقوصة ، حيث تنخفض ضفافه كلما اقترب من نهر اليرموك .

والأرض شمالي وجنوبي النهر بصورة عامة وعرة ، تكثر فيها الصخور والمرتفعات . يخترق المنطقة طريق رئيسي يمتد من دمشق في الشمال ويتفرع عند قرية ناب إلى فرعين : يتجه الشرقي نحو اذرعات ومنها الى بصرى ، والغربي إلى معان . ويتفرع من الغربي طريق يتجه نحو سمخ الواقعة على الساحل الجنوبي لبحيرة طبرية . والمنطقة المحصورة بين نهر اليرموك ووادي الغلان ووادي الرقاد عبارة عن هضبة مستوية تحيط بها هاوية عميقة هي عبارة عن منخفضات الانهر الثلاثة والمخرج الوحيد هو السهل الشمالي في الفتحة الكائنة بين وادي الرقاد والغلان .

موقف الطرفين :

الروم :

أكمل الجيش البيزنطي تحشده شمال اليرموك في شباط ٦٣٦م ، وقرر قائده اتخاذ موقف الدفاع فكانت خطيئة غيرت مجرى المعركة ، إذ كان الموقف السوقي وتقديره قوة الطرفين يمليان عليه اتخاذ موقف الهجوم منذ اللحظة الأولى ، مستفيداً من تفوقه العددي الساحق . إلا أنه فضل الدفاع عن أرض الشام في هذا الموضع منتظراً تقدم العرب اليه وقبول المعركة فيه .

عندما شاهد الروم تقدم العرب وتعسكرهم شمالي شرق موضعهم ، قرروا حفر الخنادق ازاءهم والاستفادة من مناعة الأرض ووديانها والصمود وراءها[2] .

---

(١) تسمى اليوم الياقوصة .

(٢) الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٣ من الطبعة نفسها حيث يقول : « نـزلوا الـواقوصة ، وهي على ضفة اليرموك ، وصار الوادي لهم وهو لهب » . ولهب تعني فرجة بين جبلين .

تنظيم الجيش الرومي :

كان الجيش الرومي مؤلفاً من صنفين رئيسيين المشاة والخيالة ، وكانت الوحدة الرئيسية في تشكيل الجيش هي « اللجيون » ، وهي تعادل الفرقة في الوقت الحاضر . ويتألف الجيش من أربعة لجيونات ، واللجيون يشكل وحدة قتال مكتفية بذاتها ، فيها المشاة والخيالة والخدمات . وينقسم اللجيون إلى عدد من الكراديس ، كل كردوس مؤلف من ألف شخص . وكان كل لجيون يضم من ٥ آلاف الى ١٠ آلاف شخص .

وكان الجيش البيزنطي الذي اشترك في معركة اليرموك يضم ٢٣ لجيوناً .

أما نظام القتال فكان يقسم الجيش إلى ثلاثة أقسام : ميمنة ـ قلب ـ ميسرة . وتقسم اللجيونات والكراديس على كل منها وتعبأ بالعمق .

وكان الجيش البيزنطي مؤلفاً من الروم والأرمن و(الغساسنة بقيادة جبلة بن الايهم) .

العرب :

بعد أن أكمل خالد دراساته واستطلاعاته أخذ يعيد تنظيم جيوشه على الأسس التي اقتبسها من دراساته لتنظيم وتعبئة جيوش عدوه . وقد عمل ما يلي :

١ ـ قسم قواته الى ٣٨ كردوساً ، وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الألف مقاتل يقوده احد ابطال العرب المشهورين ، والمشهود لهم بالجرأة والمقدرة والشجاعة .

٢ ـ الغى نظام الصف الذي كان يتبعه العرب في حروبهم حيث تنقسم ميمنتهم وميسرتهم وقلبهم الى عدة صفوف . صف وراء آخر ، واستعاض عنها بنظام الكراديس التي أصبحت وحدة القتال . وهذا لا يمنع من تعبئة

الكراديس بالعمق ، أي وضع كردوس وراء آخر .

٣ ـ قسم الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب .

كانت الميمنة تضم ١٠ كراديس عهد بقيادتها إلى عمرو بن العاص ، ويعاونه شرحبيل بن حسنة .

أما امراء الكراديس فكانوا :

١ ـ معاذ بن جبل وكان فارساً كبير الشأن .
٢ ـ عمارة بن مخشي .
٣ ـ عبد الله بن قيس .
٤ ـ عمرو بن عبسة .
٥ ـ السمط بن الأسود .
٦ ـ ذو الكلاع الحميري .
٧ ـ معاوية بن حديج .
٨ ـ جندب بن عمرو .
٩ ـ عمرو بن فلان العذري .
١٠ ـ لقيط بن عبد القيس .

وكانت الميسرة تضم عشرة كراديس عهد بقيادتها إلى يزيد بن أبي سفيان يعاونه قبات بن اشيم وكان في الوقت نفسه قائداً للطلائع . وكان امراء كراديس الميسرة هم : ـ

١ ـ قبات بن اشيم .
٢ ـ الزبير بن العوام .
٣ ـ حوشب ذو ظليم .
٤ ـ قيس بن عمرو بن زيد .
٥ ـ عصمة بن عبد الله .

٦ ـ مسروق العكي .
٧ ـ عتبة بن ربيعة .
٨ ـ جارية بن زنيم .
٩ ـ
١٠ ـ } لم تعرف اسماء قادة هذين الكردوسين .

وكان القلب يضم (١٨) كردوساً عهد بقيادته الى أبي عبيدة يعاونه سعيد بن زيد وهاشم بن عتبة ، أما امراء الكراديس فكانوا : ـ

١ ـ هاشم بن عتبة .
٢ ـ عكرمة بن أبي جهل .
٣ ـ القعقاع بن عمر التيميمي .
٤ ـ عياض بن غنم .
٥ ـ ضرار بن الازور .
٦ ـ مذعور بن عدي العجلي .
٧ ـ زياد بن حنظلة .
٨ ـ سهيل بن عمر القرشي .
٩ ـ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان عمره ثمانية عشر عاماً .
١٠ ـ خالد بن سعيد .
١١ ـ حبيب بن مسلمة الفهري .
١٢ ـ سعيد بن خالد .
١٣ ـ صفوان بن امية .
١٤ ـ ابو الاعور عمرو بن سفيان السلمى .
١٥ ـ بن ذي الخمار .
١٦ ـ امرىء القيس بن عدي الكلبي .
١٧ . يزيد بن يحنس الكوفي .

١٨ ـ دحية بن خليفة الكلبي .

ولقد ذكر الطبري أن ضرار بن الازور كان في الميسرة إلا أنه عاد وذكر أن ضرار بايع عكرمة على الموت وقاتل معه جنباً إلى جنب وعكرمة كان في جناح القلب الايمن ، وهذا يؤكد أن ضرار كان في القلب قريباً من الكردوس الذي كان يقوده عكرمة .

٤ ـ احتفظ بقوة احتياطية تقدر بـ (٣٠٠٠) فارس وراجل وضعها في الخلف قرب المعسكر .

٥ ـ شكل طلائع الجيش من الخيالة وعهد بقيادتها الى قباث بن اشيم .

٦ ـ وعين : ـ
أبا الدرداء قاضياً للجيش .
ابا سفيان قاصاً وخطيباًوداعية . وكان يمر على الكراديس يشجعها ويحثها على الاستبسال والثبات .

عبد الله بن مسعود مأموراً للاقباض (مدير الميرة والتموين) .
المقداد بن الأسود كلفه بقراءة صورة الانفال وهي التي تحث على الجهاد في سبيل الله وكانت تقرأ دائماً قبل كل معركة يخوضها المسلمون

٧ ـ كلف النساء بالواجبات التالية : ـ
(أ) الواجبات الادارية كالتموين واخلاء الخسائر والعناية بالجرحى .
(ب) صد الهاربين والمتراجعين من الجبهة وإعادتهم إلى ساحة القتال .
(جـ) القتال عند الضرورة . وفعلاً قاتلت خولة بنت الازور وجويرية بنت أبي سفيان التي اصيبت في الميدان .

ولقد بلغ عدد جيش المسلمين في معركة اليرموك بعد وصول قوة خالد من العراق (٤٦) الف مقاتل .

تعبئة الطرفين في المعركة :

الروم :

قسم الروم المشاة والخيالة على الميمنة والميسرة والقلب ، ووضعوا حجاباً من الخيالة أمام الموضع .

قسم البطريق باهان القائد العام للجيش[1] ، جيوشه الأربعة إلى ثلاثة أقسام على القلب والميسرة والميمنة . فقاد جرجيوس مجموعة القلب . وقاد الدراقص مجموعة الميمنة . وقاد الفيقار بن نسطوس مجموعة الميسرة .

وضعت ميسرة الجيش قرب فتحة الواقوصة . وقد حفرت الخنادق أمام الموضع ، وفي يوم المعركة ربط جنود المشاة الذين عهد لهم التخندق في خنادقهم وعدم مبارحتها بالسلاسل[2] لمنع مرور العرب من بينهم ومنع الجنود الرومان من الفرار .

كانت معنوية الروم منحطة ، لذلك بقي القسس والرهبان بينهم يشجعونهم على القتال ويثيرون فيهم روح الحمية الدينية .

العرب :

قرر خالد أخذ المبادأة والقيام بالهجوم على العدو ، لذلك أوعز إلى الجيش باتخاذ موضع مجابهة للعدو بالشكل التالي :

---

(١) تقول بعض المصادر ان تذراق تولى القيادة العامة حين اجتمعت جيوش الروم في اليرموك ، وقد يكون باهان معاوناً له . وتجمع المصادر كافة على أن القائدين كانا في المعركة احدهما قائداً والآخر معاوناً له .

(٢) يقول الطبري في ص ٣٩٤ ج ٣ أن عدد الجيش الرومي في اليرموك كان ٢٤٠ الف مقاتل ، منهم أربعون ألف مسلسل للموت ، وأربعون ألف مربوط بالعمائم ، وثمانون الف فارس ، وثمانون ٠اجل .

١ ـ وضع الطلائع في الإمام مشكلاً منها حجاباً لقطعاته . (وكانت مؤلفة من الخيالة)

٢ ـ الميمنة : مقابل ميسرة الروم .

٣ ـ القلب : يسار الميمنة ومقابل قلب الروم .

٤ ـ الميسرة : مقابل ميمنة الروم .

٥ ـ المعسكر : خلف التلول الخلفية وراء القلب .

٦ ـ الاحتياط يسار المعسكر .

٧ ـ مقر القائد العام خلف القلب .

خطة الهجوم :

قرر خالد بأنه لا يمكنه التغلب على الروم ، ما لم يخرجهم من خنادقهم ويستدرجهم إلى الأرض المكشوفة ليقاتلهم فيها ، لذلك وضع الخطة التالية :

١ ـ تقوم الميمنة والميسرة بتثبيت جناحي الروم ومنعهما من الالتفاف حول أجنحة العرب .

٢ ـ يقوم القلب بالهجوم من الجبهة ثم يتظاهر بالانسحاب (استطراداً)[1] ليغري الروم على الخروج من الخنادق ويجرهم إلى الأرض المنتخبة للقضاء عليهم .

٣ ـ عين فجر يوم ٢٠ آب ، **اغسطس** ، ٦٣٦م موعداً للهجوم .

المعركة

مع فجر يوم ٢٠ آب ، اغسطس ، ٦٣٦م بدأ الجيش العربي بتنفيذ خطته ، فتقدمت الميمنة بقيادة عمرو بن العاص ، وسدت المنفذ الوحيد الذي

(١) الاستطراد : ـ وهو الانسحاب والتظاهر بالهزيمة امام العدو لاغراء العدو بالخروج من مواضعه ومطاردة الجيش المنسحب وعندما يتم ذلك يكر عليه الجيش المنسحب فيحطمه .

يمكن الروم من الإنسحاب والخروج من الهضبة ، وبذلك أحكم حصار الروم

طلب خالد من آمري الكردوسين الايمن والايسر للقلب أن يقوما بالهجوم, حتى يصلا خنادق الروم ليجبراهم على الخروج منها ، ثم يتظاهرا بالانسحاب لاغراء اكبر عدد منهم الخروج من الخنادق واستدراجهم إلى المحل الملائم للقضاء عليهم . وكان الكردوس الأول بقيادة عكرمة بن أبي جهل ، والثاني بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي .

نفذ القائدان الخطة بنجاح ، وعند تراجعهما أصدر القائد الرومي أمره إلى الجيش بالخروج من الخنادق والزحف على الجيش العربي المتقهقر وتدميره .

وكانت خطته تقضي بالهجوم على الجبهة كلها مع تركيز الضغط على ميمنة العرب لتدميرها وطردها من منفذ الهضبة الذي سبق ان اغلقته ، وسحق القلب ، ثم القيام باحاطة واسعة على جناح العرب الايمن والوصول الى خلف القوات العربية لمحاصرتها وتدميرها تدميراً تاماً مستفيداً من تفوقه الساحق بالفرسان والمشاة .

ترك الجيش الرومي خنادقه وبدأ هجومه وكانت تتقدم الهجوم الخيالة .

كانت خيالة المسلمين امام المشاة في الصف الامامي . وكان خالد يراقب تقدم الروم ولما شاهد كثرتهم قرر فوراً سحب فرسانه من الأمام وقسمهم إلى قسمين ووضع القسم الأول منهم خلف ميمنة المسلمين وتولىٰ قيادته بنفسه ، ووضع القسم الثاني خلف ميسرة المسلمين وعهد بقيادته إلى (قيس بن هبيرة) وهو من فرسان العرب المشهورين . ولقد قرر استخدام الخيالة في المراحل الأخيرة من المعركة عندما يمتص المشاة زخم الهجوم الرومي ويختل النظام في صفوفهم ويصيبهم الاعياء فيهاجمهم من الجناحين في وقت واحد لتطويقهم وصفوفهم قد اصابها الاضطراب والخلل .

كان يقود تقدم الروم القائد (جرجه) جرجيوس الذي يقال انه كان من

اصل عربي يميل إلى المسلمين ويرغب في مصالحتهم والالتحاق بهم . ولقد طلب مبارزة خالد ، فجرى بينهم حوار اثناء المبارزة وافق فيه جرجة على اعتناق الإسلام فمال وبعض من كان معه إلى جانب العرب وحارب معهم .

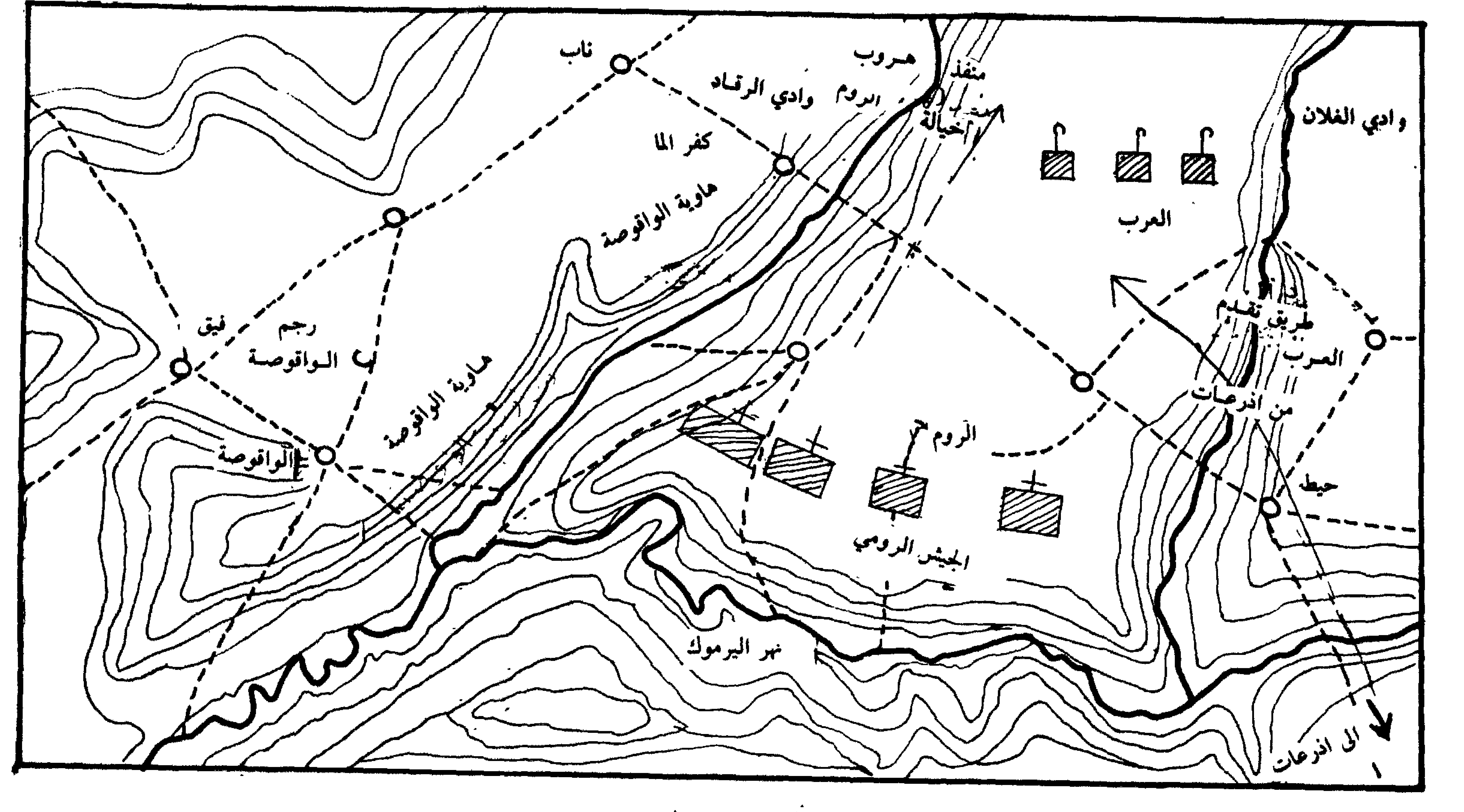
كان خالد قد وضع ابو عبيدة خلف القلب لادارة المعركة وسلم قيادة القلب إلى سعيد بن زيد .

هاجم الروم ميمنة العرب وميسرتهم في وقت واحد واشتد الضغط على الميمنة·وبعدقتال شديد انسحب تحت ضغطهم قسم غير قليل من رجال قبائل حمير وحضرموت وخولان وزبيد وكانت زبيد في أقصى الميمنة واخترقوا صفوفها حتى وصلوا قرب المعسكر العربي وكانت النساء العربيات تتصدى لهم وللمنسحبين تقاتل الروم وتحث المنسحبين على العودة والثبات والقتال مهما كان الثمن . وكانوا ينادون (يا بنات العرب دونكن الرجال اردنهم من الهزيمة ليعودوا إلى الحرب) وحملوا الأطفال بوجوههم فأرتد الرجال إلى القتال وجددوا العزم . وكان ابو سفيان يحرضهم على القتال قائلاً : ـ (الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام . وإنهم ذادة الروم وانصرار الشرك ، اللهم هذا يوم من ايامك ، اللهم انزل نصرك على عبادك) .

ولقد اصيب ابو سفيان بسهم في عينه فأخرجه منها (أبو حثمة) . ولقد استمر ضغط الروم على ميمنة العرب حتى دفعوها على القلب الذي كان صامداً امام هجماتهم العنيفة .

أما في الميسرة فقد نجح الروم في اختراق صفوفها حيث انسحب قسم من قبائل لخم وجذام وهم من عرب سورية انضموا اخيراً إلى جيوش المسلمين ، إلا أن الباقين ثبتوا ولم يتزحزحوا .

ولما رأى عكرمة ما حل بالميمنة والخطر الذي بات يهدد القلب صاح (من يبايع على الموت) فبايعه ضرار بن الازور والحارث بن هشام مع اربعمائة من وجوه المسلمين وابطالهم ومن بينهم ابنه عمرو بن عكرمة . واندفعوا جميعاً لنجدة



مخطط رقم (٣) معركة اليرموك

الميمنة فاستبسلوا في القتال حتى اوقفوا الهجوم الرومي ،بمساعدة من رجع من الرجال الذين سبق ان انسحبوا إلى الخلف اجبروا الروم على الانسحاب وعادت الميمنة إلى مواضعها التي انسحبت منها وبذلك سد المنفذ مرة ثانية[1] .

الهجوم المقابل العربي :

لقد كان خالد يراقب المعركة بأعصاب قوية ولم يغير خطته لما تراجعت بعض قطعات الميمنة والميسرة ووصول طلائع فرسان الروم إلى قرب معسكر العرب . وبعد الظهر وصل التعب والعطش والاعياء بجيش الروم إلى منتهاه إضافة إلى ما لاقاه من العاصفة الرملية التي ابتدأت منذ الصباح واستمرت حتى المساء والتي لم يسبق لهم التعود عليها وكانت تضرب في وجوههم فأعمتهم ، بينما كانت تضرب ظهور العرب ، في هذه اللحظة بدأ خالد هجومه المقابل فخرجت خيالة العرب من كلا الجناحين وقام بحركة ضغط على الروم ليفصل مشاتهم عن فرسانهم ، ثم طوق الفرسان الذين اخترقوا ميمنة المسلمين ومنعهم من التقدم شمالاً فاندفعوا نحو الجنوب أمام ذلك الضغط العنيف حيث نهر اليرموك شرقاً وجنوباً ووادي الرقاد غرباً باتجاه فتحة الواقوصة الوعرة .

ولقد واصلت قوات العرب الأخرىٰ في القلب والميمنة والميسرة الضغط على مشاة الروم دافعة إياها جنوباً نحو (الفتحة) ملتقى اليرموك بالرقاد . ولقد حاولت خيالة الروم اختراق الحصار للأفلات من منفذ الهضبة فأوعز خالد إلى قواته افساح الطريق امامهم ، فخرج ما تبقى منها هارباً تاركين مشاتهم يلاقون المصير وحدهم . فكانت معركة رهيبة تكبد فيها الروم خسائر فادحة . ولقد تقدم العرب إلى خنادق الروم وقضوا على من كان فيها من الجنود المقيدين

---

(١) يقال انه اثناء المعركة وصل البريد وقرأ فيه خالد وأبو عبيدة خبر وفاة الصديق ، واستخلاف عمر ، وعزل خالد وتعين ابو عبيدة قائداً عاماً . فاتفقا على كتمان الخبر حتى انتهاء المعركة ، واستمر خالد في القيادة دون أن يؤثر عليه خبر عزله .

بالسلاسل . ولقد تراجع قسم كبير منهم إلى الخلف باتجاه وادي الرقاد وكان الظلام قد خيم واصبح الليل حالك السواد فسقطوا في هاوية الواقوصة[1] التي اعماهم الغبار والظلام عن رؤيتها . ويقال أن من هلك في هذه الهاوية العميقة من جراء السقوط من مرتفع عال على الصخور التي كانت تملؤوها حوالي (١٢٠) الف مقاتل .

ولقد قتل في المعركة الأمير (تذارق) وجمع كبير من قادة الروم ، ودخل خالد معسكر الروم واستقر في خيمة قائد الجيش الرومي ، وغنم العرب كل ما في المعسكر .

وقد كانت معركة ابادة مثالية حيث لم ينج من جيش الروم سوى (٤٠) ألف مقاتل ، تمكن باهان من الانسحاب بهم باتجاه الشمال مستفيداً من ظلام الليل دون أن يشعر به العرب .

ولقد استشهد من العرب ثلاثة آلاف مقاتل بينهم القائد الشجاع عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو . كما استشهد القائد الرومي جرجة الذي سبق أن اعلن اسلامه وقاتل مع العرب ضد الروم .

المطاردة :

بعد انتهاء المعركة تسلم ابو عبيدة قيادة القوات العربية[2] من خالد واتفق

---

(١) لقد سميت تلك الهاوية الممتدة لمسافة بضعة اميال على وادي الرقاد من نقطة التقائه بنهر اليرموك بالواقوصة لأن الروم وقصوا فيها (أي انكسرت اعناقهم لما وقعوا فيها) وما زالت تلك القرية التي تقع قرب الهاوية تسمىٰ لحد يومنا هذا بالياقوصة أو الواقوصة .

(٢) تعزىٰ أسباب عزل خالد من القيادة العامة إلى امور كان قد اخذها عليه عمر بن الخطاب اثناء حروب الردة وحروبه في العراق ، واعتبرها مخالفات خطيرة ، وكان بعد كل مخالفة ينصح أبا بكر بعزل خالد ، إلا أن أبا بكر يرفض ذلك ويقول : (ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين) . وكانت مخالفات خالد في رأي عمر تنحصر في : ـ

١ ـ قتله مالك بن نويّرة في حروب الردة بعد ان عاد إلى الإسلام ثم زواجه من امرأته . فاضطر الخليفة الى اصدار الأمر اليه بطلاقها .

الاثنان على إعطاء استراحة للقوات ليلة ٢٠ ـ ٢١ آب اغسطس ، ٦٣٦م ، على أن تشرع الجيوش بالمطاردة صباح يوم ٢١ آب .

ألف أبو عبيدة قوة بقيادة « بشير بن كعب الحميري » وكلفه البقاء في منطقة اليرموك ليحمي قاعدة العرب فيها وخط مواصلاتهم من الحجاز إلى الشام . كما كلفه بواجب التفتيش على الروم المختفين في الشعاب والوديان المحيطة بمعسكرهم ، واستأنف باقي الجيش التقدم نحو دمشق .

تجمعت فلول الروم المنهزمة في دمشق و« فحل » الكائنة جنوب اليرموك على الاردن . وقد ترك باهان الذي انسحب إلى دمشق مؤخرة قوية في مرج الصفر اصطدم بها العرب فكانت معركة أخرى ضارية خسرها الروم هاربين إلى دمشق . وفي مرج الصفر علم أبو عبيدة بتجمعات الروم في فحل فجمع قادته ودرس معهم الموقف شارحاً خطورة بقاء هذه التجمعات وراءه تهدد خط مواصلاته ورجعته ، فاقترح بعضهم ترك دمشق والعودة لتنظيف الأردن ، بينما اقترح البعض الآخر مواصلة التقدم نحو دمشق وفرز قوة تعود إلى فحل لمشاغلة القوة المتجمعة فيها لحين انتهاء فتح دمشق . تبنى أبو عبيدة الرأي الثاني وسار نحو دمشق بعد أن وجه قوة بقيادة « أبو الأعور السلمي » لمراقبة فحل .

---

٢ ـ قتله رجلين من المسلمين اثناء غارته على المصيخ وهما عبد القزي بن أبي رهم ولبيد بن جرير .

٣ ـ بعد موقعة الفراض في شمال العراق انفلت خالد سراً إلى مكة دون اخبار الخليفة حيث ادى فريضة الحج ثم عاد سراً كما جاء .

٤ ـ كان عمر يرى ان خالد لم يكن لديه الاحتراز الكافي في حقن الدماء ، وانه تورط في دماء لم تكن لتحل حتى قال يوماً لأبي بكر (ان في سيف خالد رهقاً وحق عليه ان يقيده) .

٥ ـ كان خالد يتصرف في القيادة والتحرك دون الرجوع إلى الخليفة . فقد خرج من العراق إلى دومة الجندل لنجدة عياض بن غنم دون امر أو اعلام الخليفة بذلك . ثم أنه لما انتهى من ردة بني اسد اتجه إلى بني تميم لتأديبهم دون علم الخليفة .

وكان عمر لا يرتاح لمثل هذه الاساليب وهو في خلافته كان يحب المركزية ، ويحاسب الولاة والقادة حساباً عسيراً على كل خطأ يرتكبونه .

لذلك كان اول عمل قام به عمر بعد توليه الخلافة عزل خالد .

كانت دمشق مدينة محصنة يحيط بها سور منيع فيه عدة أبواب محكمة ، يحيط السور من الخارج خندق عرضه ثلاثة أمتار تأتيه المياه من نهر بردى .

تحرك الجيش العربي من مرج الصفر ، وكان في مقدمته جيش عمرو بن العاص وتعداده ٩ آلاف فارس ، وفي مؤخرته جيش خالد بن الوليد .

أحاط الجيش العربي بدمشق وشدد الحصار عليها ، واتخذ كل جيش من الجيوش العربية موضعاً أمام أحد ابواب المدينة .

فكان مقر القائد العام أبي عبيدة أمام « باب الجابية » ، وجيش عمرو أمام باب « توماء » ، وجيش شرحبيل أمام باب « الفراديس » ، وجيش يزيد بن أبي سفيان أمام باب « كيسان » وجيش خالد امام الباب الشرقي .

استمرت مجانيق العرب تضرب أسوار المدينة لمدة شهرين والمدينة صامدة تنتظر نجدات هرقل الذي كان قابعاً في حمص لفك الحصار عنها .

انتهز خالد فرصة انشغال قادة المدينة بوليمة أعدها لهم البطريق ، فتستر بظلام الليل وبغفلة من حراس الأسوار عبر الخندق مع كتيبة صغيرة على « قرب » أعدوها لهذه الغاية وتسلق الأسوار على سلالم خشبية ونزل قرب الباب الشرقي ففتحه ودخل باقي جيشه . فخلعت قلوب المدافعين وفتحوا باقي أبواب المدينة عارضين الاستسلام والصلح .

وصلت الأخبار الى أبي عبيدة بأن جيش الروم في فحل أخذ يتزايد حيث تجمع فيها حوالي ٨٠ ألف مقاتل ، لذلك قرر العودة إليها بكافة قواته ، فسار اليها تاركاً حامية قوية في دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان ووصل « فحل » وقضى على قوات الروم فيها قضاء مبرماً . وبعد هذا النصر أعاد أبو عبيدة تنظيم جيوشه فشكل منها جيشين عهد لهما الواجبات التالية :

الجيش الأول : بقيادته ومعه خالد بن الوليد ، واجبه الزحف نحو

الشمال لاخضاع سورية الشمالية بكاملها .

الجيش الثاني : بقيادة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة ، واجبه التقدم نحو فلسطين وتطهيرها من بقايا الروم والاستيلاء على بيت المقدس .

تحرك الجيشان في وقت واحد ، فتمكن الجيش الشمالي من احتلال حمص وحماه واللاذقية وقنسرين وحلب وانطاكية . ولقد اضطر هرقل ازاء هذا الفتح المبين إلى ترك سورية إلى القسطنطينية .

أما الجيش الجنوبي فتمكن من احتلال بيسان وطبرية ، ثم اشتبك مع الروم بمعركة ضارية قرب « اجنادين » انتصر فيها عمرو وسار نحو مدن الساحل فحرر يافا وعسقلان وعكا . ثم اتجه نحو القدس وحاصرها لمدة أربعة أشهر . ولما ضاق بأهلها الحصار ويئسوا من أية نجدة قرروا تسليمها . فاتصل بطريقها « صفرينوس » بالقائد العربي واشترط عليه تسليم المدينة إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي وصل إلى « الجابية » على رأس قوة من الجيش تساعد إبن العاص في الفتح ، وليدرس الموقف العام مع قواده في الشام .

وهكذا دخل الخليفة القدس ظافراً بعد أن أعطى الضمانات الكافية للمسيحيين فآمنهم على أنفسهم وكنائسهم وأموالهم من الخوف . وبتحرير القدس دانت سورية بأجمعها وانضوت في الدولة العربية الموحدة وتخلصت من الاستعمار البيزنطي .

أما « الاطربون » ، القائد العام للجيش الرومي في فلسطين ، فقد ترك القدس قبل استسلامها مع جيشه وسار إلى مصر . وقد يكون خروجه بعد استسلامها وكان ذلك شرطاً من شروط الصلح وتسليم المدينة .

تجلت في هذه المعركة أهمية توحيد القيادة وتأثيرها البالغ في الفوز . كما تجلى بها تأثير شخصية القائد وبراعته وثباته ، ورباطة جأشه عند تأزم الموقف ، وحسن توجيهه .

فقد أظهر خالد عبقرية فذة في إدارة المعركة وتوقيت صفحاتها . وكان ثابت الجنان ، حتى في أحلك الساعات عندما أصبح النصر معلقاً في كف القدر .

كما أنه علمنا درساً بليغاً في انكار الذات عندما تسلم رسالة الخليفة الجديد بعزله من القيادة ، والمعركة في أوجها ، فظل ثابت الجنان وأخفى الأمر ، ومضى يدير المعركة بنفس عالية حتى انتهت بالنصر المبين .

ورأينا كيف كان تأثير المعنويات العالية التي امتاز بها الجيش العربي ، فإيمانهم بالعقيدة التي يقاتلون من أجلها دفعهم إلى التغلب على جيش يعادل ثمانية اضعاف جيشهم .

فبفضل الايمان الذي غرسه فيهم الإسلام ، وبفضل القيادة الجيدة تغلبوا على أعظم أمة عسكرية كانت في ذلك الوقت .

طبق الطرفان في هذه المعركة بعض مبادىء الحرب المعروفة في الوقت الحاضر .

طبق الروم والعرب مبدأي توخي الهدف والتحشد بصورة جيدة فكان كلاهما يتوخى القضاء على جيش خصمه ، وهو الهدف الاصلي الذي يتوخاه كل مقاتل .

وكلاهما حشد قطعاته كلها في المحل والزمان المناسبين للقضاء على الخصم ، كما طبق العرب مبدأ المباغتة والتعرض بنجاح تام .

أما اسباب نصر العرب على قلتهم فيعزى إلى : -

١ - تفوقهم في القيادة .
٢ - تفوقهم بالمعنويات .
٣ - الموضع المخطىء الذي اختاره القائد الرومي للدفاع فحصر جيشه فيه .

٤ ـ صمود العرب أمام هجمات الروم الأولى .

٥ ـ خطة الفصل بين خيالة الروم ومشاتهم التي تمت بنجاح .

٦ ـ الروح التعرضية التي امتازوا بها على عدوهم الذي فقد المبادأة .

٧ ـ سرعة الحركة باستخدامهم الجيد لكتائب الخيالة التي كانوا يستخدمونها بمهارة فائقة . وكانت خيالتهم تمتاز بالتسليح الخفيف مما جعلها سريعة الحركة عكس خيالة الروم التي كانت ثقيلة من جراء التدريع الذي كان يغطي الفارس وفرسه .

٨ ـ قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لحياتهم الصعبة في الصحراء والتي تعودوا عليها .

٩ ـ كان الجيش العربي مؤلفاً من امة واحدة تجمعهم عقيدة واحدة بينما كان الجيش الرومي مؤلفاً من خليط من الروم والأرمن وبعض قبائل عرب الشام الذين كانوا لا يزالون يوالون الروم ، ففقد التجانس ووحدة الهدف وروح التضحية . وكانت هذه الأقوام مختلفة فيما بينها ومتناحرة ويضمر كل منهم الشر للآخر . ولقد مال بعض عرب الشام إلى الجيش العربي وانضموا اليه تضامناً مع بني قومهم وابناء عمومتهم .

معركة ذي قار

[لا تعتبر معركة ذي قار معركة حاسمة ، ولقد ترددت كثيراً في اضافتها إلى هذا الكتاب الذي يعالج المعارك الحاسمة في التاريخ العربي فقط ، ولكن كونها سبقت معركة القادسية بفترة وجيزة ، وأول نصر يحرزه العرب على الفرس الغاصبين ، ووصفها بأنها جرأت العرب على محاربة الفرس ، وقول النبي الكريم محمد (ص) عنها (هذا اول يوم انتصف به العرب من العجم وبيٍّ انتصروا) جعلني احسم التردد بأضافتها بين دفتي الكتاب ووضعها قبل معركة القادسية] .

تمهيد

هاجم كورش ملك فارس العراق من الشمال في سنة ٥٣٩ قبل الميلاد وتقدم نحو الجنوب لفتح مدينة بابل وتدمير المملكة الكلدانية . ولقد حشد الملك البابلي (نبونيد) جيشه بحوار مدينة (اوبيس) شمال بابل وعهد بقيادته الى ابنه (بعل شراصر) فنشبت معركة شرسة بين الجيشين انتصر فيها كورش ودخل مدينة بابل في تموز ٥٣٩ق.م. ومنذ ذلك اليوم خضع الجزء الاكبر من العراق لسلطة الفرس حتى تم تحريره منهم بعد النصر العظيم الذي احرزه الجيش

العربي الاسلامي في معركة القادسية في أيار سنة ٦٣٧م .

بدأت قبائل تنوخ (وهي من اصل يماني) تفد الى العراق في أوائل القرن الثالث للميلاد ، حيث سكنت في المنطقة الخصيبة الواقعة غرب نهر الفرات جوار القبائل العربية التي كانت تسكن العراق سابقاً . ولقد وافق ذلك تبدل الأسرة الحاكمة الفارسية حيث استولت الاسرة الساسانية على عرش فارس . ولقد قررت هذه الاسرة اخضاع القبائل العربية إلى سلطتها أو اجلائها بالقوة عن العراق ، إلا أنها اخفقت في السيطرة عليهم أو اجلائهم .

وكانت اقوىٰ القبائل من تنوخ هي (لخم) التي سكنت على ضفاف الفرات في مساكن تتألف من الخيام ، ثم تطورت الخيام الى منازل وقصور وانشأت المدينة الجديدة التي سميت بالحيرة وهي كلمة مشتقة من الكلمة السريانية (حرتا) اي المخيم . وتقع الحيرة جنوب مدينة الكوفة وقد اصبحت عاصمة للدولة اللخمية التي اسسها عمر بن عدي بن نصر بن ربيعة بن لخم سنة (٢٤٠م) . ولقد عرفت هذه الدولة في التاريخ بأسم دولة المناذرة نسبة الى ملوكها الذين كان اسم معظمهم المنذر . وكان للفرس سيطرة ونفوذ على هذه الدولة الفتية يقوىٰ ويضعف حسب التطورات السياسية في بلاد فارس وحسب شخصية الملوك المناذرة الذين تعاقبوا في حكم الحيرة .

كان من اشهر ملوك الحيرة النعمان الأول الملقب بالأعور وهو الذي بنى قصر الخورنق ، وشكل كتيبتي الخيالة الشهباء والدوسر (الدوسر تعريب للكلمة الفارسية (دوشير) ومعناها بالفارسي (الاسدين) . وشعار الفرس يرمز له بأسدين متقابلين) . وكانت الشهباء تضم الفرسان العرب بينما كانت الدوسر تضم الفرسان الفرس .

ولقد ازدهرت الحيرة في عهد المنذر الأول بن النعمان الأول . ومن ملوكها البارزين ايضاً المنذر الثالث (٥٠٥ ـ ٥٥٤م) المعروف بابن (ماء السماء) وهو لقب امه (مارية) .

وكان معظم ملوك الحيرة يعملون جاهـدين للتخلص من النفوذ الفـارسي ويتحينون الفرص لذلك ، وكان اشدهم كرهاً واحتقـاراً للفرس النعمـان الثالث الملقب بأبي قابوس (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) ولقد بلغت المملكة في عهده منتهىٰ الـرخاء والرقي والثروة . ولقد ألف النعمان اربع كتائب هي : ـ

الرهائن .
الضائع .
الأشاهب .
الوضائع .

وامتـد ملكه حتى بلغ نهر دجلة شـرقاً حيث بنىٰ مـدينة النعمـان واتخذهـا مصيفاً له . وقد كان يسعىٰ دائماً إلى وحدة القبائل العربية ويحثهم عـلى التخلص من السيطرة الفارسيـة واقامـة دولة عـربية قـوية تكـون نداً للفـرس . ولقد قتله كسرىٰ ابرويز غيلة . وبقتله اندثرت دولة المناذرة .

سبب المعركة :

عنـدما تـولىٰ النعمـان الثـالث عـرش الحيـرة قـرر ان يتخلص من النفـوذ والسيطرة الفارسيـة على دولتـه ، لذلـك اقنع رؤسـاء القبائـل العربيـة بالـوحدة والعمـل تحت رايته لتحقيق هـذا الهدف . ولقـد اغضب ذلك الفـرس فأخـذوا يدسون عليـه بين القبـائل ويثيـرون الفتن ليبقىٰ وحده وبـذلك يقضـون عليه ، ولقد ساعدهم في ذلك اخوة النعمان الذين اغضبهم تولي النعمـان العرش وهـو اصغرهم ، فعملوا بدورهم على تغذية الخلافات بينه وبين القبائل العربية .

وفي المراحل الاخيرة من حكم النعمان تفـرقت عنه معـظم القبائـل بفعل دسائس الفرس واخوته واعدائه الآخرين . وفي هذه الفترة ارسل كسرىٰ ابرويـز بتحريض من وزيره (زيد بن عدي) الذي قتل النعمان اباه عدي بعد أن كـان مقرباً منه ، ارسل كسرىٰ وفداً الى النعمان يطلب منه إرسال بعض فتيات اسرته

ليتزوج هو وولده وبعض افراد اسرته منهنَّ . فرفض النعمان لأن ليس من عـادة العرب أن يزوجوا بناتهم إلى الغرباء وبـالأخص الاعاجم منهم . فـأعتبر كسـرىٰ رفض النعمـان اهانـة له ، واتخـذ من ذلك حجـة للتخلص منه والسيـطرة عـلى الأرض العربية التي كانت خاضعة لحكم المناذرة . فأرسل إلى النعمان يطلب منه القـدوم إلى المدائن ، فعـرف هذا أنـه هالـك إذا ذهب ، خاصـة بعد أن سمـع بحشود الفرس قرب الحيرة والتي لم يكن مستعداً لمجابهتهـا . فراسـل القبائـل العربية طالباً العون منها ، فلم يستجب اغلبها . فسافر سراً مع أهله إلى ذي قار ونزل عند عشيرة بكر بن وائل الشيبانية ، وكان سيدها يـومذاك هـاني بن مسعود الشيباني ، فأودع عنده اهله وماله وسلاحه ثم توجه بعد ذلك إلى المدائن بعد أن تلقى تقريراً من الرسل الـذين ارسلهم إلى بلاط الفـرس جاء فيـه أن كسرىٰ لا يضمر له شراً . ولما وصل سجنه كسرىٰ ثم قتله .

بعد فترة من سجن النعمان علم كسرىٰ بأنه قد اودع اهله وماله وسلاحـه عند هاني بن مسعـود الشيباني ، فـأرسل اليـه الرسـل يطلب منـه تسليمه ودائـع النعمان ، فأبىٰ هاني تسليم ما اؤتمَنَ عليه ، وكان العرب يعتبرون تسليم الأمانة عـاراً كبيـراً . والعـربي مستعـد أن يضحي بكـل شيء في سبيـل الحفـاظ عـلى الأمانة . فغضب كسرىٰ وقرر ارسال حملة عسكريـة ضد بني شيبـان لأخضاعهم وإجبار زعيمهم على تسليم الودائع .

وللتدليل على رفض العرب تزويج بنـاتهم إلى الأعاجم يـذكر لنـا التاريـخ موقف (ليلى بنت لكيز) تلك الفتاة العـربية التي اختـطفها احـد الأكاسـرة قبل حـادثة النعمـان الثالث والتي أبت أن تسلمـه نفسهـا رغم كـل الإغـراءات التي قدمها لها ورغم كل أنواع التعذيب الذي تعرضت له .

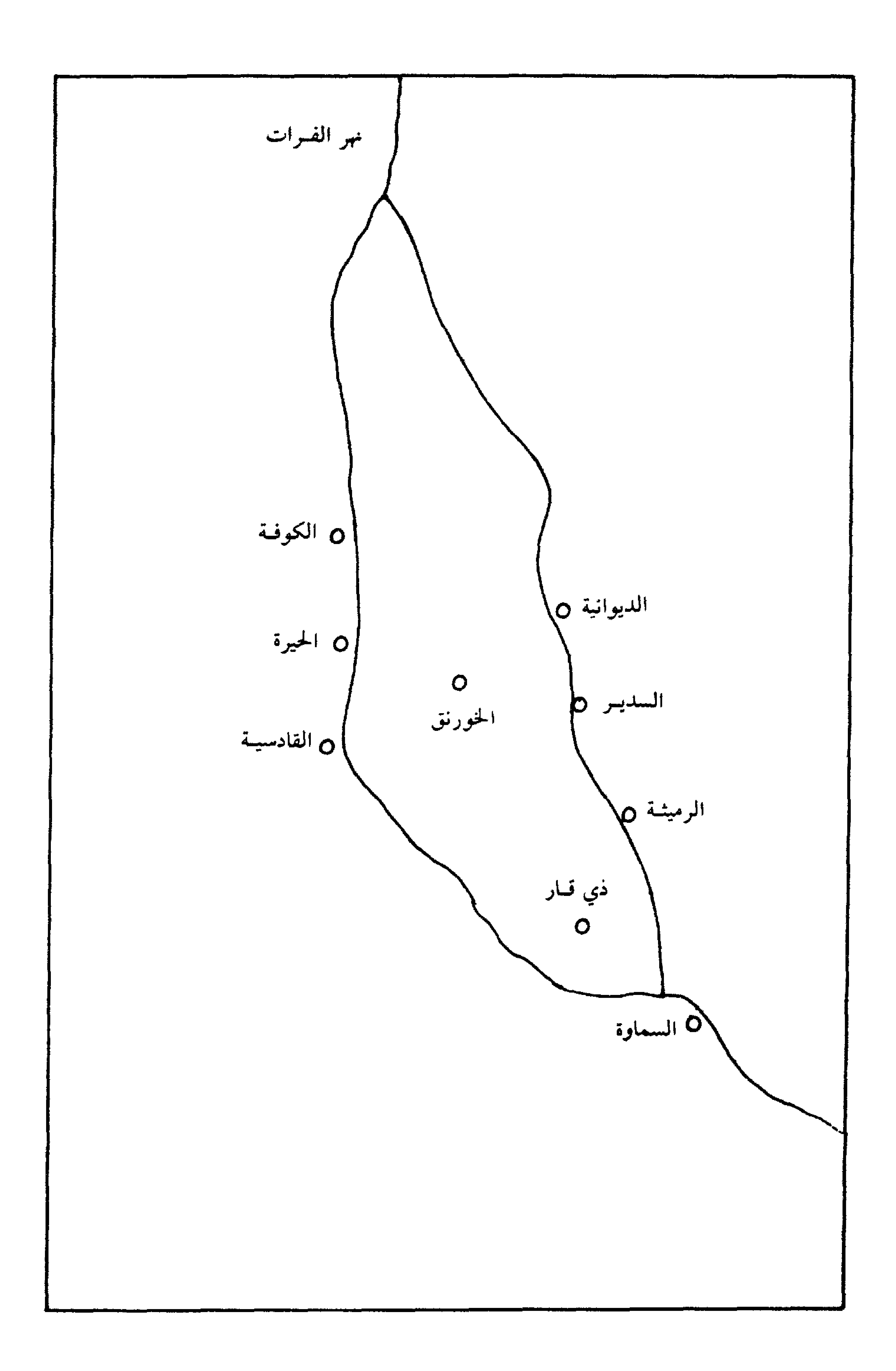
وخيرتـه بين أن يقتلها أو يعيـدها إلى أبيهـا . ولمـا يئس منهـا حبسهـا في مسكن وأجـرىٰ عليها الـرزق ، واكتفىٰ برؤ يـة قوامهـا تحت ملابسهـا في بعض الأحيان ، وكانت ليلى من اجمل نساء زمانها .

ورأيت من المفيد تدوين قصيدتها التي كانت تغنيها في محبسها تخاطب فيها ابن عمها وخطيبها (البراق بن روحان) تحثه وتحث القبائل العربية على انقاذها من الأسر والانتقام لها . ولقد سمعتها القوافل العربية المارة من قرب محبسها واخذت تغني بها حتى سمعها البراق ، فأحتال حتى خلصها من مغتصبيها واعادها إلى ديار ربيعة .

ليت للبراق عيناً فترى ... ما ألاقي من بلاء وعنا .
يا كليباً وعقيلاً اخوتي ... يا جنيداً اسعدوني بالبكا
عذبت اختكم يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحاً ومسا
قيدوني غللوني ضربوا ... ملمس العفة مني بالعصا
يكذب الاعجم ما يقربني ... ومعي بعض حشاشات الحيا
قيدوني غللوني وافعلوا ... كل ما شئتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بغيكم ... ومرير الموت عندي قد حلا
يا بني كهلان يا أهل العلا ... اتدلون عليَّ الاعجما
يا اياداً خسرت ايديكموا ... خالط المنظر من برد عمى
فاصطباراً وعزاء حسنا ... كل نصر بعد ضر يرتجى
اصبحت (ليلى) تغلُّ كفها ... مثل تغليل الملوك العظما
وتقيد وتكبل جهرة ... وتطالب بقبيحات العنا
قل لعدنان هديتم شمروا ... لبني الاعجام تشمير الوفا
واعقدوا الرايات في اقطارها ... واشهروا البيض وسيروا في الضحى
يا بني تغلب سيروا وانصروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرى
وآحذروا العار على اعقابكم ... وعليكم ما بقيتم في الدنا

موقع المعركة

ذي قار ماء لبكر بن وائل تقع جنوب الحيرة بينها وبين السماوة وهي اقرب للسماوة . وهي تقع بين فرعي نهر الفرات في منطقة صحراوية بعيدة عن


نهر الفـرات
الكوفـة
الديوانية
الحيرة
الخورنق
السديـر
القادسيـة
الرميثـة
ذي قـار
السماوة

الفرعين وفي قربها تقع (حنوذي قار) و(جبايات ذي العجرم) و(جذوان) و(بطحاء ذي قار) . ويقع حنو ذي قار على بعد ليلة للماشين من ذي قار .

استعدادات الطرفين :

١ ـ الفرس :

(أ) اراد كسرىٰ أن يضرب العرب بالعرب لذلك قرر أن تكون بعض القبائل العربية من ضمن حملته ضد بني شيبان فأتصل بأياس بن قبيصة الطائي الذي نصبه ملكاً على الحيرة بدل النعمان ، وكان يحمل اللقب فقط بينما الحاكم الاصلي هو عامل كسرىٰ الفارسي عليها . طلب كسرىٰ من أياس ان يتولىٰ القيادة العامة للجيش الفارسي والقبائل العربية المشاركة وأن يتحرك من الحيرة باتجاه منازل بني شيبان . وكان يهدف من تسليم القيادة إلى أياس تخدير القبائل العربية التي تقف على الحياد واضعاف عزيمتها في مناصرة بني شيبان وبذلك يستغل القربىٰ والمحالفات فيما بينها فتتردد في مناصرة قوم أياس أو بني شيبان .

(ب) أمر كتيبتي الشهباء والدوسر التي خضعت لعامله الفارسي بعد حبس النعمان بالتحرك والالتحاق بقوة أياس .

(حـ) أمر (الهامرز التستري) وكان يعسكر في (القطقطانة) والقائد (جلايزين) وكان يعسكر في (بارق) بالتحرك نحو ذي قار وكان كلا القائدين والقوتين من الفرس .

(هـ) أمر قيس بن مسعود ذي الجدين وكان حاكماً على صفوان بالتقدم باتجاه منازل بني شيبان .

ولقد كان مجموع القوة التي حركها كسرىٰ نحو ذي قار تقدر بـ (٧٠٠٠) مقاتل ، تضم (٤٠٠٠) فارسي و(٣٠٠٠) عربي .

٢ ـ العرب :

(أ) كان هاني بن مسعود سيد بني شيبان يخشى عاقبة الحرب لعلمه بأن جيش فارس كان أكثر عدداً وعدة وكان كل همه أن يحفظ الأمانة التي أودعت إليه . فلما علم بمقدم الفرس أرسل إلى القبائل العربية المتحالفة معه والصديقة يطلب منها النصح والمساعدة ، فأسرعت اليه بنو عجل وباقي القبائل العربية ، وكان على رأس بني عجل القائد العربي المحنك (حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي) . ولقد تدارس معهم الأمر وقرروا القتال مهما كان الثمن .

(ب) لما دنىٰ الفرس من منازل بني شيبان انسل منهم قيس بن مسعود حاكم صفوان ليلاً وقد هاله أن يحارب اخوانه العرب ويشارك في هزيمتهم . جاء قيس إلى مضارب بكر وإجتمع سراً بهاني وقال له : ـ

(وزع سلاح ودروع النعمان على قومك وحارب به الفرس ، فإن انتصرت استرجعتها وحفظتها للنعمان ، وإن خسرت الحرب فخير لك أن تخسر الأمانة بالحرب من أن تسلمها بدون حرب) .

اخذ هاني بهذه النصيحة التي شجعته على الحرب ووزع السلاح والدروع على ذوي العزم والهمة من قومه .

(جـ) عندما وصل الفرس إلى مناطق تحشدهم رأى حنظلة العجلي تردداً من قبل بعض القبائل خوفاً من الهزيمة فسارع وقطع وضن الهوادج حتى لا تستطيع الحشود العربية سوق نسائهم أن هربوا من المعركة ويبقوا حولها صامدين دفاعاً عن حرائرهم ، ووقف فيهم خطيباً يحثهم على القتال والثبات ومواجهة الفرس بعزيمة ، فأما النصر أو الموت ، ثم قام بعده هاني بن مسعود وخاطب الجمع قائلاً : ـ

(يا قوم هالك معذور خير من ناج فرور ، وإن الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من اسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من

إستدباره ، والـطعن في الثغر اكـرم من الطعن في الـدبر . يـا قوم جـدوا فما من الموت بدُ ، فتح لو كـان له رجـال ، اسمع صـوتاً ولا أرىٰ قـوماً ، ويـا آل بكر شدوا واستعدوا والا تشد وتردوا) .

(د) قرر هاني أن يعهد بالقيادة العامة للقبائل العربية الى حنظلة العجلي لأنه كان اشجعهم وأكثرهم حكمة ودراية بأمور الحرب .

(هـ) كان أول أمر أصدره حنظلة أن يجمع القوم ماءً تكفيهم لمدة خمسة عشر يوماً لأنهم سوف يحاربون في منطقة بعيدة عن الأنهار والآبـار ولا يستطيـع من لا يحمل ماءً الصمود فيها .

المعركة :

١ ـ استمرت المعركة ثمانية أيام في مواقع مختلفة قريبـة من ذي قار منهـا قراقـر ـ حنو قراقر ـ الجبايات ـ ذي العجرم ـ الجذوان ـ البطحاء ـ حنو ذي قار ـ ذي قار . ويختلف المؤرخون في تاريخ يوم ذي قار فمنهم من يقول أنه وقـع يوم ولادة الرسول الكريم محمد (ص) ، ومنهم من يقول أنه وقـع زمن معركـة بدر الكبرى ، وأكثرهم اتفقوا على أن يوم ذي قار وقع بـالتأكيـد بعد مبعث الرسول الكريم (ص) حتى أنه لما بلغه خبر انتصار العرب على الفرس قال قوله المشهور : ـ

(هـذا أول يوم انتصف بـه العـرب من العجم وبيّ انتصـروا) . ويقـول المسعودي في مروج الذهب ص ١٢٧٨ ـ

وكانت وقعة ذي قار لتمام اربعـين سنة من مـولد رسـول الله (ص) وهو بمكة بعد أن بعث ، وقيل بعد أن هاجر ، وفي رواية اخرىٰ أنها كانت بعد وقعـة بدر بأشهر) .

٢ ـ كانت خطة العرب تعتمد على الهجوم السريع وعدم الركون على الانتـظار ، لذلك سارعوا فهاجموا حشود الفرس في الحنو ودارت معركة شرسة استخدم

فيها الفرس الفيلة ، ولقد تغلبوا فيها على العرب ، وفي اليوم الثاني انسحب الفرس إلى الجبايات خوفاً من العطش فتعقبهم العرب وكانت قبيلة عجل في المقدمة ، وعند شروق اليوم الثالث اشتبكت عجل مع الفرس بمعركة كبيرة استبسلت فيها ، ولقد قام عليهم الفرس بهجوم مقابل شديد ، فقال الناس هلكت عجل فحملت بكر لنجدتها فوجدتها صامدة تقاتل ببسالة نادرة فأنضموا إليها واوقفوا هجوم الفرس وسددوا اليهم الضربات الواحدة تلو الأخرىٰ فأضطر الفرس إلى الانسحاب إلى البطحاء .

وفي الليل ارسلت قبيلة أياد رسولاً إلى بني شيبان قال لهم : (هل تريدوننا أن ننسحب من المعركة الآن ونترك الفرس يواجهونكم لوحدهم مع أياس ام تريدوننا البقاء حتى الاشتباك ثم نهرب من المعركة) .

ولقد قدمت أياد مع أياس إلا أنها أبت ان تستمر معه في محاربة اخوانهم عرب بنو شيبان وهذه طبيعة العربي الشريف الذي لا يقبل بأية حال من الأحوال ومهما كانت الظروف أن يقف مع الاجنبي في محاربة اخوانه العرب ، ولا بد أن ينتصر لعروبته مهما كان الثمن .

وكان جواب بني شيبان لهم : ـ

(بل ابقوا حتى الألتحام وإذا ما التقىٰ الجمع انهزمتم) . وكانت المعركة الفاصلة والأخيرة في ذي قار في اليوم الثامن حيث انتصر العرب وتمزق الجيش الفارسي شر ممزق . وتفاصيل المعركة الأخيرة كما يلي : ـ

في الصباح قال يزيد بن حمار السكوني وكان حليفاً لبني شيبان : ـ (يا بني شيبان اطيعوني بأن انصب كميناً للفرس في جب ذي قار فلما يشتبكوا معكم اباغتهم بالخروج من الكمين واهاجمهم من الخلف) . فوافقوا على رأيه .

وكانت قوات الطرفين معبئة في ذي قار كما يلي : ـ

(أ) الفرس :

في القلب : قوة أياس بن قبيصة (وتعتمد بالدرجة الأولىٰ على قبيلة اياد) .

في الميمنة : قوة الهامرز .

في الميسرة : قوة الجلابزين

(ب) العرب :

في القلب : قوة هاني بن مسعود الشيباني سيد بكر .

في الميسرة : قوة حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي .

في الميمنة : قوة يزيد بن مسهر الشيباني .

الكمين : قوة يزيد بن حمار السكوني .

بدأ العرب بالهجوم :

فحملت ميسرة العرب بقيادة حنظلة على ميمنة الفرس وقتل حنظلة قائدها الهامرز فأختلت صفوفها وبدأت بالتقهقر .

وحملت ميمنة العرب على ميسرة الفرس وفي الوقت نفسه خرج الكمين من الجب من خلف الفرس وهاجم قلب الجيش الفارسي الذي كان يقوده أياس والذي كان يضغط عليه من الأمام قلب العرب بقيادة هاني بن مسعود ، وفي هذه اللحظة انسحبت قبيلة أياد العربية وفق الخطة المتفق عليها فتخلل القلب وضعفت قوته ، فأنهزم الفرس بعد أن فقدوا خيرة مقاتليهم ، وطاردهم العرب حيث انزلوا بهم خسائر كبيرة ، وكان من جملة قتلىٰ الفرس اثناء المطاردة (الجلابزين) . وهرب أياس حتى وصل المدائن وحيداً ، طريداً ، خائباً بعد أن لفظته القبائل العربية كافة .

ولقد لعبت النسوة العربيات دوراً كبيراً في اثارة حماس المقاتلين وتشجيعهم على الاستبسال في المعركة والاصرار على احراز النصر ، وكانت ابرزهنَّ صفية بنت ثعلبة اخت الفارس العربي عمر بن ثعلبة الشيباني احد ابطال ذي قار ، ولقد طلبت صفية من هند بنت النعمان الثالث أن تخرج سافرة للأبطال توصيهم

وتشجعهم بالشعر . وكانت هند احدىٰ النساء العربيات من آل النعمان الذين طلبهن كسرىٰ لنفسه . وفي يوم المعركة اسفرت هند بوجه زاهر ، وحسن باهر وقالت تخاطب عمر بن ثعلبة : -

حافظ على النسب النفيس الأرفع ... بمد جنجين مع الرماح الشرع
وصوارم هندية مصقولة ... بسواعد موصولة لم تمنع
وسلاهب من خيلكم معروفة ... بالسبق عادية بكل سميذع
واليوم يوم الفصل منك ومنهم ... فأصبر لكل شديدة لم تدفع
يا عمرو يا عمرو الكفاح لدىٰ الوغىٰ ... يا ليت غاب في اجتماع للمجمع
اظهر وفاء يا فتىٰ وعزيمة ... اتضيع مجداً كان غير مضيع

وهكذا انتهت المعركة بنصر حاسم للعرب . وكان هذا النصر تمهيداً للفتح العربي الإسلامي للعراق حيث لم تمضي عليه سوى بضع سنين حتى اقنع القائد العربي العراقي المثنى بن حارثة الشيباني الخليفة أبو بكر الصديق بارسال حملة قوية إلى العراق لتحريره إلى الأبد من نير الاستعباد الفارسي البغيض .

ولقد وصف الشعراء العرب أنذاك هذه المعركة بفخر واعتزاز وفي ادناه بعض ما قال فيها شاعر بكر (اعشى قيس) : -

وجند كسرىٰ غداة الحنو صبحّهم ... منا غطاريف ترجوا الموت وانصرفوا
لقوا مُلملمة شهباء يقدمها ... للموت لا عاجز فيها ولا خرِف
فرع نمته فروع غير ناقصة ... موفق حازم في أمره أُنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم ... مثل الاسنة لا ميل ولا كُشف
بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم ... جنان عين عليها البيض والزغف[1]
لما رأيناهم كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
قالوا : البقية والهندي يحصدهم ... ولا بقية إلا السيف فأنكشفوا

---

(١) الزغف = الدروع

لـو أن كـل معد كـان شـاركنـا في يـوم ذي قار مـا أخطأهم الشـرف
لمـا أتـونـا كـأن الليـل يقـدمهم مطبق الأرض تغشـاهـا بهم سـدف
بـطارق وبـنـو ملك مـرازبـة مـن الاعـاجـم في آذانها الـنـطف
من كـل مرجانة في البحـر احـرزها تيـارها ووقـاهـا طينهـا الصـدف
وظعننـا خلفنـا تجـري مـدافعهـا أكبـادهـا وجـلاً ممـا تـرىٰ تجف
كـأنمـا الآل في حـافـات جمعهـم والبيض بـرق يـداً في عـارض يكف
يحسـرون عن أوجه قـد عاينت عبراً ولاحـهـا عـبـرة ألـوانها كـسـف
مـا في الخـدود صـدور عن وجـوههم ولا عن الـطعن في اللبـات منحـرف
لمـا امـالـوا الى النُشـاب أيـديهم ملنـا ببيض فـظل الهـام يقـتـطف
وخيـل بكـر فـما تنفـك تـطحنهم حتى تـولـوا وكـاد اليـوم ينتـصف



معركة القادسية

التمهيد لفتح العراق

عنـد الكلام عن معـركة اليـرموك ذكـرنا أن الخليفـة الصديق قـرر تحريـر سـورية والعـراق ، وقد شجعـه تقـدم المثنى ، ووصـولـه إلى قـرب مصب دجلة والفرات على البدء أولاً باحتلال العراق .

شخص المثنى بنفسه إلى المدينة ليقنع الخليفة بالبـدء بتجهيز جيش كبـير ، فشرح له المـوقف العسكري والسيـاسي الذي تمـر به دولـة الفرس في العـراق ، وكيف وجد تجاوباً روحياً من القبائل العربية التي كـانت منتشرة في ربـوع العراق من أمثـال بني لخم وتغلب وأياد والنمـر وبني شيبان ، الـذين آلـوا عـلى أنفسهم التخلص من الاستعمار ، والانضمام إلى أبناء عمومتهم عرب الجزيرة .

ولما اتخذ الخليفة قراره الأخير بالفتح أرسل أمراً إلى خالـد بن الوليـد الذي كان مقيماً مع جيشه في اليمامة أن يزحف إلى العراق ويتولى القيادة العامة فيه .

وأرسل أمراً آخر إلى « عياض بن غنم » أن يسـير بجيشه إلى دومـة الجندل (الجـوف حاليـاً) ليخضع أهلهـا المتمردين ، ومن ثم يسـير شـرقـاً إلى العـراق ويدخل بأمرة خالد بن الـوليد ، عـلى أن يلتقي الجيشان في الحيـرة ، ومن يصل إليها قبل صاحبه عليه أن يتوقف فيها حتى وصول الجيش الآخر ليستأنفـا التقدم سوية نحو المدائن عاصمة الفرس في العراق .

حركات خالد في العراق :

زحف خالد من اليمامة بجيش تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وذلك في محرم سنة ١٢هـ . وقبل حركته أرسل إلى المثنى يطلب إليه أن يسير بجيشه إلى « النباج »[١] ليلتقي به . وكان جيش المثنى مؤلفاً من ثمانية آلاف مقاتل .

وفي « النباج » أعاد خالد تنظيم الجيوش فقسمها إلى ثلاث فرق وجه كل واحدة منها في طريق ، على أن تلتقي في « الحفير » وهي كائنة بين حائل والبصرة . وكان هدفه الوصول إلى « الابلة » ، البصرة الحالية ، والتقدم منها بمحاذاة الفرات إلى الشمال .

الفرقة الأولى ، بقيادة المثنى ، سارت قبل فرقة خالد بيومين .

الفرقة الثانية ، بقيادة عدي بن حاتم ، سارت بعد المثنى بيوم واحد .

الفرقة الثالثة ، بقيادة خالد نفسه ، سارت بعد عدي بيوم واحد .

لما سمع قائد الفرس في أرض السواد ، « هرمز » ، بتقدم خالد إلى « الحفير » أسرع بجنده إليها ونزل عند عين الماء الموجودة قربها . ولما وصل الجيش العربي طلب « هرمز » مبارزة خالد ، وبنتيجتها قتل « هرمز » والتحم الجيشان بمعركة اندحر فيها الجيش الفارسي ، وانهزم باتجاه الابلة والجيش العربي يطارده .

تولى المثنى المطاردة ، ثم توقف في « المذار » بعد أن علم أن « اردشير » ملك فارس أرسل جيشاً بقيادة « قارن بن قريانس » لمجابهة العرب . ولما سمع خالد بأنباء تقدم الفرس وتوقف المثنى سار مسرعاً إلى المذار مع بقية الجيش ، وراح فيها يستعد لاستقبال جيش قارن .

وفي صفر سنة ١٢هـ اشتبك الجيشان بمعركة ضارية انتصر فيها العرب

---

(١) كائنة في نجد شرق حائل .

ودمر الجيش الفارسي وقتل قادته « قارن » و« قباز » و« انو شجان » .

وبعد أن رأى كسرى شدة بأس العرب واندحار قواته جمع جيشاً كبيراً بقيادة « بهمن جاذويه » وأمره بالمسير إلى « الولجة » . ولما سمع بذلك خالد تقدم بجيشه نحوها ، بعد أن أمن خط مواصلاته بوضع حامية في الحفير وأخرى في المذار .

وكانت خطة خالد الهجومية تقضي بأن يقوم القلب بالهجوم بقيادته بينما تكمن الميمنة بقيادة « يسر بن أبي رهم » والميسرة بقيادة « سعيد العجلي » في كلا الجانبين ويباغتان الفرس بهجوم حدده بعد اشتباك رتل القلب بفترة معينة .

نفذت الخطة بنجاح تام ، رغم تأخر الكمينين بالحركة . فبينما كان القلب مشتبكاً بمعركة ضارية مع الفرس ظهر الكمينان من خلفهم ، فدارت الدائرة عليهم وتم النصر للعرب .

بعد هذه المعركة انسحب الفرس إلى « اليس » الواقعة على الفرات شمالي الولجة وجنوبي الحيرة بـ ٣٠ ميلاً فتعقبهم خالد واحتلها .

ولما سمع حاكم الحيرة بانهيار مقاومة الفرس في « أليس » ارسل جيشاً بقيادة ابنه للسيطرة على فم « فرات بادقلي » ومراقبة حركات القوات العربية . وأمره بألا يشتبك بقتال جدي مع العرب لحين اكمال تحشد القوات التي اخذت تصل الحيرة .

أما خالد فقد نقل مشاته بالسفن التي وجدها في « أمغيشيا » الكائنة شمالي « أليس » ، بينما كانت خيالته تسير بمحاذاة الساحل . وبعد مسير قليل جنحت السفن في النهر من جراء انخفاض منسوب المياه بتأثير سد الفرس « فم فرات بادقلي » وتحويل المياه إلى مجرى آخر .

قاد خالد كتيبة خيالة وتوجه إلى « فم بادقلي » لفتح الماء ، وقد باغت فيها الفرس وقضى عليهم وفتح الماء ، فسارت سفنه وسار هو مع خيالته الى

« الخورنق » وعسكر فيه منتظراً وصول مشاته ليقوم بالهجوم على « الحيرة » .

في هـذه الاثنـاء مـات الملك « اردشـير » ، وتفـرقت كلمـة زعـماء فـارس فانهارت معنويات حاكم الحيرة ، خاصة بعد أن وردتـه انباء سقـوط « فم فرات بادقلي » ومقتل ابنه فترك الحيرة منسحباً إلى المدائن . إلا أن أهل المدينـة تحصنوا فيها وعزموا على المقاومة ، إلا أن مقاومتهم انهارت بعد فترة وجيزة ودخل خالـد الحيرة عاصمة المناذرة وثاني مدينة في العراق بعد المدائن .

استقـر خالـد في الحيرة منفـذاً أمر الخليفـة بانتـظار وصول جيش عيـاض لاستئناف التقدم . ولم يستطع هذا انجاز واجبه الأول بالقضاء عـلى المرتـدين في دومة الجندل . واستمر الحال سنة لم يستغل فيها فرصـة نزاع امـراء الفرس عـلى العرش الخالي فيتقدم ويحتل عاصمتهم ، ولطالما قال لاصحابه : « لـولا ما عهـد الي الخليفة لم انتقذ عيـاضاً ، ومـا كان دون فتـح فارس شيء . إنها لسنـة كأنها سنة نساء » .

سأم خالد الانتظار فقـرر القيام ببعض الغـارات على بعض المـدن ، فترك القعقـاع في الحيرة وزحف عـلى الانبار واستـولى عليها ، ثم تـوجه نحـو الغرب واستولى على « عـين التمر » وفيهـا جاءه أمـر الخليفة بـالتوجـه إلى دومة الجنـدل لمساعدة عياض في القضاء على المرتدين .

لما علم الفرس بمغـادرة خالـد للعراق أخـذوا يتجمعون لـلانقضاض عـلى الحيـرة وطرد العـرب من العراق . ولمـا وصلت أنباء حشـودهم إلى خـالـد عـاد مسرعاً إلى الحيرة وقضى على هذه التجمعات .

قرر خالد تنظيف نهر الفـرات من الفرس فقـاد قوة سـار بها نحـو الشمال بمحـاذاة النهر حتى بلغ « الفـراض » وهي تقع عـلى حدود سـورية والعـراق على ضفة الفرات اليسرى مقابل « البوكمال » الحاليـة ، ولبث فيها شهـراً يفصله عن أرض الشام نهر الفرات . وهكذا وصل نقـطة التقاء الامبـراطوريتـين الفارسيـة والرومية .

ارتبك الروم من وصول خالد إلى حدودهم فجهزوا جيشاً عبر الفرات واشتبك معه بمعركة انتصر فيها العرب انتصاراً ساحقاً ، وكان ذلك في منتصف شهر ذي القعدة سنة ١٢ هـ .

وبعدها بعشرة أيام عاد خالد بقوته إلى الحيرة . وبعد مدة وجيزة جاءه أمر الخليفة بتعيينه قائداً عاماً للقوات العربية في الشام ، فسار إليها بنصف جيشه تاركاً المثنى بمركز القيادة العامة في العراق .

حركات المثنى :

قدر المثنى الموقف فوجد أن قوته قلت إلى النصف وأن البلاد التي افتتحت واسعة تحتاج إلى حاميات قوية لتحافظ على الأمن وتمنع انتفاض القبائل الموالية للفرس . هذا وقد اتفق امراء الفرس بتنصيب « شهريران بن اردشير بن سابور » ملكاً عليهم فحلت مشكلة العرش وتوحدت كلمتهم ، وقد عزم هذا على استرداد ما ضاع من أرض العراق واعادة سلطان قومه عليها ، لذلك قرر المثنى تنظيم شؤون الدفاع عن البلاد التي تم فتحها بما بقي معه من القوة .

جهز الملك الجديد « شهريران » جيشاً تعداده عشرة آلاف مقاتل عهد بقيادته إلى « هرمز جاذويه » وكلفه باستعادة الحيرة . ولما علم المثنى بذلك قرر أن يبادر بالهجوم ، لذلك ترك الحيرة وسار بنظام المعركة هو مع القلب وسار أخواه المعنى ومسعود على ميمنته وميسرته حتى وصل أطلال بابل وعسكر فيها مستفيداً من شبكة الجداول المحيطة بها لحماية معسكره .

أقبل جيش هرمز يتقدمه فيل كبير استصحبه معه لتخويف العرب وكسر معنوياتهم . ولما اشتبك الطرفان كان الفيل يفرق الصفوف ويبعث في نفوسهم الرعب .

أيقن المثنى أن انتصاره رهين بالقضاء على الفيل فهجم عليه مع جماعة من أشداء العرب وقتله فارتفعت معنويات العرب وحملوا على الفرس ودمروا

مقاومتهم وقضوا على الآلاف منهم وتعقبوا فلولهم حتى أبواب المدائن .

قضت هذه الهزيمة على « شهريران » إذ مات مهموماً على اثرها ، فتولت الملك بعده احدى الاميرات ثم خلعت وتوج سابور بن شهريران ثم قتل هذا واعتلت العرش ازرميدخت .

لما ترامت انباء تجدد النزاع بين أمراء البيت المالك الفارسي إلى المثنى ارتاح باله واطمأن بعض الشيء ، ولكنه مع ذلك لم يخاطر ويتقدم لفتح المدائن بقوته القليلة ، وأرسل يطلب من الخليفة مدداً أو يسمح له بتجنيد التائبين من أهل الردة ، إلا أن الصديق لم يجب طلبه لانشغال الجيوش العربية في فتح الشام ، ولم يوافق على تجنيد التائبين من أهل الردة لأنه لا يثق بهم .

قرر المثنى الانسحاب الى حدود البادية تجنباً للاصطدام بالجيش الكبير الذي بدأ الفرس بجمعه ، ثم استخلف « بشير بن الخصاصية » لقيادة الجيش وسافر إلى المدينة ليقنع الخليفة برأيه . ولما وصل وجد الصديق ينازع الموت ، ومع ذلك استقبله وناقشه بالموضوع حتى اقتنع برأيه فأوصى عمر بن الخطاب أن يمد المثنى بجيش يصد به الفرس ويفتح عاصمة ملكهم ويحرر أرض العراق منهم .

توفي الصديق واستخلف بعده أعظم عربي ظهر في الوجود بعد النبي محمد (ص) وهو عمر بن الخطاب .

وكان باكورة أعمال الخليفة الجديد السماح للمثنى بتجنيد التائبين من أهل الردة . ثم أخذ يغري العرب بالذهاب مع المثنى لحرب فارس ، فتلكأوا عن تلبية ندائه لمدة ثلاثة أيام إلى أن قام ابو عبيد عمر بن مسعود الثقفي فكان أول المتطوعين ، ثم تبعه سليط ابن قيس ، ، ثم تبعه الآخرون حتى بلغ عددهم ٤ آلاف متطوع اغلبهم من بني ثقيف . لذلك أمرّ عليهم الخليفة أبا عبيد وعينه قائداً عاماً في العراق . ولم يوفق عمر بهذا الاختيار ، إذ كان الو قع يقضي بابقاء المثنى بالقيادة العامة ، لأنه كان أعلم بالموقف وبالأرض وبخصائص الفرس ،

ولقد سبق له قيادة عديد من العمليات الناجحة اكتسب فيها خبرة وتجربة .

عاد المثنى إلى العراق قبل حركة قوة ابي عبيد التي اخذت تستعد للحركة بعد أن يكمل تجهيزها وتموينها .

أما الفرس فقد خلعوا « ازرميدخت » ونصبوا « بوران » محلها . فاستوزرت هذه « رستم » واطلقت يده في أمور الدولة والجيش .

وصل أبو عبيد فوجد أن المثنى قد انسحب من الحيرة إلى « خفان » على حدود البادية ، وكان الجيش الذي وصل معه يبلغ عشرة آلاف مقاتل استصحب اربعة آلاف معه من المدينة ، وانضم اليه الآخرون من القبائل التي مر عليها اثناء مسيره .

حركات أبي عبيد الثقفي :

بعث رستم من المدائن جيشين : **الأول** : بقيادة « جابان » وأمره بالتقدم نحو الحيرة . **والثاني** : بقيادة « نرسي » وأمره أن يتخذ معسكراً بـ « كسكر » بين الفرات ودجلة . ولما سمع أبو عبيد بتقدم الفرس ترك « خفان » نحو الحيرة فالتقى بجيش جابان بمكان يسمى « النمارق » بين الحيرة والقادسية . فكانت معركة عنيفة تمكن العرب بعدها من تشتيت الفرس وأسر قائدهم « جابان » .

ولما وصلت أخبار هذا الانحدار إلى « بوران » أمرت « الجالينوس » وهو من كبار قادتها أن يسير على رأس جيش لانقاذ الموقف على أن يلتحق بمعسكر نرسي في كسكر . إلا أن أبا عبيد كان أسرع منه إذ وصل كسكر قبله فقضى على قوة نرسي ثم توجه لمجابهة جيش الجالينوس فالتقى به قرب قرية « بارسما » فشتته وهرب الجالينوس إلى المدائن . وبعد هذا النصر السريع وجه أبو عبيد قواده فأعادوا احتلال سواد العراق بأكمله .

معركة الجسر :

أساءت هذه الانتصارات الرائعة بوران ورستم فأعد هذا جيشاً كبيراً سلم قيادته أحد قادته الماهرين وهو ذو الحاجب « بهمن جاذويه » وجعل تحت قيادته الجالينوس وأمر بالسير نحو الحيرة .

ولما سمع ابو عبيد بتقدم هذا الجيش الكبير انسحب عبر الفرات إلى قرية « قس الناطف » وتحصن فيها ينتظر بهمن . ولما وصلت طلائع الفرس نهر الفرات وجدوا أن النهر يحول دونهم والعرب ، فلبثوا ينتظرون وصول بقية القوة وقائدها بهمن الذي بعث حال وصوله إلى أبي عبيد يقول : « أما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور ، وأما أن تدعونا نعبر اليكم » .

ولما استشار أبو عبيد أصحابه أشاروا عليه بأن يدع الفرس يعبرون ، إلا أنه عمل خلاف ذلك ، وقرر العبور اليهم ، فألح عليه « سليط بن قيس » ألا يعبر ، إلا أنه اتهمه بالجبن وأصر على العبور .

ولما أصدر أمره إلى جيشه بالعبور كان « سليط » أول العابرين .

وحال عبور الجيش العربي حمل عليهم الفرس دون أن يعطوهم فرصة لتنظيم صفوفهم تتقدمهم الفيلة وعليها الجلاجل يصدر عنها رنين مزعج ارعبت خيول العرب فلاذت بالفرار ، ولم يتمكن الفرسان من السيطرة عليها ، وكانت سهام الفرس تنهال عليهم من كل جانب .

ترجل أبو عبيد وصحبه وحملوا على الجيش الفارسي وتمكنوا من قتل حملة السهام الذين كانوا على ظهر الفيلة واستمر القتال شديداً طوال ساعات النهار .

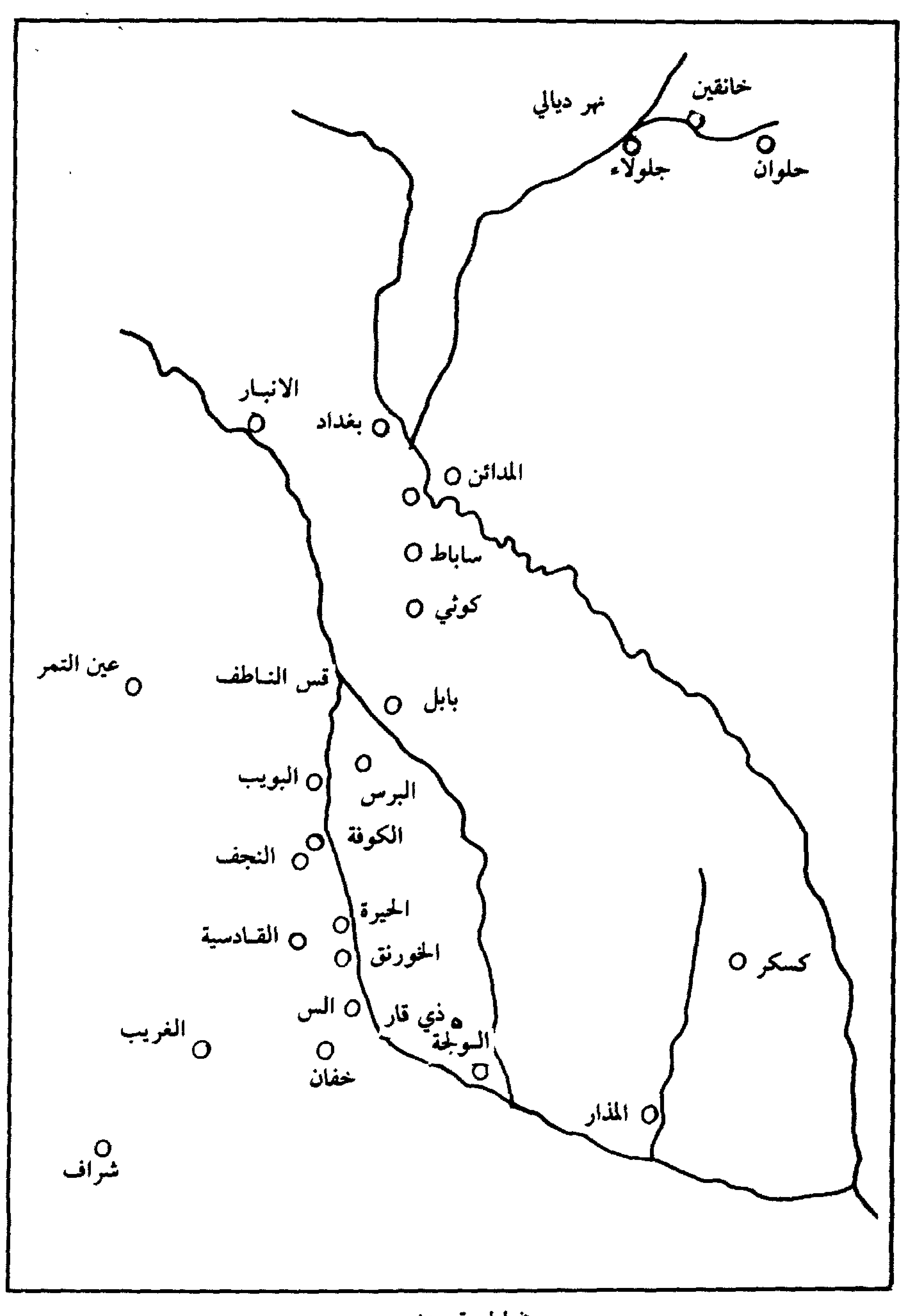
ولقد رأى أبو عبيد فيلاً أبيض أربك صفوف قواته فحمل وضرب خرطومه بسيفه فهاج الفيل وقتل القائد العام العربي وكان هذا قد أوصى بأن يتولى القيادة بعده سبعة من بني قومه « بني ثقيف » سماهم بأسمائهم . فلما

استشهد تقدم الأول وسحب جثة القائد من تحت الفيل ثم عاد يحاول قتله إلا أن الفيل قتله فتتابع باقي الثقفيين على القيادة حتى قتلوا جميعاً ، فاضطرب الجيش العربي بعد مقتل قادته ، فتقدم المثنى وحمل اللواء وتولى القيادة ورأى أنه لا يستطيع مواصلة القتال لتفوق الفرس وأنهيار معنويات العرب فانسحب بالجيش إلى الجسر قاصداً العبور ، إلا أن احد الثقفين (عبد الله بن مرثد الثقفي) قطع الزوارق الأولى من الجسر وصاح بالمسلمين ان يقاتلوا فأما النصر أو اللحاق بمن استشهد في ذلك اليوم . ففزع الجند من عمله ورمى بعضهم نفسه بالنهر طالباً النجاة فغرق القسم الاعظم منهم . إلا أن المثنى تمكن بقوة اعصابه من السيطرة على الموقف وأمر بتصليح الجسر ثم مسك رأس جسر حوله وحمى عبور باقي الجيش الى الضفة الثانية وقد اصابته ضربة رمح جرحته إلا أنه لم يهتم بل لبث واقفاً والدماء تنزف منه حتى تم عبور الجيش بأكمله .

سار المثنى مسرعاً إلى الحيرة ظانا ان بهمن سيتعقبه ، إلا أن الفرس لم يقوموا بالمطاردة بسبب اختلاف قادتهم مرة ثانية على العرش حيث زحف أحد قادتهم « الفيروزان » على المدائن لعزل رستم وزير الملكة الأول والحلول محله . لذلك عاد بهمن بأكثرية جيشه إلى العاصمة تاركاً قوة قليلة ارسلها لتعقيب الجيش العربي المنسحب ، يرقب الاحداث عن كثب .

تخطى المثنى الحيرة إلى ألس وأخذ فيها يستثير حمية القبائل العربية النصرانية طالباً منهم الالتحاق بجيشه فالتحق به عدد كبير منهم من بينهم نصارى بني النمر وتغلب . إذ جمعتهم الرابطة القومية بعد أن احياها خالد بن الوليد من قبل والمثنى من بعده .

فتقدم بجيشه إلى الشمال الغربي وعسكر في « مرج السباخ » جنوبي القادسية وقد وصلته فيه نجدات من المدينة أرسلها إليه الخليفة وبذلك تكامل لديه جيش قوي قادر على منازلة الفرس .


نهر ديالي
خانقين
جلولاء
حلوان
الانبار
بغداد
المدائن
ساباط
كوثي
عين التمر
قس الناطف
بابل
البويب
البرس
الكوفة
النجف
الحيرة
القادسية
الخورنق
السن
ذي قار
الغريب
الولجة
خفان
المذار
كسكر
شراف

مخطط رقم (١)

معركة البويب :

علم بلاط كسرى بوصول نجدات جديدة إلى المثنى فنسي الفرس خلافاتهم واتفق رستم والفيروزان وتقاسموا السلطان بينهم جهزوا جيشاً سلموا قيادته الى « مهران الهمذاني» وأمراه بأن يسرع إلى قتال العرب.

ولما وصلت أخبار مهران إلى المثنى ترك مرج السباخ وتقدم إلى البويب حيث وصلها الجيش الفارسي وعسكر في الضفة الثانية من نهر الفرات. وكانت النجدات تصل إلى المثنى تباعاً من المدينة المنورة.

بعث مهران إلى المثنى يقول « أما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم».

فأجابه المثنى بأن « اعبروا أنتم » .

عبر الفرس ونظموا صفوفهم ثم اشتبك الطرفان بقتال دامٍ استمر ساعات طويلة، ولما رأى المثنى أن المعركة ستطول وأن النصر مشكوك فيه، قرر الهجوم بنفسه على قائد الفرس وقتله لاضعاف معنويات قطعاته، فدعى إليه « أنس بن هلال النمري» و« ابن مردي الفهر التغلبي» وهما من النصارى، فحمل الثلاثة على مهران قائد الفرس، فلما رأى الفرس الخطر المحدق بقائدهم تجمعوا حوله لحمايته فاختلت صفوفهم فاستغلها العرب وشددوا الحملة عليهم ودفعوهم إلى النهر فازداد الخرق وكبرت الفجوة بين صفوف الفرس فلم يستطيعوا الثبات فولوا هاربين والعرب يتعقبونهم. ولما أراد الفرس عبور النهر سبقهم المثنى إلى الجسر وقطع عليهم الطريق، طريق رجعتهم، وحصرهم بين نارين والعرب يمعنون بهم قتلا حتى تمكن غلام نصراني من تغلب من قتل مهران واستولى على فرسه وامتطاها صائحا: « أنا الغلام التغلبي أنا قتلت المرزبان».

ويقدر بعض المؤرخين أن أكثر من ثلثي الجيش الفارسي قد أبيد في هـذه المعركة ولم ينج منه إلا عدد قليل .

وقد قتل في المعركة « مسعود » شقيق المثنى و« أنس بن هلال » النصراني فضمهما المثنى إلى صدره وبكاهما ولم يفرق اختلاف دينهما من وجده عليهما .

مَعرَكة القادِسيَّة

الموقف العام :

بعد انتهاء معركة البويب تقدمت طلائع جيش المثنى فاحتلت ساباط وقرية بغداد وتكريت وأخذت تهدد المدائن ، فانتبه الفرس إلى هذا الخطر المحدق بهم فتشاوروا بالأمر فظهر لهم بأن لا طاقة لهم بصد جيوش المثنى ما لم تتوحد كلمتهم ويوفقوا بين قائديهم رستم والفيروزان اللذين كانا يتنازعان السلطان بعد أن خلي العرش بوفاة بوران . فنجح بعض ذوي النفوذ بالتوفيق بينهما بعد أن صور لهما الخطر العربي الذي يهدد تدمير هذا العرش الذي يتنازعان عليه . وهكذا اتحدت كلمتهم ووافقوا على تنصيب « يزدجرد » بن شهريار على عرش اجداده ، وأخذوا يستعدون لصد الزحف العربي ، فجمعوا جيشاً كبيراً اخذ يتحشد في المدائن .

فلما وصلت انباء هذا الحشد إلى القائد العربي المثنى ادرك أنه غير قادر بقوته القليلة على صد تعرض هذا الجيش الكبير ، لذلك قرر الانسحاب من المراكز التي احتلها إلى « ذي قار » وكتب الى الخليفة يطلب اليه المدد لايقاف الزحف الفارسي المنتظر ، ومن ثم مواصلة الزحف لتطهير أرض العراق من العدو .

نزل المثنى « بذي قار » ولم يفكر الفرس بتعقبه لأن رستم قائدهم الاعلى كان متشائماً ومعنوياته خائرة ، لا يحبذ الاشتباك بقتال مع العرب بالوقت الحاضر وكان يفضل الدفاع وانتظار تقدم العرب نحو المدائن وصدهم عنها .

جيش سعد بن أبي وقاص :

وصلت انباء تحشد الفرس وإتحاد كلمتهم إلى عمر بن الخطاب فدرس الموقف العام في جبهة العراق وسورية . فوجد أن قواته في العراق غير قادرة على مواصلة التقدم والدفاع في محلاتها الحالية ما لم تعزز بجيش كبير قادر على تحرير العراق . ولما كان الموقف في سورية يساعد على ارسال مثل هذا الجيش بعد أن تم تدمير الجيش الرومي في معركة اليرموك الفاصلة قرر الخليفة استنفار القبائل العربية وارسال البعوث لحثها على الجهاد والتجمع في المدينة .

وبعد فترة وجيزة تجمع جيش قوامه ٤ آلاف محارب انتدب لقيادته « سعد بن أبي وقاص » وطلب اليه اكمال تجهيز هذا الجيش وتسليحه وانجاز الاستعدادات لحركته .

والقائد المنتخب هو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القريشي الزهري .

نشأ في مكة وكانت صناعته بري السهام وصناعة القسي . وهو من أوائل المسلمين فقد أسلم وعمره سبعة عشر عاماً . اشترك في جميع الحروب التي دارت بين المسلمين وقريش ، وكان من أمهر رماة السهام في الجيش الاسلامي ، حتى أنه كان في معركة « أحد » بجنب الرسول الكريم (ص) يرمي والرسول يناوله النبل ويقول له « ارم فداك أبي وأمي » . وهو أحد العشرة المبشرة بالجنة الذين توفي الرسول وهو عنهم راض .

وكان سعد قائداً ممتازاً ، ذا خبرة ومقدرة ودراية بفنون القتال ، ادارياً حازماً ، راجح العقل ، بعيد النظر ، سريع القرار ، قوي الارادة ، شجاعاً ولقد وصفه عمرو ابن معدي كرب قائلاً :

« إنه متواضع في خبائه ، عربي في غرته ، اسد في ثاموره ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، يعطف علينا عطف الأم

البرة ، وينقل الينا حقنا نقل الذرة » .

ولما حان وقت الحركة دعا عمر سعداً وزوده بنصائحه التالية :

« إني وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم ان لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله ، وأعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : في طاعته واجتناب معصيته ، وإنما اطاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة وللقلوب حقائق ينشئها الله انشاء ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فإن تكون حامدة ذامة في الحق سواء ، أما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه ولسانه ، وبمحبة الناس ، فلا تزهد التحبب ، فإن البنين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عنك »[1] .

إنطلق سعد بجيشه من المدينة وكان يضم بعض ابطال العرب مثل عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وطليحة بن خويلد الاسدي ، والاشعث بن قيس الكندي ، وغيرهم من الزعماء كل على رأس قبيلته . وبعد مسيرة الجيش اخذت القوات تقبل تترى على المدينة تلبية لنداء عمر فيبعثها في أثر سعد لتنضم اليه ، كما انضمت اليه بعض القبائل العربية التي كان يمر بمنازلها . ولم يكد يقترب من « زرود » حتى بلغت قواته عشرين الف مقاتل . وقد أرسل عمر رسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح القائد العام في سورية يطلب فيها إليه ارسال قوة لتلتحق بقوة سعد في العراق .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٨٣ .

افرز أبو عبيدة قوة مقدارها ستة آلاف محارب بقيادة « هاشم بن عتبة بن أبي وقاص » ، ابن اخي سعد وأمرها بالمسير نحو العراق .

أما قوة المثنى التي انسحبت إلى ذي قار فكانت ثلاثة آلاف محارب انضم إليها ما يقارب الخمسة آلاف من القبائل المجاورة .

وحين بلغ سعد حدود العراق ، اكتمل تحشد هذه القوات كلها عدا القوة المرسلة من الشام . وقبل حركة سعد من زرود أرسل قوة من ٥٠٠ فارس بقيادة « المغيرة ابن شعبة » إلى جوار الابلة تلتحق هناك بالقوة التي سبق أن أفرزها المثنى في « الغضى » بقيادة جرير بن عبد الله العجلي لستر جناحه الايمن خشية تقدم الفرس من ذلك الاتجاه .

وصول سعد إلى شراف :

لبث المثنى في ذي قار ينتظر وصول سعد وقد وضع حاميات قوية في عدة مواضع حولها وهي « الجل » و« شراف » و« الغضي » .

ولما وصل سعد إلى « شراف » توفي المثنى متأثراً من الجرح القديم الذي اصيب به في معركة الجسر . وقد استخلف قبل وفاته على قيادة الجيش « بشير بن الخصاصية » . وقد كان اخوه المعنى في منطقة بكر بن وائل يحثهم على الولاء للقوات العربية ، فلما عاد إلى ذي قار وعلم بوفاة أخيه استصحب ارملته « سلمى » ، وذهب إلى شراف حيث قابل سعداً وشرح له الموقف في العراق وحدثه عن القبائل الموالية وغير الموالية ، وانقسام الفرس وأنباء تحشدهم ، وبلغه بوصية المثنى التي ورد بها ألا يقاتل الفرس إذا اجتمع امرهم وألا يقتحم عليهم عقر دارهم وأن يقاتلهم على حدود ارضهم . تزوج سعد « سلمى » ، زوجة المثنى ، وكان مثل هذا الزواج من بعض عادات العرب تكريماً لذكرى الزعيم الراحل وإكراماً لارملته حتى تظل في مثل عزها وكرامتها اللتين كانت تحياهما في حياة زوجها الأول .

موقف الطرفين

موقف الجيش العربي :

كان عمر على علم بحركات جيش سعد وتنقلاته بواسطة الرسائل التي كان يرسلها إليه سعد من حين لآخر . وعندما أخبره بوصوله إلى شراف اصدر اليه أمره بالتقدم إلى القادسية وقبول المعركة فيها . وجاء في هذا الأمر ما يلي :

« إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس ، وعرف عليهم وأمر على أجنادهم ، وعبئهم ، وأمر رؤساء المسلمين فيشهدوا ، وقدرهم وهم شهود ، ثم وجههم إلى اصحابهم وواعدهم بالقادسية واضمم اليك المغيرة بن شعبة في خيله . واكتب إلي بالذي يستقر عليه امرهم »[1] .

(والمقصود بهذا الأمر : عشر الناس (اجعلهم عشرة اعشار وعرف عليهم اجعل لكل عشرة عريفاً وامر على اجنادهم : عين امراء للجند اي لكل الف امراً) .

استدعى سعد قادته وشاورهم بالأمر وقسم قطعاته إلى حضائر تتألف كل حضيرة من عشرة رجال وكانت الحضائر تعرف بذلك الوقت « بالعرافات » . وجعل على كل عرافة عريفاً . ثم نظم منهم كتائب عين لكل منها قائداً ثم قسمهم إلى طليعة وميمنة وميسرة وقلب وساقة وأمر على كل منها أميراً[2] واستدعى المغيرة وقوته من الآبلة .

وقد عين كل من . خالد بن عرفطة ، نائباً للقائد العام ،
زهرة بن عبد الله بن الحوية ، قائداً للمقدمة ،
شرحبيل بن السمط ، قائداً للميسرة ،
عبد الله بن المعتم ، قائداً للميمنة ،

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٨٨ طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٢ .
(٢) الطبري ج ٣ ص ٤٨٨ .

عاصم بن عمر التميمي ، قائداً للسافة ،

سواد بن مالك التميمي ، قائداً للطلائع ،

سلمان بن ربيعة الباهلي ، قائداً للمجردة ،

حماد بن مالك الاسدي ، قائداً للمشاة ،

عبد الله بن ذي السهمين ، قائداً على الركبان (وهي الابل التي تحمل الشؤون الادارية للجيش من خيام وغذاء وماء وكساء وغيرها) .

كما عين : زياد بن أبي سفيان ، كاتباً أول للجيش ،

عبد الرحمن بن ربيعة ، للقضاء وتوزيع الفيء على الجند ،

سلمان الفارسي ، رائداً وداعية ، مهمته جمع المعلومات وبث الاراجيف في صفوف الفرس ومنصبه يقابل اليوم منصب رئيس شعبة استخبارات الجيش .

وقبل حركة الجيش بعث الخليفة إلى سعد رسالة اخرى ورد فيها :

« إذا بلغت القادسية ، والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي اجمع تلك الأبواب لمادتهم ، وهو منزل رغيب خصيب ، حصين ، دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك (معسكراتك) على أنقابها ويكون الناس بين المجر والمدر »[1] .

تحرك سعد من شراف باتجاه العذيب وهي من مسالح الفرس الحصينة ذات بروج منيعة . وعندما وصلتها طلائعه توقفت حتى التحق بها سعد فقام باستطلاع المنطقة لوضع خطة لاحتلالها إلا أنه تبين اثناء الاستطلاع أن الفرس قد اخلوا المدينة فتقدم العرب ودخلوها وعسكروا فيها . ومنها اخذ سعد يرسل المفارز والسرايا لاستطلاع أماكن الفرس وبث الرعب في نفوس أصحاب القرى المجاورة وجمع المواشي والطعام لتموين جيشه .

وفي العذيب جاءته من الخليفة وصايا حركات جديدة جاء فيها :

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٩١ .

« أما بعد . فإني آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله افضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحروب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وألا ننصر عليهم بفضلنا إن لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله ، وانتم في سبيل الله ، ولا تقولوا أن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن سأنا ، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني اسرائيل ، لما عملوا بمساخط الله ، كفار المجوس (فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً) . واسألوا الله العون على انفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، اسأل الله ذلك لنا ولكم ، وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم ، ترفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم فانهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامى الانفس الكراع (الخيل) ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة تكون لهم راحة ، يحيون فيها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وامتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ احداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولا تنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك امرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وأن صدقك في بعضه ،

والغـاش عين عليـك ، وليس عيناً لـك ، وليكن منـك عنـد دنـوك من أرض العـدو ان تكثر الـطلائـع وتبث السـرايـا بينـك وبينهم ، فتقـطع السـرايا امـدادهم ومرافقهم وتتبـع الطلائـع عوراتهم ، وانتق للطلائـع أأهل الرأي والبأس من اصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فـإن لقوا عـدوا ، كان أول من تلقـاهم القوة من رأيـك ، واجعل امـر السـرايـا وأمرك اكثر مما حبيت به خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سريـة في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية ، فإذا عـانيت العدو ، فـاضمم اليك أقاصيك وطلائعك ، وسراياك ، واجمع اليك مكيدتـك وقوتـك ، ثم لا تعاجلهم المنازلة ، ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقـاتله ، وتعرف الأرض كلهـا كمعرفـة اهلهـا بهـا ، فتصنـع بعـدوك كصنعـه بـك ، ثم اذك احـراسـك عـلى عسكـرك ، وتيقظ من البيـات جهدك ، ولا تؤت بأسير ليس له عقد الا ضربت عنقه ، لترهـب عـدو الله وعـدوك . والله ولي أمـرك ، ومن معـك ، وولي النصـر لكم عـلى عدوكم والله المستعان » .

تحرك الجيش العربي من العذيب بعد أن ترك فيها النساء والاطفال الـذين استصحبهم المقاتلون معهم من المدينة وترك سعد فيها حـامية بقيـادة « غالـب بن عبد الله الليثي » .

وصل الجيش الى القادسيـة فنزل سعـد بحصن « قديس » ووزع قـواته في أطرافه . وكانت هذه المنطقة واقعة بين نهر العتيق وخندق « سابور » . ويمتد هذا الخندق من هيت حتى الكاظمة على الخليـج ، حفره سـابور وأقـام عليه المسـالح ليحمي ملكه من عرب البادية[1] . وبعد استطلاع المنطقة وجـد قنطرة عـلى نهر العتيق فأرسل قـوة بقيادة « زهـرة بن الحوية» عسكرت في منـطقة القنـطرة لتمنع دوريات الفرس من العبور والغارة على معسكراته في القادسيـة ، ثم اخذ يـرسل

(١) « تاريخ الأمم الاسلامية » محمد الخضري ج ١ ص ٢٠٦ .

الدوريات باتجاه الحيرة وغيرها من القرى تجمع له المعلومات عن تحركات الجيش الفارسي . وبعث بالسرايا لتقوم بالغارات إلى النجف والفراض[1] ومنازل القبائل المنتشرة في السواد يستاقون منها الدواب والماشية والغلال وألوان الطعام لجيشه .

موقف الجيش الفارسي :

أما الفرس فقد أعلنوا النفير ، وشرعوا بجمع قواتهم ، كما سبق ذكره ولما علموا بتقدم سعد اخذوا يحرضون أهل المدن والقرى التي سبق أن اعلنت ولاءها للعرب في زمن خالد والمثنى على الانضمام اليهم .

ولما شعر « يزدجرد » بدنو الخطر عين « رستم » قائداً عاماً للجيش وأمره بالتقدم لصد زحف العرب . إلا أن « رستم » تردد وتلكأ ، وبعد ضغط شديد من قبل الملك والقواد تقدم إلى ساباط . ولما علم سعد بوصول الجيش الفارسي اليها كتب الى عمر يخبره بذلك ، وإنه ينتظر عدوه في القادسية وفقاً للخطة المتفق عليها . فكتب إليه عمر يشجعه وطلب اليه ارسال وفد إلى « يزدجرد يدعوه إلى الإسلام .

إنتخب سعد وفداً من اربعة عشر شخصاً هم النعمان بن مقرن وعاصم بن عمرو والمغيرة بن شعبة والمعني بن حارثة وعمرو بن معدي كرب ويسر بن أبي رهم وحنضلة بن الربيع وفرات بن حيان ، وعدي بن سهيل ، وعطارد بن حاجب ، والاشعث بن قيس ، والحارث بن حسان وحملة بن جوية والمغيرة بن زرارة ، وأمرهم أن يدعوا يزدجرد الى الإسلام فإن أبي فالجزية ، والا فالحرب . ولقد ترأس النعمان بن مقرن المزني هذا الوفد

استقبل « يزدجرد » الوفد في قصره بالمدائن ووجه إليهم السؤال التالي :

---

(١) الفراض : جمع فرضة ، وهي هنا ثغور الخاصة من الناحية الاخرى .

« ما الذي اقدمكم هذه البلاد ؟. اتراكم اجترأتم علينا لما تشاغلت بأنفسنا » .

فشرح له النعمان المهمة التي جاءوا من أجلها ، ودعاه إلى اعتناق الإسلام ، ثم قال له : « فإن أبيتم فالجزية ، فإن ابيتم فالمناجزة » .

اغتاظ يزدجرد وتكلم بكلمات بذيئة بحق العرب منافياً كل عرف وتقليد عسكري . فنهض المغيرة بن شعبة وتكلم بجرأة وحماسة ، إلى أن قال :

« اختر : إن شئت الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تسلم فتنجي نفسك » .

اشتد غضب يزدجرد وفقد أعصابه وأراد أن يأمر بقتل الوفد ، إلا أن اصحابه اشاروا عليه بأن ذلك مناف للقوانين الحربية ونتيجتها ستكون وبالا عليهم وعلى أسراهم لدى العرب . فأمر أحد مرافقيه أن يجلب حمل من التراب وقال : احملوه على اشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . ثم التفت إلى الوفد وقال :

« ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ، ثم أورد بلادكم حتى اشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور »[1] .

قام عاصم بن عمرو فحمل التراب على كتفه وهو يقول : « أنا اشرفهم ، أنا سيد هؤلاء » . مع العلم أنه لم يكن اشرف القوم بل أراد أن ينقذ اشراف العرب من الذل الذي أراده لهم يزدجرد . ولم يدر هذا الكسرى ما يخبىء له

---

(١) وسابور هذا أحد ملوك الفرس اغاظة اغارة عرب البحرين على اقليم فارس فسار اليهم بجيش لجب وأجلاهم عنها وهاجم البحرين وفتك بأهلها ثم سار إلى هجر ففتك بعرب بكر بن وائل وتميم وعبد القيس ، ثم سار إلى اليمامة وقتل اهلها ومنها إلى منطقة عشائر بكر وتغلب وقتل عدداً كبيراً منهم .

القدر وكيف سيزول ملكه على أيدي هؤلاء الابطال ويصبح شريداً طريداً .

أصدر يزدجرد أمره إلى رستم بـالحركـة من سابـاط الى القادسيـة . فتقدم هذا بتشكيل المعركة .

فكان الجالينـوس في المقدمـة ومعه ٤٠ ألف مقـاتل . ورستم في القلب . والهـرمزان عـلى الميمنة . ومهـران بن بهـرام عـلى الميسـرة . وذو الحـاجب بهمن جاذويه يقود المجردة . وأفرز ساقـة تسير خلف الجيش تعـدادها ٢٠ الف مقـاتل بقيادة البيرزان . وبلغ تعداد هذا الجيش ١٠٠ الف مقاتل وبعض المصادر تقول ١٢٠ الف .

وقبل مغادرة رستم ساباط كتب الى أخيه البندوان يقول :

« أمـا بعد فـرموا حصـونكم واستعـدوا واعـدوا فكـأنكم بـالعـرب قـد قـارعـوكم عن أرضكم وابنـائكم ، وقـد كـان من رأيي مـدافعتهم ومطاولتهم حتى تنقلب سعودهم نحوساً » .

وصل الجيش الفارسي إلى الحيرة وكان تقدمه بـطيئاً جـداً حتى أنه لم يبلغ القادسية إلا بعد أربعة اشهر من بدء حركته من المدائن لم تقع خلالها أية معركـة كبيرة عدا ما كانت تقوم به دوريات الطرفين من مناوشات طفيفة . وكان غرض رستم من هذا التأخير تعجيز العـرب وتقليل رغبتهم في القتـال ظناً منـه أن يهنوا إذا لم يجدوا ارزاقاً تكفيهم أو أن يسأموا طول المقام فيعودوا الى بلادهم .

ولما وصل الفـرس القادسيـة كان يتقـدمهم ثلاثـة وثلاثـون فيلاً بينهـا فيل سابور الابيض الـذي كانت سـائر الفيلة تـألفه وتتبعـه ، فعسكروا أمـام الجيش العربي وكان نهر العتيق يفصل بين الجيشين .

بعث رستم إلى سعد يطلب اليه إرسال أحد قادته للمفاوضة حول شروط الصلح والكف عن القتال .

أرسل سعد ربعي بن عامر . فخير هذا الفرس بين الإسلام أو الجزية ، أو القتال . ولما رأى رستم تعنته طلب ارسال غيره ، فذهب اليه حذيفة بن مسلم وقال له ما قاله ربعي ، فطلب رستم ارسال شخص ثالث ، فذهب إليه المغيرة بن شعبة وسمع منه نفس الكلام ، إلا أن رستم لم يقتنع ، فأرسل اليه سعد ستة قادة من ذوي الرأي فوقفوا الموقف نفسه . ولما فشلت كل محاولاته باغراء العرب بالمال والعودة من حيث أتوا، قرر خوض المعركة مهما كانت النتائج .

إن تردد القائد الفارسي وتخوفه وخور معنوياته وبطء حركته افقدته الروح التعرضية والمبادأة . فسمح للعرب اكمال تحشدهم واستعداداتهم والتهيؤ لقبول المعركة في الأرض المنتخبة .

قوات الطرفين

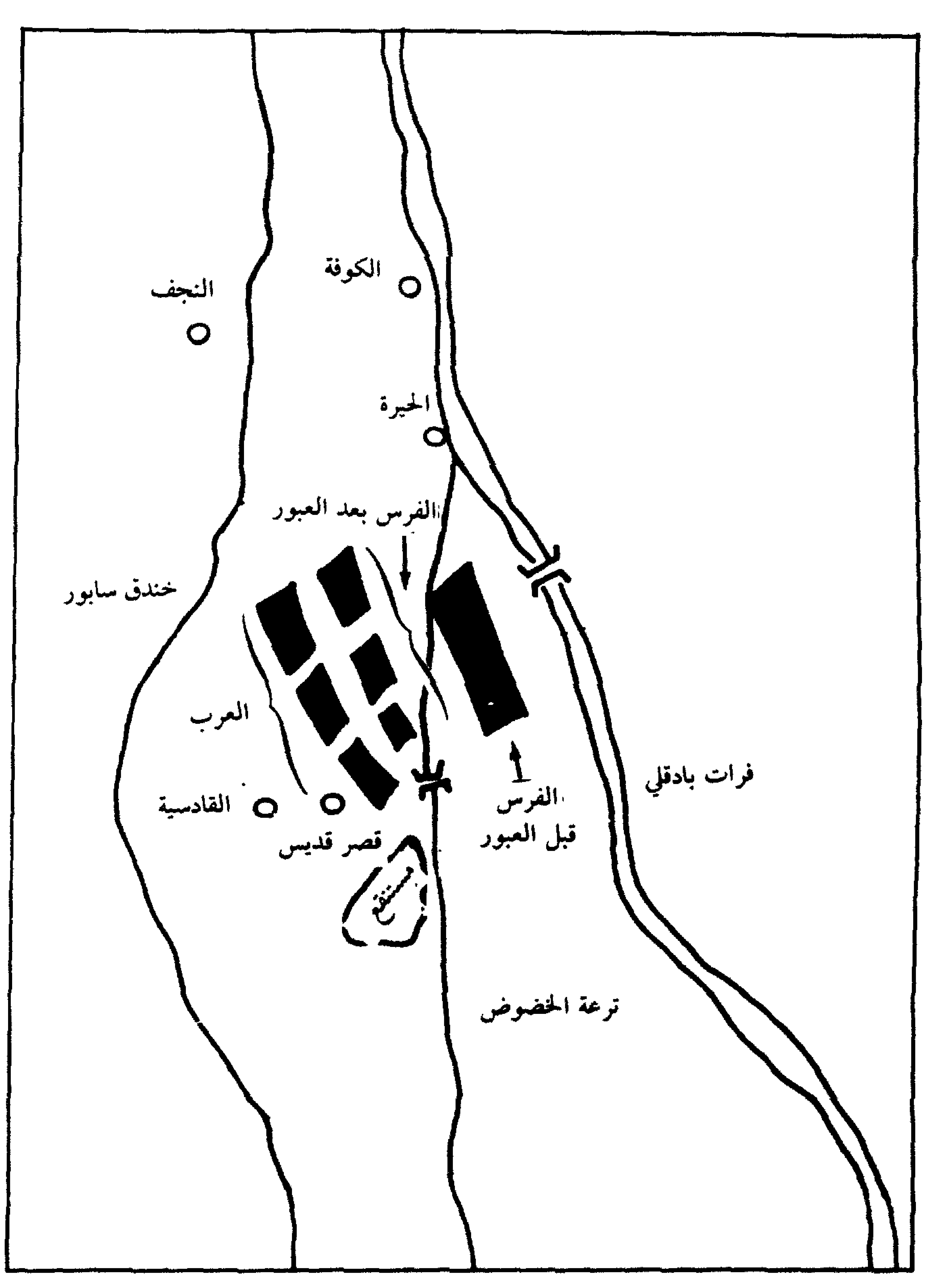
الجيش العربي :

كان الجيش العربي يتألف من :

١ ـ قوة المثنى بن الحارثة الشيباني وقد تسلم قيادتها بعد وفاته بشير بن الخصاصية وتعدادها ٨٠٠٠ مقاتل مؤلفة من ثمانية كتائب وهي : كتيبة المعنى وكتيبة جرير وكتيبة عصمة وكتيبة غالب وكتيبة عرفجة الاسدي وكتيبة هلال الربابي وكتيبة المثنى الجشمي وكتيبة شيت الحنظلي .

٢ ـ الجيش الذي جاء مع سعد من المدينة وكان يتألف من سبعة فرق مجموعها عشرون ألف مقاتل وهي :

فرقة الاشعث بن قيس ، وفرقة خميصة البارقي ، وفرقة شداد الحضرمي ، وفرقة عمر بن معدي كرب ، وفرقة يزيد الحارث ، وفرقة بشير الهلالي ، وفرقة شرحبيل الكندي .



مخطط رقم (٢)
معركة القادسية

٣ ـ القوة المرسلة من الشام بقيادة هاشم بن عتبة وتعدادها ستة آلاف رجل وهي لا تزال في طريقها الى القادسية وكانت طلائعها على وشك الوصول بقيادة القعقاع بن عمر التميمي وهي من ألف رجل .

الجيش الفارسي :

وكان يتألف من ١٠٠ إلى ١٢٠ ألف مقاتل بقيادة رستم ويتألف من ثلاثة فيالق : فيلق الجالينوس ، وفيلق الهرمزان ، وفيلق مهران .

وصف أرض المعركة (راجع المخطط رقم ٢) :

كانت أرض القادسية يحف بها من الشرق خور من الفرات يسمى ترعة « الخضوض » أو (العتيق) ، ويحيط بها من الغرب خندق سابور وهو إذ ذاك غدير حفر لحماية أرض السواد من عرب البادية وقد أقيم عليه عدد من المسالح لهذه الغاية . وكان يحمي ميمنة المسلمين مستنقع كبير . أما ظهرهم فكانت تحميه الصحراء وخندق سابور .

وقد وصفها سعد بأحد الكتب التي ارسلها إلى الخليفة كما يلي :

« إن القادسية بين الخندق والعتيق ، وأن ما عن يسار القادسية بحر اخضر في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين : أما احدهما فعلى الظهرة ، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى « الخضوض » يطلع بمن يسلكه بين الخورنق والحيرة . وإن ما عن يسار القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم » .

المعركة : محرم سنة ١٤هـ ، ايار ، مايو ، ٦٣٧م .

قرر سعد قبول المعركة بين نهر العتيق وخندق سابور لذلك لم يتحرك من محله وسيطر على القنطرة المنصوبة على العتيق بواسطة مفرزة زهرة بن الحوية التي سبق أن وضعها قربها .

عندما وصل الفرس إلى العتيق بعث رستم إلى سعد يقول : « أما ان تعبروا الينا وأما أن نعبر إليكم » فأجابه سعد أن « أعبر أنت » .

فأراد العبور من القنطرة فنهاهم سعد قائلاً : « لا ولا كرامة ، هذا شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده إليكم » .

استفاد الفرس من ظلام الليل فردموا جزءاً من العتيق ووضعوا فيه القصب والرمل والبراذع ليعبروا عليه في الصباح .

وفي الصباح عبر الفرس الى الجهة الثانية من العتيق على الردم الذي أقاموه ليلاً ونظموا أنفسهم بتشكيل المعركة :

الميمنة : تتألف من جيش الاهواز بقيادة (الهرمزان) وفيه ١٤ ألف فارس و١٤ الف راجل وسبعة افيال .

القلب : ويتألف من ثلاثة جيوش

جيش الباب بقيادة (الجالنوس) ويتألف من ١٢ الف فارس و١٢ الف راجل وستة افيال .

جيش همدان بقيادة (بهمن جاذويه) ويتألف من ١٠ آلاف فارس و١٠ آلاف راجل وستة أفيال .

جيش نهاوند بقيادة (البيرزان) ويتألف من ١٢ الف فارس و٢ الف راجل وستة افيال .

الميسرة : وتتألف من جيش الري بقيادة (مهران) وفيها ١٢ الف فارس و ١٢ الف راجل مع ثمانية افيال .

وكانت الفيلة تحمل صناديق خشبية في كل منها عشرين رجلاً . وجلس رستم على سريره خلف جيش بهمن وقد نصبت له مظلة كبيرة ، ورفع على يمينه علم الفرس الكبير (درفش كابيان) .

أما الجيش العربي فقد نظم صفوفه غربي القنطرة على الغرار نفسه ، ميمنة ـ ميسرة ـ قلب .

وكان كل قسم معبأ بثلاثة صفوف[1] :

في الصف الأول : الفرسان .

في الصف الثاني : المشاة اصحاب الرماح والسيوف .

في الصف الثالث : الرماة حملة السهام والنبل .

وكان الفرسان يقفون في الأمام وإلى الجانبين لتمكين الرماة من مزاولة اعمالهم وللقيام بحماية الجانبين .

وكانت هذه الصفوف تبدأ من أصل حائط قديس ، وهو القصر الذي كان يشرف من فوقه سعد على الجند وعلى المعركة لأنه اصيب بدمامل كانت تعوق حركته وقد استناب عنه نائبه خالد بن عرفطة . ثم دعا القادة وطلب اليهم أن يحفزوا جنودهم على القتال ويشدوا من عزائمهم . ولقد استنكر بعض الناس تولي خالد القيادة فأمر سعدبحبسهم وكان من جملتهم ابو محجن الثقفي . ثم امر بعض قادته بالمرور على القطعات وحثها على القتال ورفع معنوياتها وكان من ضمنهم عاصم بن عمرو وقيس بن هبيرة ويسر بن ابي رهم والهذيل الاسدي وربعي بن عامر والمغيرة وحذيفة وعمر بن معدي كرب ومن الشعراء الشماخ والحطيئة واوس بن مغراء وعبده بن الطبيب .

بدأت المعركة مبارزة بالسيوف جريا على العادة التي كانت متبعة في ذلك الوقت ، وكان سعد بن أبي وقاص قد اتفق مع قادة جيشه على اشارة البدء بالمعركة وهي أربع تكبيرات حيث قال : « إذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ، فإذا كبرت الثانية فتهيئوا ، فإذا كبرت الثالثة فشدوا النواجز على الاضراس واحملوا » .

في التكبيرة الثالثة بدأت المبارزة بالسيوف كما سبق ان ذكرنا ولما كبر الرابعة وهي علامة الهجوم العام كانت الصدمة الهائلة . فتقدم الفرسان إلى

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٥٩ .

الفرسان ودارت رحى الحرب تطحن الرجال واستمرت المعركة أربعة أيام سميت بيوم أرماث ، وأغواث ، واعماس ، والقادسية .

١ ـ يوم ارماث :

عندما التقى الجيشان أبلى ابطال المسلمين بلاء فاق حدود التصور . وقد كان هؤلاء الأبطال يقدرون كبر جيش فارس وعزيمته لذلك قرروا خوض المعركة بعزيمة أشد وبسالة لا تعرف رحمة أو شفقة . ولما رأى الفرس شدة بأس العرب ومعنوياتهم العالية واقدامهم ، قرروا تحطيم هذا الاقدام وخفض هذه الروح المعنوية ، فوجهوا ثلاثة عشر فيلا على أشد العرب حماسة للقتال وهم بني بجيلة الذين كان يقودهم جرير بن عبد الله ، ففرت خيلهم انفاراً وبقي الرجال والفيلة تكاد تبيدهم .

ولما رأى سعد ما حل بهم ، طلب من بني أسد التقدم لنجدتهم ، فتقدموا بقيادة طليحة بن خويلد واستبسلوا بالقتال حتى تمكنوا من عزل الفيلة عن الفرس . إلا أن الفيلة عادت فحملت عليهم ، فأمر سعد قبيلة بني تميم بقيادة عاصم بن عمرو انقاذ الموقف .

أمر عاصم جنده « أن يذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وليستدبروا الفيلة وليقطعوا وضنها » . فعملت الكتيبة ما أمرهم به ، فاستدبروا الفيلة ورموها بالنبل فارتفع عواؤها والقت بركابها فقُتلوا وأنفذت بجيلة واسد بعد أن فقدت أسد وحدها زهاء ٥٠٠ قتيل من خيرة رجالها . وانقضي نهار ذلك اليوم والقتال لا يزال حامي الوطيس . وبعد الغروب بقليل رجع الجيشان كل إلى مواقعه يستعدان لمواصلة القتال في صباح اليوم الثاني . وقد سميت هذه الليلة بليلة « الهدأة » .

ومن طريف ما يذكر أن سلمى زوجة سعد كانت واقفة بجواره تشاهد المعركة . ولما رأت الفرس يفتكون بفتيان بني أسد ، جزعت وصاحت : « وامثنياه ! ولا مثنى للخيل بعد اليوم » . ـ ولا ننسى أنها كانت زوجة المثنى قبل

سعد - . وقد أثار كلامها سعداً فلطمها وقال : « أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى » . ولم تطأطىء اللطمة من رأس العربية الانوف بل قالت له : « أغيرة وجبنا » فخجل سعد وقال : « والله لا يعذرني اليوم أحد أن تعذريني وانت ترين ما بي » .

ولقد فقدت (اسد) في ذلك اليوم (٥٠٠) رجل .

٢ - يوم اغواث :

في صبيحة اليوم الثاني تفقد العرب ساحة المعركة ، وكذلك فعل الفرس . فنقلت مفارز الطرفين الصحية القتلى والجرحى إلى الخلف . ولقد دفن العرب قتلاهم في واد قريب من العذيب ونقلوا الجرحى لتقوم النساء بتمريضهم والعناية بهم . وبينما كانوا منهمكين في دفن الشهداء ، ظهرت طلائع كتيبة الخيالة التي أرسلها أبو عبيدة من الشام ، وكانت هذه الكتيبة هي كتيبة القعقاع بن عمرو ، وعددها ١٠٠٠ رجل كانت تسير كمقدمة لفرقة هاشم بن عتبة . وقبل وصولها ميدان المعركة قسمها القعقاع إلى عشر سرايا كل منها مؤلفة من ١٠٠ فارس وأمرها أن تتقدم سرية بعد أخرى ، وأن تكون المسافة بينهم مدى البصر ، وذلك ليوهم الفرس بأن النجدة الآتية كثيرة العدد .

وكان القعقاع أول الواصلين إلى الميدان ، إذ وصله قبل استئناف القتال فسلم على القوم وبشرهم بالمدد . وقد سبق للقعقاع أن قاتل في العراق برفقة خالد بن الوليد وسار معه إلى الشام ، لذلك كان خبيراً بأساليب قتال وتعبئة الفرس . وبعد استراحة قليلة تقدم القعقاع الصفوف وطلب المبارزة فتقدم اليه ذو الحاجب بهمن جاذويه ، فصاح القعقاع : يا لثارات ابي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر ، وكان هذان القائدان وصحبهما قد استشهدا في معركة الجسر ، فحمل عليه وأراده قتيلاً . وكانت سرايا القعقاع تصل تترى تقوي معنوية العرب فزاد حماسهم وتقدموا بهجوم كاسح مزق صفوف الفرس شر ممزق ، وقد ساعدهم على النجاح عدم اشتراك الفيلة بالقتال ، لأن الفرس كانوا

منهمكين باصلاح صناديقها التي تكسرت في معركة الامس .

دارت المعركة طوال نهار ذلك اليوم ، واستمرت في الليل حتى منتصفه ، ويقال أن العرب استخدموا في هذا اليوم الأبل بأن جللوها وبرقعوها ودفعوها تحمل على الفرس كأنها الفيلة فولت خيلهم نفاراً من منظرها ، وكان تأثيرها عليهم كتأثير الفيلة على العرب في اليوم الأول . ولقد ابتكر القعقاع بن عمرو التميمي هذه الطريقة .

وفي منتصف الليل عاد الفريقان إلى مواقعهما يستعدان لمعركة اليوم الثالث . ولقد سميت هذه الليلة « بليلة السواد » .

وفي الليل سحب القعقاع رجاله الى منطقة قريبة من القادسية وطلب اليهم أن يتقدموا إلى ميدان المعركة في الصباح سرية بعد أخرى على نحو ما فعلوا في الأمس ، فإن ادركهم هاشم بن عتبة فذاك ، وإلا جددوا للناس رجاء المدد ، فتتقوى معنوياتهم ويقدموا على القتال بحماس .

ومما يذكر في ليلة السواد أن ابو محجن الثقفي الذي حبسه سعد بعد اعتراضه على تعين خالد بن عرفطة صعد إلى سعد يسترضيه ويتوسل إليه أن يسمح له بالاشتراك في المعركة فأبىٰ سعد وامره بالنزول إلى محبسه . فذهب أبو محجن إلى سلمىٰ زوجة سعد وتوسل اليها أن تطلق سراحه وتسمح له بالاشتراك في المعركة فلم توافق فرجع إلى محبسه يرسف في قيوده ويقول :

كفى حزناً ان ترتدي الخيل بالقنا	واترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغُلقت	مصارع دوني قد تُصمُ المناديا
وقد كنت ذا مال كثير واخوةٍ	فقد تركوني واحداً لا اخاليا
وقد شف جسمي انني كل شارق	اعالج كبلاً مصمتاً قد برانيا
فلله دري يوم أترك مُوثقاً	ويذهل عني اثرتي ورجاليا
حُبسنا عن الحرب العوان وقد بدت	واعمال غيري يوم ذاك العواليا
فلله عهد لا اخيس بعهده	لئن فرجت ان لا ازور الحوانيا

فـرقت لحالـه سلمىٰ واطلقت سراحـه ولما طلب منهـا فرس سعـد البلقـاء ليقاتل عليها قالت له : اما الفرس فلا أعيرها . ولمـا عادت إلى بيتهـا اقتاد ابـو محجن الفرس وامتطاها والتحق بالميمنة حيث كان قومه بنـو ثقيف يقاتلون فكبـر وحمل على ميسرة الفرس وابـدىٰ من ضروب الفـروسية والقتـال ما اثـار اعجاب الجميع حتى سعد نفسـه اعجب به وقـال أن الفرس تشبـه البلقاء والمقـاتل يتبـع طريقة ابو محجن ولولا انه في السجن لخلته ابو محجن نفسه . وبعد انتهاء القتال عاد إلى سجنه فذهبت سلمىٰ إلى سعد واخبرته فعفىٰ عنه واطلق سراحه وسمح له بمواصلة القتال .

٣ ـ يوم اعماس :

في الصباح الباكر من هذا اليوم أخذ الطرفان يجمعان جرحاهما وقتـلاهما . وقد خسر المسلمون في المعركة الفي قتيل والفرس عشرة آلاف .

وحين طلعت الشمس وقف القعقاع في المؤخرة ينتظر قدوم أصحابه . ولما وصلت السرية الأولى منهم كان على رأسهـا هاشم بن عتبـة الذي وصـل وجيشه قبيل طلوع الفجر ، وقد فعل مـا فعله القعقاع فقسم جنـوده إلى سرايـا وأمر أن تتقدم السرايا الواحدة بعد الاخرى وبمسافـات كبيرة بينهـا . فلما رآه الناس كبـر وكبروا معه واندفع الى القلب حتى بلغ النهر وهو يرمي العدو بالسهام ، ثم عـاد فكرر فعلتّه فلم يجرؤ أحد على مطاولته .

اشـرك الفرس في هـذا اليوم الفيلة بعـد أن تمكنوا من اصـلاح صناديقهـا واتخـذوا حيطتهم لكي لا يصنـع المسلمون بهـا مثلما صنعـوا في اليـوم الأول من المعركة فـأحاطـوها بفـرسان يحمـونها . إلا أن الفيلة فقدت خـواصها من جـراء تعودها على خيل الفرس فلذلك لم تؤذ خيل العرب أيضاً ، فدارت المعركة حول الفيلة وهي حيرى لا تدري من تضرب ، وظل القتـال سجالاً بـين الفريقـين ، وفي هـذه الاثناء وصلت للفـرس نجدة من المـدائن مؤلفـة من الحـرس الخـاص

للملك « يزدجرد » ، فاشترك في القتال ، إلا أن ذلك لم يؤثر على معنوية العرب .

ولما اشتد القتال وألفت الفيلة الموقف كان ركابها يسوقونها إلى صفوف العرب ، فأخذت تفتك بهم مثلما فعلته في اليوم الأول .

ولما رأى سعد سوء الموقف نتيجة حملة الفيلة سأل بعض اسرى الفرس الذين دخلوا الدين الإسلامي عن نقاط الضعف فيها ، فقالوا : عليك بمشافرها وعيونها .

أمر سعد القعقاع وعاصم بن عمرو بالهجوم على الفيل الأبيض وحمال والربيل بالهجوم على الفيل الاجرب[1] . وكان هذان الفيلان اشد الفيلة ضراوة والفيلة كلها تتبعهما . فترجل الفرسان الأربعة وتقدموا نحو الفيلين فوضعوا رماحهم في عيونهما فأصابوها اصابة بالغة فطرحوا من عليها وولوا الأدبار . وكان الفيل الأجرب يركض تارة بين صفوف العرب واخرى بين صفوف الفرس وهو يصيح صياح الخنزير ، ثم اندفع ووثب في النهر وتبعته باقي الفيلة بعد أن القت ركابها من فوق ظهورها وعبرت النهر هاربة لا تلوي على شيء ، وعند عبورها نهر العتيق ارتفعت معنويات العرب فحملوا على الفرس ، وكان القتال مريراً لأن الفرس بالرغم من فقدانهم الفيلة كانت معنوياتهم لا تزال عالية ، واستمر القتال دون توقف حتى أقبل الظلام .

وخشي سعد أن يستغل الفرس ظلام الليل ويلتفوا حول جيشه من الجنوب مستخدمين مخاضة في نهر العتيق من ذلك الاتجاه ، فأرسل طليحة وعمراً في سرية من الجيش لحمايتها ومنع الفرس من مباغتة الجيش العربي والاحاطة به من الخلف وأمرهم ألا يغادروا مراكزهم في المخاضة إلا بأمر منه . وكان القتال قد هدأ وتهيأ الطرفان للرجوع الى معسكراتهم . ولما وصلت السرية إلى المخاضة

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٥٥ .

ولم تجد الفرس قرر قائداها الالتفاف على الفرس ومباغتتهم من الخلف . فانقسمت السرية إلى قسمين : قاد الأول طليحة وعبر العتيق وسار إلى الشمال حتى وصل الردم الذي اقامه الفرس على النهر ، وكبر فارتاع الفرس وظنوا أن جيشاً كبيراً هاجمهم من الخلف ، وتعجب العرب وظنوا أن الفرس فتكوا برجال المفرزة . أما القسم الثاني من السرية بقيادة عمر فقد أغار على جماعة من الفرس قرب المخاضة ، وأدت هذه المباغتة إلى أن يجمع الفرس صفوفهم ويزحفوا لتخليص اخوانهم ، ولما رأى ذلك القعقاع زاحفهم من غير اذن سعد وتبعه بنو اسد والنخع وبجيلة وكندة ثم لحقهم باقي الجيش . فالتحم الجيشان بمعركة ليلية ضارية وظلوا يتقاتلون بضراوة حتى الصباح ، وقد أصاب الطرفين التعب والاجهاد نتيجة هذه المعركة التي استمرت ٢٤ ساعة . وسميت هذه الليلة « ليلة الهرير » .

٤ ـ يوم القادسية :

أخذ القعقاع يشجع الجنود ويحرضهم على مواصلة القتال قائلاً لهم : أن النصر اصبح قريباً وهو سيكون حليف الفريق الذي يصبر ، وكان يصيح :

« إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا . فإن النصر مع الصبر » . فحمل العرب واشتد القتال حتى جاء الظهر ، عند ذلك بدأت صفوف الفرس تضطرب خاصة بالاجنحة حيث تراجع « البيرزان » و« الهرمزان » وبقي القلب صامداً وحده .

وفي هذه اللحظة هبت ريح دبور عاصف وأطارت مظلة « رستم » عن سريره وهوت بالعتيق فزحف القعقاع بمن معه إلى السرير فهرب رستم واحتمى بظل بغل من بغال الحمل التي وصلت إلى الميدان ، وقد ضرب هلال بن علقمة هذا البغل بسيفه وقطع حباله وهو لا يعلم أن رستم تحته فوقع الحمل على رستم وكسر ظهره فزحف وألقى بنفسه في النهر ، فرآه هلال وعرفه فاقتحم النهر وراءه وقتله ثم عاد وصعد على سريره وهو يصيح :

« قتلت رستم ورب الكعبة ، إلي إليّ » . فتجمع الجند حوله وهم يكبرون . ولما علم الفرس بمقتل قائدهم وهنت قوتهم وخارت عزيمتهم وتحطمت معنوياتهم ، فتولى الجالينوس القيادة وأمر القلب بالانسحاب الى خلف النهر معقباً الميمنة والميسرة التي سبق لها الانسحاب . ولما وصلوا محل الردم انهار بهم في النهر فتدافع التيار المحصور وجرف عدداً كبيراً منهم . وقد استولى ضرار بن الخطاب على علم الفرس الأكبر ، « الدرفش كابيان » .

أمر سعد القعقاع بالمطاردة ، فتقدمت كتيبته تفتك بكل من تصادفه في طريقها ثم تبعته كتيبة زهرة التميمي فلحق هذا بالجالينوس وقتله ، وبمقتله استسلم عدد كبير من جيشه .

خسر المسلمون في معركة الأيام الثلاثة حوالي ٨٥٠٠ قتيل . أما قتلى الفرس فقد زادت على الأربعين ألف قتيل عدا الاسرى الذين لا يحصى لهم عدد . واستولى العرب على أموال وذخائر كبيرة ، ولما قسم سعد الفيء فيهم بلغ ما أصاب الفارس ستة آلاف ، والراجل الفين .

ولقد انتهت المعركة بنصر حاسم وفُتح الطريق أمام الجندي العربي إلى ايوان كسرى في عاصمة ملكه المغتصبة ، المدائن ، تلك العاصمة التي أشادها في قلب العراق العربي ، ومهدت هذه المعركة السبيل لتقويض دولة الفرس والقضاء على سلطانهم ، وكانت الفاتحة لتحرير عرب العراق من الاستعباد .

الزحف نحو المدائن[1] .

أقام سعد في القادسية بعد انتهاء المعركة مدة شهرين اعاد خلالها تنظيم قواته ، ثم استأذن الخليفة بالتقدم نحو المدائن ، فأذن له . وفي أواخر شوال سنة ١٥هـ تحرك الجيش العربي تتقدمه مقدمة بقيادة « زهرة بن الحوية »

---

(١) وهي « طيسفون » وتسمى اليوم « المدائن» وقد اتخذها الساسانيون عاصمة لهم في القرن الثاني للميلاد .

اصطدمت بعناصر من الفرس قرب « البرس » وانتصرت عليهم ثم واصلت التقدم نحو بابل فعبروا النهر اليها على جسر نصبه حاكم البرس الفارسي الذي استسلم إلى زهرة .

استولى زهرة على بابل و« كوثى » واستمر بالتقدم حتى وصل « بهر شير » وهي حي من أحياء المدائن ، وتقع في الضفة الغربية لنهر دجلة أمام المدائن الكائنة في ضفته الشرقية ، فطوقها منتظراً وصول القسم الاكبر . ولما وصل سعد نصب حولها ٢٠ منجنيقاً أخذ يقذف بواسطتها حمم الحجارة . وبعد حصار استمر تسعة اشهر هرب أهل المدينة إلى الضفة الشرقية وسلموا مدينتهم بعد أن أحرقوا الجسر الواصل بينها وبين المدائن ، وجمعوا كافة الزوارق منها وسحبوها إلى الضفة الأخرى .

معركة المدائن :

كانت المدائن عاصمة الفرس تتألف من عدة مدن متجاورة تقع على ضفتي نهر دجلة . إذ كان من عادة ملوك الفرس أن يبني كل منهم مدينة خاصة به . ولقد بلغ عدد هذه المدن السبع وهي : - بهرشير ، اسنانير ، جندي سابور ، درزيجان ، رومية ، نوينافان ، كسر ذافان .

لقد استولى الجيش العربي على بهرشير الواقعة على ضفة دجلة الغربية ، وأقام سعد فيها يرسم الخطط لعبور دجلة والاستيلاء على المدائن الواقعة في الضفة الشرقية . فاستطلع النهر استطلاعاً دقيقاً حتى عثر على مكان يمكن العبور منه دون اعطاء خسائر كبيرة . وكان هذا المكان في منعطف النهر جنوب المدائن ويتميز بأنه ضيق ومياهه غير عميقة ، وبعيد عن مركز تحشد القوات الفارسية المدافعة عن المدينة .

وبينما كان سعد يستعد للعبور انسحب يزدجرد من المدائن حاملاً أمواله وتوجه إلى حلوان ، وتبعه عدد كبير من أهل المدائن الفرس الذين توطنوها أبان فترة احتلالهم للعراق ، تاركاً حامية قوية تؤخر العرب فيها لأطول مدة ممكنة .

سمع سعد بانسحاب الفرس ، فقرر العبور بسرعة مستغلاً انخفاض مستوى الماء في النهر لأن الموسم كان صيفاً تقل فيه مياه النهر .

وقد جمع قادته وقال لهم : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه وهم يخلصون اليكم متى شاءوا فينا ، وشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه فقد كفاكموه اهل الأيام[1] وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم » .

وبعد دراسة للموقف وافق القادة كافة على العبور بسرعة .

خطة العبور :

١ ـ تعبر كتيبة عاصم بن عمرو وكانت تسمى كتيبة الأهوال وهي مؤلفة من ٦٠٠ فارس إلى الضفة الغربية الشرقية خوضاً وسباحة وتؤسس رأس جسر فيها، وتطرد الفرس بعيداً عنها حتى لا يؤثروا على بقية الجيش العابر .

٢ ـ تعقبها مباشرة في الموجة الثانية كتيبة القعقاع المسماة بالخرساء .

٣ ـ بعد تأسيس رأس الجسر وتوسيعه بالكتيبتين اعلاه والاستيلاء على زوارق الفرس في الضفة الشرقية يعبر باقي الجيش بقيادة سعد مستفيداً من الزوارق المستولى عليها .

ولقد اعتمد نجاح العبور على عنصر المباغتة حيث لم يتوقع الفرس عبور العرب بمثل هذه الطريقة .

العبور :

اختار عاصم ستين فارساً من كتيبته تقدموا في الموجة الاولى وقد قسمهم إلى

---

(١) أهل الايام: هم القوات العربية التي قاتلت الفرس في العراق قبل معركة القادسية مع المثنى وخالد بن الوليد.

قسمين بالنسبة إلى نوع الخيل فجعل الاناث لوحدها والذكور لوحدها .

كانت اول زمرة عبرت مؤلفة من : ـ أصم اليتم ، الكلج ، ابو مفرز ، شرحبيل ، حجل العجلي ، مالك بن كعب الهمداني ، غلام من بني الحارث .

ثم تبعهم باقي الستين ، ثم باقي كتيبة الأهوال ثم الكتيبة الخرساء .

ولما وصلت الموجة الأولى قرب ضفة النهر الشرقية هجمت عليها دوريات الفرس التي كانت تراقب النهر ، فدارت معركة ضارية في الماء انتصر فيها عاصم وتمكن من تأسيس رأس جسر قوي . وجمع الزوارق التي وجدها في هذه الضفة وأرسلها إلى بهرشير لنقل القسم الأكبر من الجيش . ولقد حاول قائد الفرس شهريار بن سابور القيام بهجوم مقابل لتحطيم رأس الجسر الذي أخذ عاصم يوسعه ، إلا أنه فشل خاصة بعد نجاح عبور الكتيبة الخرساء . وعندما تكامل عبور الجيش العربي تحطم هجوم شهريار وأخذ يتراجع تحت ضغط الموجات العربية وهجماتها الشديدة .

لم يصادف العرب اية مقاومة في المدائن حيث هرب الجيش واستسلمت المدينة . وقد استولى سعد على خزائن كسرى وكانت تقدر بالملايين . فوزع الفيء على الجند فأصاب الفارس ١٢ ألفاً والراجل ٤ آلاف وبعث بالاخماس إلى بيت المال في المدينة .

المطاردة إلى حلوان :

بعد فتح المدائن سير سعد جيشاً تعداده ١٢ الف مقاتل بقيادة هاشم بن عتبة لمطاردة الفرس وحدد لهم الوصول الى حدود العراق العربي وعدم التوغل داخل الأراضي الفارسية . ولقد قاد القعقاع مقدمة هذه القوة . وصل هاشم إلى جلولاء فرأى الفرس قد تحصنوا فيها واستعدوا للقتال فحاصرها مدة ثمانين يوماً ، وكانت المعارك تدور حول الأسوار حيث كان الفرس يخرجون منها ويشنون الغارات على العرب ، ولما يئسوا من فك الحصار قرروا الهجوم بمعظم قواتهم مستعذبين الموت في سبيل النصر . وكان يقودهم مهران وقد دارت معركة

حامية لا تقل هولاً عن معارك القادسية . استمر القتال حتى حلول الظلام ولما خارت عزيمة الفرس أرادوا العودة إلى حصونهم فسبقهم العرب إليها ومنعوهم من عبور الخندق إلى الحصن فتفرق شملهم وفروا إلى حلوان بعد أن خسروا عدداً كبيراً من القتلى .

تعقب القعقاع الفارين فلحقت طلائعه بمهران قائد الفرس في خانقين وقتله . وفر الفيروزان الذي كان ينتظر في خانقين الى حلوان وشرح ليزدجرد فداحة المصيبة التي حلت بهم في جلولاء ، فترك هذا حلوان إلى « الري » .

ولما وصل القعقاع إلى حلوان خرج إليه حماتها فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزموا أمامه ودخل المسلمون المدينة وضربوا الجزية على أهلها وعلى من حولها من الكور والأقاليم .

بعد هذه المعركة استأذن سعد الخليفة بمطاردة الفرس إلى عقر دارهم بعد أن تحرر العراق العربي منهم ، لكن عمر آثر الحذر فخالف بطل القادسية برأيه وكتب اليه يقول :

« وددت لو أن بين السواد والجبل سدا لا يخلصون إلينا ولا نخلص اليهم . حسبنا من الريف السواد ، اني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » .

تمت معارك التحرير في العراق بنصر باهر للعرب تحققت بنتيجته آمالهم القومية بتحرير هذا الجزء العربي من الاستعمار الفارسي ، والدينية بنشر الإسلام في ربوعه وإبعاد الخطر الفارسي عن حدود الجزيرة العربية .

لقد تجلت في معركة القادسية عظمة الروح المعنوية التي غرسها الإسلام في نفوس العرب . فكانوا يحاربون عن عقيدة وإيمان بقضية عادلة ، عكس الفرس الذين لا هدف لهم أو عقيدة يحاربون من أجلها . كما تجلت فيها روعة القيادة العربية التي تمثلت بالقائد العام سعد بن أبي وقاص وقادته الآخرين من

أمثال هاشم بن عتبة وزهرة بن الحوية والقعقاع وعاصم . فبرزت هذه بصورة واضحة بانتخاب سعد لأرض المعركة وإجبار رستم على قبول المعركة فيها . ولا شك أن التفوق بالقيادة والمعنويات كان ولا يزال من العوامل التي تتوقف عليها نتيجة الحرب . وقد اثبت التاريخ العربي في صدر الإسلام أن العرب ربحوا معاركهم كافة بفضل تفوقهم بهذين العاملين بالرغم من تفوق اعدائهم عليهم بالعدد والعدد .

لقد انتصر العرب في معركتهم هذه نتيجة لعوامل أوجزها بما يلي :

١ ـ تفوقهم بالقيادة .
٢ ـ تفوقهم بالمعنويات .
٣ ـ روح التعرض التي امتازوا بها على عدوهم المتخاذل المتخوف .
٤ ـ اجبارهم الفرس على قبول المعركة في المحل الذي اختاروه لها في أرض القادسية .
٥ ـ تردد القائد العام الفارسي وتلكؤه في التقدم مما سمح للعرب اكمال تحشدهم واستعداداتهم .
٦ ـ البطولة الفردية النادرة التي امتاز بها بعض فرسان العرب لدى مهاجمتهم فيلة الفرس والقضاء عليها مما أثر على ميزان القوى فرجحت كفة العرب .

مَعرَكَة نهَاوَند

التمهيد لفتح فارس

تعتبر معركة نهاوند من المعارك الفاصلة في التاريخ العربي ، ففيها انتصر العرب على الفرس في عقر دارهم وتحطمت بقايا الامبراطورية الفارسية التي انهارت بعد أن استولى على عاصمتها المدائن ، سعد بن أبي وقاص ، وأخذت تحاول الدفاع عن فارس بما تبقى من جيشها الخائر المنهزم ، إلا أن عمر بن الخطاب لم يمهلها لتجمع شتاتها وتنهض من كبوتها ، إذ ما كاد يسمع بتحركات « يزدجرد » في إيران ومحاولته اعادة تنظيم جيوشه لاستعادة العراق حتى غير فكره وقرر اقتحام ايران فسير إليها الجيوش من الجنوب والشمال فانتصرت في كل مكان . وكان أروعها انتصار نهاوند . وسأوجز في بداية هذا البحث الاحداث التي أعقبت مطاردة الفرس إلى حلوان ، والتي مهدت « لنهاوند » ليكون تسلسل الحوادث متكاملاً ، والبحث متواصلاً .

الأحداث التي سبقت المعركة

فتح الأهواز :

بعد انتهاء معركة القادسية هرب « الهرمزان » إلى الأهواز ، كما انسحب « يزدجرد » إلى حلوان ومنها إلى « الري » . وأخذا يعدان العدة لاسترجاع أرض

العراق . أما العرب فكانت سياسة الخليفة عمر أن يقف الفتح عند حدود الشام والعراق ولا يتعداها إلى بلاد الفرس والروم ، لأنه كان يفكر في جمع العرب تحت علم واحد ، ضمن دولة قوية ، تضم العراق وسورية ومصر والجزيرة العربية . وتنفيذاً لهذه السياسة سير عمرو بن العاص لفتح مصر ، وأقام بعض المراكز العسكرية في العراق والشام وضع فيها حاميات دائمية لصد أي غزو يقوم به الفرس أو الروم لاسترداد ما كانوا يحكمونه من أرض العرب . فأنشأ الكوفة والبصرة في العراق . وأمر سعد بن أبي وقاص الانتقال من المدائن إلى الكوفة وولاه عليها ، كما ولى « عتبة بن غزوان » على البصرة التي بنيت بجوار « الأبلة » . وقد تمكن عتبة من اخضاع الأهواز إلى سلطان العرب بعد قتال عنيف مع الجند الذين تمكن الهرمزان من جمعهم هناك . ولما تكاثر الامداد إلى الهرمزان خشي عتبة عاقبة توغله الزائد في الأهواز ، لذلك وافق على الصلح الذي طلبه الهرمزان فترك له الاهواز كلها عدا « نهر تيري » و« منادر » وما استولى عليه من « سوق الاهواز » والمسالح الكائنة على نهر تيري ومنادر .

لقد نقض الهرمزان الاتفاق ونشب القتال مجدداً ، انهزم بنتيجته الفرس الى « رام هرمز » . واستولى القائد العربي « حرقوص بن زهير السعدي » على على سوق الأهواز وأقام فيها .

مات عتبة وتولى المغيرة بن شعبة ولاية البصرة فانتهز عجم الأهواز الفرصة وأعلنوا الثورة ، فخرج اليهم المغيرة وتغلب عليهم ، إلا أنه لم يستمر التقدم تنفيذاً لأمر الخليفة الذي لا يرغب في التوغل في أرض فارس .

عزل المغيرة من ولاية البصرة وتولاها أبو موسى الاشعري ، فعاد أهل الأهواز ونقضوا عهدهم وامتنعوا عن دفع الجزية ، لذلك جمع ابو موسى قواته ودفعها إلى الأهواز لفتحها .

جمع « يزدجرد » جيشاً كبيراً من المدن والأقاليم التابعة له وطلب إلى الهرمزان مشاغلة العرب لحين اكمال استعداد هذا الجيش ثم يتفقا سوية لطرد

العرب واسترداد ما فقدوه من أرض العراق والأهواز . ولما وصلت هذه الانباء إلى عمر قدر خطورة الجيش الذي يحشده يزدجرد على مصير الدولة التي شادها ، لذلك قرر ان يغزو فارس قبل أن يلتقي جيشاً يزدجرد والهرمزان ، فيصبح أمر القضاء عليهما وهما مجتمعان صعباً . لذلك كتب إلى سعد ان يجهز جيشاً يسلم قيادته إلى « النعمان بن مقرن » ويرسله إلى الأهواز لتدمير جيش الهرمزان ، كما طلب إلى عامله على البصرة « أبو موسى » تجهيز جيش آخر بقيادة « سهيل بن عدي » ليتحرك بعد النعمان لمعاونته على أن يتولى قيادة الجيشين عند اجتماعهما « أبو سبرة بن أبي رهم » .

معركة تستر[1] .

سار النعمان مجتازاً أرض الأهواز باتجاه « رام هرمز » مقر الهرمزان . وحال وصول اخبار اجتيازه ارض الأهواز الى الهرمزان خرج بجيشه إلى « اربك » ينتظر النعمان فيها .

وبعد قتال عنيف في « اربك » انسحب الفرس إلى رام هرمز ثم تركوها إلى « تستر » عاصمة الأهواز في ذلك الوقت ، وهي تقع على نهر الكارون شمالي مدينة الأهواز . تقدم النعمان واستولى على رام هرمز واستمر بتقدمه نحو تستر . وتقدم سهيل بن عدي بعد النعمان ، ولما وصل سوق الأهواز علم باستيلاء النعمان على رام هرمز ، لذلك غير اتجاه تقدمه وتوجه نحو تستر مباشرة والتحق فيها بجيش النعمان ودخلا تحت قيادة القائد العام « ابو سبرة » .

كانت تستر منيعة بحصونها وبروجها ، وقد جمع فيها الهرمزان قوة كبيرة اخذت تنمو وتتزايد على مر الأيام بفضل النجدات التي كانت تصل إليها من المدن الأخرى .

---

(١) تستر أو ششتر ، مدينة في عربستان ، غزاها البراء بن مالك في خلافة عمر بن الخطاب

حمل أبو سبرة على أسوار المدينة أملاً في تخطيها ، فصمد له الفرس ، فأعاد الكرة مرات عديدة والمدينة صامدة ، فرأى انه لا يستطيع فتحها ما لم تصله نجدات جديدة ، فكتب الى الخليفة يشرح له الحال . فأمر عمر أبا موسى أن يسير بجيش كبير إلى تستر على أن يدخل حال وصوله تحت قيادة ابي سبرة .

وصل أبو موسى فاشتد القتال ، وكان الفرس يخرجون من أسوار المدينة ويغيرون على العرب فتحتدم المعركة بين الطرفين ثم يعودون إلى حصونهم . ولما طال الأمر أمر الخليفة عمار بن ياسر الذي تولى ولاية الكوفة نيابة عن سعد ان يسير بجيش من الكوفة مدداً لأبي سبرة على أن يترك عبد الله بن مسعود على امارة الكوفة .

وصل جيش عمار ، والمدينة لا تزال صامدة تقاوم بشدة واصرار . ولما طالت الحرب ضعفت معنويات بعض أهاليها ، فخرج أحدهم واتصل بالعرب سراً وأخبرهم بوجود منفذ يمكن أن ينفذوا منه إلى داخل المدينة . وكان هذا المنفذ هو مدخل الماء إلى المدينة .

وجه العرب أحد قادتهم « اشرس بن عوف الشيباني » بصحبة الدليل الفارسي ليستطلع المنفذ ويتأكد من صدق روايته .

تبع اشرس الفارسي فخاض الرجل به النهر ودخل معه المدينة من نفق بجانب مدخل الماء ، وسار متنكراً بطرقاتها وأراه نقاط الضعف فيها ، وأبوابها . ولما عاد وأخبر القادة بما رأى قرّ رأيهم على مهاجمة المدينة من هذا المنفذ مستغلين ظلام الليل .

انتدب القائد العربي رجلاً مع « اشرس » يتبعهم ٢٠٠ جندي ، فدخلوا المدينة وقتلوا الحرس وفتحوا الأبواب ، فدخل الجيش منها .

لجأ الهرمزان إلى قصره واستسلم جيشه بعد قتال مرير ، ولما تقدم المسلمون إلى قصره اضطر إلى الإستسلام مشترطاً أخذه إلى الخليفة في المدينة .

فأجيب إلى طلبه وسير به إلى عمر حيث اعلن اسلامه هناك ولبث فيهـا حتى قتله عبيد الله بن عمر لاعتقاده بأن له يداً في تحريض ابي لؤلؤة على قتل والده .

بعد احتلال تستر توجه العرب فاحتلوا « سوس » بعد حصار استمـر حتى نفذ ما فيها من ماء وطعام ، ثم تقدموا إلى « جندي سابور » واستـولوا عليهـا . وهكذا دانت لهم الاهواز بأجمعها ، ولم يستطع « يزدجرد » نجدتها .

معركة نهاوند

بعد أن تم للعرب النصر في الاحواز استاء امراء فارس فاجتمع عدد كبـير منهم وقرروا أن يلتفوا حول عرش يزدجرد ويدفعوه لقيادتهم حتى النصر . أخـذ يزدجـرد يرسل الرسائل إلى جميع مدن ايران واقاليمها يشجع اهلها عـلى القتال والتطوع في الجيش الذي أخذ يتحشد في نهاوند حتى بلغ عدده ١٥٠ الف مقاتل بقيادة « الفيروزان » ، فجمع هذا امراء الجند وقال لهم :[١]

« إن محمدا الذي جاء للعرب بهذا الدين لم يتعرض لبلادنـا ، وقام أبـو بكر من بعده فلم يتعرض لنا في دار ملكنا ، ولم يثر بنا إلا فيما يـلي بلاد العـرب من السواد ، وهـذا عمر بن الخـطاب لما طـال ملكـه ، انتهـك حرمتنا واخذ بلادنا ، ولم يكفه ذلـك حتى غزانـا في عقر دارنـا ، فأخـذ بيت المملكـة وانتقصكم السواد والاحـواز ، وهـو آتيكم إن لم تـأتـوه ، وليس بمنتـه حتى تخـرجـوا من في بـلادكم من جنـده وتقلعـوا هــذين المصرين ، البصرة والكوفة ، ثم تشغلوه في بلاده وقراره » .

نبه الاحنف بن قيس عمر بن الخـطاب إلى خطر تحشـد الجيوش الفـارسية وعزمها على استعادة الاحواز واعادة احتلال العراق وذلك عند وصوله إلى المدينة في صحبة الهرمزان ، إذ قال له عندما كان عمر يحاسب الهرمزان عن سبب غدره

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٢ .

للعهود وانتفاضه على العرب من حين لآخر : -

« يا أمير المؤمنين اخبرك انك نهيتنا عن الانسياح في البلاد ، وأمرتنا الاقتصار على ما في أيدينا . إن ملك فارس حي ، بين ، ظهير ، وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم . فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج احدهما صاحبه . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئا بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم . وملكهم هو الذي يحرضهم ويبعثهم . ولم يزل دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح ، فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من مملكته وعزامته . هنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم » .

قرر عمر القضاء على دولة الفرس قضاء مبرما لذلك جمع كبار الصحابة والقادة وشاورهم بالامر فاتفق الجميع على ضرورة اقتحام فارس حتى تدين بأجمعها للعرب .

فقال لهم عمر « اشيروا علي برجل أوله أمر هذه الحرب وليكن عراقيا » .

فقالوا له انك افضل رأيا وابصر بجندك . فقال « اما والله لاولين امرهم رجلا يكون اول الاسنة اذا لقيها غدا ، النعمان بن مقرن » . فأقره المجتمعون على حسن اختياره .

كان النعمان من القادة الافذاذ ، فقد انتدبه ابو بكر لقتال من امتنعوا عن الزكاة فهزمهم بذي القصة . وكان أحد قواد خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة أيام الفتح الاولي في العراق ، ثم كان من أبطال القادسية الكبار . وقد ترأس الوفد العربي لمفاوضة يزدجرد ، وشارك في فتح الاحواز . وهو يمتاز بالرجولة والشجاعة والكفاءة والاقدام ، وقد اكتسب خبرة وتجربة نتيجة مشاركته في الحروب السابقة التي خاضها وتولى فيها قيادة الكتائب والفرق والجيوش .

وبعد هذا القرار أرسل عمر إلى النعمان أمر التعيين التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان ابن مقرن . سلام عليك : فإني احمد الله الذي لا اله إلا هو . أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعا من الاعاجم كثيرة قد تجمعوا لكم بمدينة نهاوند . فإذا أتاك كتابي هذا فسر بإسم الله ويعونه وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرا فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة ، فإن رجلا من المسلمين أحب إلي من مئة الف دينار . فسر في وجهك هذا حتى تأتي « ماه »[1] . فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها . فإذا اجتمع لك جندك فسر إلى الفيروزان ومن جمع معه من الاعاجم من أهل فارس وغيرهم . والسلام عليك »[2] .

ثم كتب إلى عبد الله بن عتبان الذي تعين واليا على الكوفة يطلب اليه تجهيز جيش يلحقه بالنعمان في « ماه » . وأمره أن يقود هذا الجيش « حذيفة بن اليمان » على أن يكون بأمرة النعمان حال وصوله « ماه » . كما كتب إلى النعمان أيضا بأنه إذا تعرض لحادث فإن حذيفة سيكون قائدا بعده ، وإن تعرض حذيفة لحادث يتولى القيادة بعده « نعيم بن مقرن » .

ثم كتب إلى أبي موسى الاشعري والي البصرة أن يسير بجيش قوي إلى « ماه » ويصبح هناك بأمرة النعمان أيضا .

وطلب إلى قادته في الاحواز « سلمى بن الفين » و « حرملة بن رابعة » والباقين أن ياشغلوا الفرس هناك ويمنعوهم من ارسال النجدات إلى نهاوند من اقليم فارس المجاور للاحواز .

ترك النعمان الاحواز وحث السير معقبا وادي دجلة ثم وادي ديالى حتى

---

(١) قرية على طريق حلوان وقربها .
(٢) الطبري ج ٤ ص ١١٤ .

وصل « ماه » فوجد الجيوش قد سبقته اليها . وكان فيها من أبطال القادسية القعقاع بن عمرو وعمر بن معدي كرب وطليحة بن خويلد وغيرهم كثيرون . وبلغ عدد قواته التي تم تحشدها ٣٠ الف جندي .

التقدم إلى نهاوند

تحرك الجيش إلى حلوان وفيها انتخب النعمان طريق حلوان ـ كرند ـ كنكلوار ـ نهاوند .

وقد سبقته مفرزة للتعسس واستطلاع الطريق وجمع المعلومات عن العدو ، والتأكد من خلو الطريق من الكمائن .

كانت المفرزة مؤلفة من طليحة الاسدي وعمر بن معدي كرب وعمر بن أبي سلمى .

بعد مسيرة يوم واحد رجع عمر بن أبي سلمى واخبره بخلو الطريق من الاعداء .

وفي اليوم الثاني رجع عمر بن معدي كرب مؤكدا خلو الطريق ايضا . واستمر طليحة حتى وصل نهاوند واستطلعها وتجسس اخبارها وعاد مخبرا النعمان بالمعلومات التي جمعها .

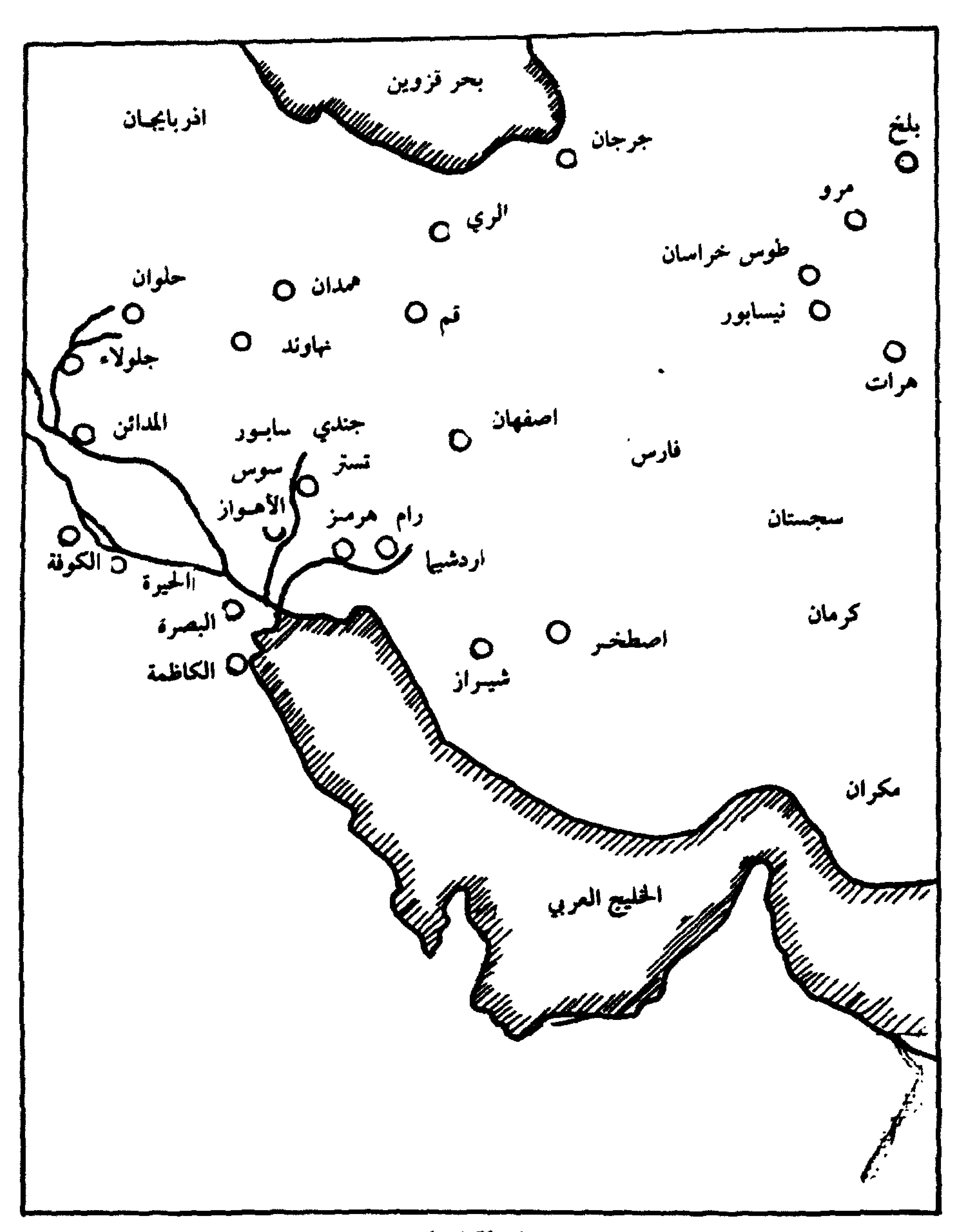
قرر النعمان التقدم ففتح قواته بتشكيل المعركة كما يلي :

المقدمة بقيادة نعيم بن مقرن .

المجنبتين بقيادة حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن .

المجردة بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي .

الساقة بقيادة مجاشع بن مسعود .


بحر قزوين
اذربايجان
جرجان
بلخ
مرو
الري
طوس خراسان
حلوان
همدان
قم
نيسابور
جلولاء
نهاوند
هرات
المدائن
جندي سابور
اصفهان
فارس
تستر
سوس
الأهواز
رام هرمز
سجستان
اردشيا
الكوفة
الحيرة
كرمان
البصرة
اصطخر
شيراز
الكاظمة
مكران
الخليج العربي

خارطة إيران

موقف الفرس

اجتمعت في نهاوند القوات التالية :

من الفرس والفهلوج ، ٣٠ الف مقاتل . ومن خارسان ، ٦٠ الف مقاتل . ومن سجستان ، ٦٠ الف مقاتل .

عرف الفيروزان انباء تقدم العرب منذ غادروا حلوان بواسطة جواسيسه . وقرر قبول المعركة في أرض نهاوند منتظرا وصولهم اليها ، مستفيدا من حصونها وبروجها . وكانت غايته جذب العرب إلى المنطقة الجبلية الوعرة التي لم يألفوا القتال فيها ، فيتكبدوا مشاق السير على طول الطريق الوعر فيصلوا واهني القوة ، خائري المعنويات ، بعيدين عن قواعدهم ومراكز امدادهم وتموينهم . ولربما كانت هذه الخطة حسنة لو لم يقبع الجيش الفارسي وراء أسوار المدينة مفضلا موقف الدفاع . وكان الموقف يقضي على القائد الفارسي أن يعد عددا كبيرا من الكمائن في طريق تقدم العرب ليزيد مصاعبهم ويؤخر تقدمهم ويكبدهم بعض الخسائر ، كما كان يقضي أن يخرج من حصونه حال وصولهم ويباغتهم بهجوم عام قبل أن يستقروا ويستريحوا .

وصل الجيش العربي قرب نهاوند وعسكر فيها ، فطلب الفيروزان اليهم أن يرسلوا أحد قادتهم للمفاوضة . ارسل النعمان اليه « المغيرة بن شعبة » فهدده الفيروزان وأنذره بالرجوع من حيث أتوا والا سيكون مصيرهم الدمار .

فكان جواب المغيرة : « والله ما زلنا منذ جاءنا رسول الله نتعرف من ربنا الفتح والنصر حتى اتيناكم . وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء ابدا حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نقتل بأرضكم » .

عاد المغيرة فأخبر النعمان بما جرى بينه وبين الفيروزان ، فقرر محاصرة المدينة .

وصف ارض نهاوند

تقع نهاوند في منطقة تكثر فيها المراعي والبساتين والجداول . يحيطها سور منيع وفي وسطها حصن متين البنيان قوي الجدران يحمي اسوارها . ولقد حفر الفرس حولها خندقا عريضا ولغموا الارض التي أمام الخندق بحسك الحديد . (وهي قضبان حديدية تتألف من اربعة اذرع توضع على الارض لتعرقل تقدم الفرسان والمشاة) .

خطة العرب

ضرب النعمان الحصار على المدينة وكان الفرس خلال ذلك لا يخرجون من حصونهم إلا نادرا وبجماعات صغيرة غرضها الاغارة السريعة وجمع المعلومات . وكانت خيل العرب كلما اقتربت من الحصون اصطدمت بحسك الحديد حيث لا تقوى على اجتيازها . وكان الفرس يرمونهم بالنبل من فوق اسوارهم .

لما رأى النعمان ذلك خشي أن يطول الحصار دون نتيجة ، فجمع أولي الرأي وكبار قادته في مؤتمر لمناقشة الموضوع، فأشار عليه عمرو بن معدي كرب بمواصلة الغارة على حصون المدينة ومقاتلة كل من يخرج منها ، فلم يعجب هذا الرأي الحاضرين ، حيث قالوا أنهم سيلزمون حصونهم التي ستكون عونا لهم علينا . وبعد نقاش طويل اقترح طليحة بن خويلد الاسدي الخطة التالية :[1]

تجهز كتيبة من الفرسان بكامل سلاحها وترسل لمهاجمة الحصون وعليها استخدام النشاب وتتظاهر بأنها عازمة على اقتحام الاسوار ليغضبوا الفرس

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٣٠ حيث جاء فيها :

« قال طليحة نبعث خيلا مؤدية ، فيحدقوا بهم ، ثم يرموا لينشبوا القتال، ويحمشوهم، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج ارزوا الينا استطراداً ، فانا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، وأنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجادونا وجاددناهم ، حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب » .

ويستفزوهم للخروج من الحصن للمناجزة بالسيوف . فإذا ما خرجوا ، على الكتيبة أن تتظاهر بالهزيمة وتتراجع متقهقرة إلى الخلف حتى تبعدهم عن الحصن وتشجع الآخرين على الخروج أيضا . وإذا ما ابتعدوا عن الحصن كثيرا تتوقف الكتيبة عن تقهقرها وتثبت امامهم ، وعند ذاك يلتحم بهم الجيش بكامله وتكون المعركة الفاصلة .

وافق الجميع على هذه الخطة . فأمر النعمان المجردة التي كان يقودها القعقاع ابن عمرو بمهاجمة الحصن في صباح اليوم التالي وتنفيذ الخطة المتفق عليها بحذافيرها ، ثم هيأ القسم الاكبر من جيشه للقضاء على القوة التي سيستدرجها القعقاع .

المعركة

تقدم « القعقاع » ورمى المدينة بالنبل ، وأظهر العزم على اقتحام الاسوار ، وأبدى من ضروب البأس مما جعل الفرس يخرجون اليه بحذر لصد هجومه . وقد قتل المسلمون كل من خرج اليهم ، فأثار ذلك غضب الفرس ، فأرسلوا فرقة إلى خارج الاسوار واجبها القضاء على الكتيبة العربية القليلة العدد التي تريد اقتحام الاسوار . اجتازت الفرقة الاسوار وحسك الحديد لمقاتلة العرب ، فثبت لهم القعقاع بادىء الأمر حتى لا تنكشف الخدعة ، ثم أمر جنوده بالتقهقر فلما رأى الفرس فراره تعقبوه .

وكانت الخطة تقضي بالتقهقر إلى ما وراء مرمى النبل من حصون المدينة . وقد تراجعت كتيبة القعقاع حتى وصلت إلى مقربة من القسم الاكبر والفرس يتبعونهم ملتزمين في بداية الأمر الحذر حيث كانت مؤخرتهم تتقدم وهي تدفع أمامها حسك الحديد تحتمي به إذا رجع العرب اليهم . ولما رأى الفرس امعان العرب بالفرار تأكد لديهم بأن الجيش العربي تخاذل امام شدة ضرباتهم وانتهى أمره ولا بد من مطاردته والقضاء عليه ، ولا موجب بعد ذلك للحذر ، فتخطوا حسك الحديد وخلفوها وراءهم واسرعوا بالمطاردة . ثم اندفع الجيش

كله من نهاونـد بقيادة الفيـروزان حتى خلت المدينـة منهم ، للقضاء عـلى الجيش العـربي برمتـه . ولما بعـد عن المدينـة واقترب من مـوقـع القسم الاكبـر العـربي انتابتهم الدهشة لما رأوا صفوف العرب تنتظرهم وقد استعـدوا للمعركـة . وكان اليوم يوم جمعة وقد وصل الفرس قبيل الزوال .

أصـدر النعمان أوامـره بالصبـر حتى ترتفـع الشمس إلى كبد السـماء ويحل الزوال فيبدأ بالهجوم بعـد سماع تكبيـرته . ولمـا اصبح الفـرس على بعـد مرمى السهام أخذ رماتهم يصوبونها إلى الجيش العربي ، فأصيب بعض الجند ، فطلب بعض القادة وعلى رأسهم المغيـرة من النعمان أن يصـدر أمره بـالهجوم ، إلا أنـه أصر على التريث حتى الزوال . وأخـذ يطوف عـلى كتائبـه يشجعهم ويحثهم على الاستبسال . وأصدر اليهم توجيهاتـه الاخيرة ، ثم رجـع إلى مركـز قيادتـه فكبر ثلاث تكبيرات ثم اندفع على رأس جيشه إلى صفوف الفرس فالتحم الجيشان ، وقد استمات العرب لأنهم يعرفون بأن هزيمتهم في هذا اليوم معناه ضياع الفرصة نهائيا في اخضاع فارس .

وتحدرت الشمس إلى المغيب ، والقتال عـلى أشده ، وكـان النعمان يجـول بين الصفوف واللواء الخفاق بيده . وبينـما كان يشق طـريقه في قلب العـدو زلق حصانه وسقط منه فعاجله أحد علوج الفرس بسهم في خاصرته فاستشهد . فلما رآه شقيقه نعيم تقدم مسرعا اليه وتناول العلم قبـل سقوطـه وغطى جسم اخيـه بثوبه وكتم أمر استشهاده عن الجيش خـوفا من أن تضعف معنـوياتهم ، وهـم في أوج حماستهم للمعركة . ومع ذلك تقدم إلى حذيفة وقدم له اللواء واخبره بمقتل النعمان . إلا أن حذيفة طلب اليه أن يستمـر بحمل اللواء ويتـولى القيادة محـل أخيه وأن يستمر على كتمان استشهاده حتى انتهاء المعركة .

سـار نعيم حتى وصل جثـة النعمان . فـأقـام اللواء قـربهـا واستمـر عـلى القتال . أقبل الليـل وحمي وطيس المعركـة ، والعرب يـدفعون العـدو أمامهم ، وانتشـر الظلام فـأصاب الفـرس الفزع فقـرروا العودة إلى حصـونهم ، إلا أنهم

اصطدموا بحسك الحديد التي تركوه خلفهم ، وكان العرب لا يمهلونهم لرفع هذا الحسك ، وأرادوا الانحراف إلى الجانب فتلقفهم خندق عميق اعماهم ظلام الليل من رؤ يته فهووا فيه بخيولهم ، فقتل عدد كبير منهم .

لما رأى الفيروزان ما حلّ بجيشه اندفع وحيداً نحو طريق همدان يريد النجاة بنفسه ، إلا أن « نعيماً » رآه وأمر القعقاع بمطاردته ، فأدركه في ثنيه الجبل حيث سدت عليه الطريق قافلة من الحمير والبغال تحمل العسل ، فقتله واستمر مع كتيبته يطارد فلول الفرس المنهزمين حتى بلغ همدان فحاصرها ، إلا أن اميرها لما سمع بأخبار اندحار الجيش الكبير في نهاوند انهارت معنوياته واستسلم وعقد اتفاقاً مع العرب فرض فيه القعقاع الجزية على أهل المدينة على أن يضمن له الحاكم ولاء همدان و« دسبتي » .

ولما عاد القعقاع إلى نهاوند وجد الجيش العربي قد دخلها وأن حذيفة قد تسلم القيادة العامة . ويقول الطبري أن عدد قتلى الفرس في نهاوند بلغ ١٠٠ الف قتيل .

بعد نهاوند :

بعد إنتهاء المعركة أخذ قسم من الجيش العربي يعود إلى بلاده ، وكان جيش البصرة أول العائدين ، وفي طريقه حاصر أبو موسى الاشعري « الدينور » واحتلها وفرض على أهلها الجزية ، ثم توجه إلى السيروان وعمل فيها ما عمله في « الدينور » ثم قفل راجعاً إلى البصرة .

أخذ حذيفة الذي استقر في « نهاوند » يرسل المفارز إلى المدن المجاورة لها ويفرض على أهلها الجزية .

ولما وصلت انباء النصر إلى عمر في المدينة استبشر بها وقرر إتمام فتح إيران بأجمعها ، لذلك اصدر اوامره التالية :

أمر الأحنف بن قيس بالحركة لفتح خراسان . وأمر مجاشع بن مسعود

السلمي بالحركة الى اردشير وسابور . وأمر عثمان بن العاص الثقفي بالحركة إلى اصطخر . وأمر سارية بن زنيم الكناني بالحركة إلى « درابجرد» . وأمر سهيل بن عدي بالحركة إلى كرمان . وأمر عاصم بن عمرو بالحركة إلى سجستان . وأمر الحكم بن عمرو التغلبي بالحركة إلى مكران .

موقف الفرس :

حاول يزدجرد أن يعيد تنظيم جيشه بعد انتهاء المعركة لينقذ ما تبقى من بلاده ، ويصون عرشه من الانهيار . فاستنجد بأمراء الأقاليم ، فوصلته الامدادات من أذربيجان وخراسان وفارس ومكران . وكان ينتظرها في الري ثم انتقل إلى اصفهان . ولما بلغ عمر ذلك أمر عبد الله بن عتبان حاكم الكوفة بالتقدم لفتح اصفهان على أن يستصحب معه قسماً من الجيش المرابط في نهاوند .

كانت اصفهان من مدن الفرس الكبيرة تتألف من مدينتين متجاورتين هما « جي » و« اليهودية » وهذه الأخيرة كانت مستعمرة يهودية انشأها يزدجرد الأول استجابة لرغبة زوجته اليهودية « شوشن رخت » . أما « جي » فهي القصبة .

وتقع اصفهان في نهاية المنطقة الجبلية من جهة الجنوب ، وهي مركز مواصلات هام إذ تصل إليها الطرق من مختلف مقاطعات الامبراطورية الفارسية . كما كانت مركزاً تجارياً وزراعياً هاماً .

وصل عبد الله بن عتبان مع جيشه إلى مشارف المدينة فوجد بانتظاره جيشاً فارسياً كبيراً وفيه اكبر مبارزيهم وأعظمهم « شهريار بن جاذويه » . ولما حمي وطيس المعركة وتجندل عدد كبير من الفرس طلب هذا أن يبارزه أحد فرسان العرب فتقدم اليه « عبد الله بن ورقاء الرياحي » فصاوله وقتله فاختلت صفوف الفرس وانهارت معنوياتهم وانسحبوا إلى « جي » يحتمون بأسوارها بينما شرع العرب يعدون الخطة لمهاجمة المدينة .

ولما علم يزدجرد بانـدحار جيشـه ترك اصفهـان هاربـاً إلى كرمـان . أما الجيش فخرج يقاتل المهاجمين بقيادة أمير المدينـة ، « الفاذوستـان » الذي طلب مبارزة عبد الله ابن عتبان ، فإن قتله استسلمت المـدينة وإن قتـل القائـد العربي رجع الجيش عنها . ولما طالت المبارزة دون أن ينتصر أحدهما اقتـرح الفاذوستـان أن يسير مع عبد الله إلى معسكر العرب ويصالحه هناك ويسلم المدينة لـه على أن يسمح لكل راغب بالسفر منهـا ومن يبقى يدفـع الجزيـة . وهكذا تم استسـلام اصفهان .

وفي هـذا الوقت كـان « اسفنـديـار الـرازي » شقيق رستم يعـد العـدة في منـطقة بحـر قزوين لـرد العرب عن منـطقة الـري ، ولما علمت همـدان بـذلـك نقضت عهدها وإنضمت إليه فزحف اليها نعيم بن مقرن من نهاوند وأخضعها . وبينما كان نعيم ومعه ١٢ ألف مقاتـل في همدان ، بلغـه زحف الاسفنديـار اليه من عـدة جهـات . فتقـدمت عليـه ثـلاثـة جيـوش : جيش من الـديلم بقيـادة « مـوتـا » ، وجيش من الـري ، بقيـادة « الـزينبي » ، وجيش من أذربيجـان ، بقيادة الاسفنديار نفسه .

وقـد تحشدت هـذه الجيوش في « واج روذ » . وكـانت أخبارهـا تصل إلى نعيم بواسطة العيون والجواسيس . ولم تكد تصل طلائعهم إلى « واج روذ » حتى تحرك اليها ليقضي عـلى كل جيش عـلى انفراد . إلا أنـه وصل بعـد أن تجمعت الجيوش الثلاثة فيها ، فاشتبك معهم بقتال عنيف انتصر به عليهم ، وبعد هـذا النصر تقدم نعيم إلى الري بعد أن استخلف يزيد بن قيس عـلى همدان . وكـان نصر العرب في الـري حاسـماً ، لذلـك اسرعت المـدن والأقاليم القـريبة تـطلب الصلح وتؤدي الجـزيـة . فخضعت للعـرب كـل من جـرجـان وطبـرستـان واذربايجان ، فأصبح العرب يسيطرون سيطرة تامة على أقليم الأهـواز في الجنوب وعلى معظم اقـاليم الشمال ولم يبق إلا اقليم فـارس وخراسـان وكرمـان ومكران ;وسجستان .

وفي هذه الاثناء بدأت الجيوش التي أمرها عمر بالتقدم لفتح هـذه الأقاليم بالحركة بعد أن أكملت استعداداتها وتحشدها .

فـاندفـع جيش عثمان بن أبي العـاص من البحرين وكـان هدفـه النهـائي « اصطخر » عاصمة اقليم فارس فتمكن من فتحها .

واندفع جيش مجاشع بن مسعود من البصرة واستولى على سابور واردشير .
واندفع جيش سهيل بن عدي واستولى على « كرمان » ، كـما استولى جيش عمـر التغلبي على « مكران » .

كـان يزدجـرد يتنقل من أقليم إلى آخـر ولما فتـح العرب مكـران هرب إلى خراسان وهي كائنة جنوب شرقي بحر قزوين .

ثم تحرك جيش عاصم بن عمرو واستولى على سجستان .

وبعد السيطرة على جميع هذه الأقاليم تحـرك جيش الاحنف بن قيس لفتح خـراسان . وكـان اقليم خراسـان واسعاً ، أهم مـدنه نيسـابـور ومـرو وهـرات وبلخ . وقـد تمكن الاحنف من فتح جميـع هذه المـدن ودخل « مـرو » عـاصمـة الاقليم واستقر بها ، فهرب يزدجرد إلى خارج الحدود الايرانية لاجئاً إلى سمرقند مستجيراً بخاقان الترك .

تساقطت اقاليم ايران ومدنها نتيجة الانتصار الحاسم الـذي حققه العـرب في معركة نهاونـد بتحطيم الجيش الفـارسي العظيم الـذي جمعه الفـرس فيها من جميـع هذه الأقـاليم لصد هجـوم العرب عن ايـران واعـادة فتـح العـراق ، فلم تستطع بعدها قوى الفرس المبعثرة حماية الاقاليم والمدن الاخـرى ، لذلـك كانت تسمية المؤرخين لمعركة نهاوند بـ (فتح الفتوح) أمراً واقعياً وصحيحاً .

خشي خاقان التـرك من دخول العـرب إلى بلاده فسـار مع يـزدجرد عـلى رأس جيش إلى الحدود لحمايتها .

أما عمر فقد أمر قادته بعدم التوغل والاكتفاء بفتح أقاليم ايران ، ولما رأى الخاقان توقف العرب تشجع بتحريض يزدجرد على التقدم إلى خراسان فاحتل بعض مدنها ، ثم غادرها إلى سمرقند تاركاً يزدجرد في « بلخ » ينظم أمر الدفاع عنها ، إلا أن ثورة داخلية قامت ضده اضطر على أثرها إلى الفرار إلى « فرغانة » عاصمة الترك ولبث فيها سنين طويلة يراسل اعوانه داخل ايران ويحثهم على الثورة حتى قتل في زمن الخليفة عثمان بن عفان . وهكذا تم تدمير الامبراطورية الفارسية ودانت ايران جميعها للعرب .

إن أهم ما يسترعي النظر في معارك فارس هو نجاح العرب في القتال بأرض جبلية لم يألفوها سابقاً ، ولم يشاهدوا نظيرها في بلادهم ، ولم يتعودوا على مشاقها . وهذا دليل جديد على أن الجيش الذي يقاتل في سبيل عقيدة ومثل سامية لا بد أن ينال النصر مهما كانت الصعاب التي تعترض طريقه . لأن العقيدة ترفع المعنويات وتقوي العزائم فتدفع الجندي إلى التضحية بحياته عن طيب خاطر لتحقيق النصر .

ومما يلاحظ أن تفوق الفرس الساحق لم يفدهم في أخذ المبادأة من العرب ولم يضعوا خطة هجومية لتدمير الجيش العربي قبل وصوله إلى نهاوند أو في الساحة التي اختاروها للمعركة . بل قرروا الدفاع وراء اسوار المدينة ، ولا أدري كيف كان بامكانهم تدمير جيش العرب من وراء هذه الأسوار ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون بأن العرب سيطول بهم الحصار ويعودون من حيث أتوا .

تجلت براعة القيادة العربية التي كان هدفها تدمير الجيش المعادي برمته بالخطة المثلى التي وضعتها باستدراج الجيش الفارسي من وراء حصونه وانزال الضربة القاضية به في الأرض المنتخبة ، وكم كان غباء القيادة الفارسية التي انطلت عليها الحيلة فتعقبت كتيبة القعقاع المتقهقرة دون خطة مرسومة أو حذر فوقعت في الشرك وكانت مباغتتها بالقسم الاكبر الثابت في محله عاملاً حاسماً في النصر .

والمعركة ببطولاتها الفذة وتضحياتها الكبيرة وقياداتها المؤمنة المدركة الجديرة بالدراسة في عصرنا هذا من قبل شبابنا المتوثب إلى المجد حتى يستمد من ماضيه قوة لبناء مستقبله . وقد صح من قال « من لا ماضي عنده لا حاضر أو مستقبل له » .

معركة عين شمس

التمهيد لفتح مصر

في عام ١٨هـ (٦٣٩م) زار الخليفة عمر بن الخطاب الشام مرة ثانية للاطلاع على أحوالها وتنظيم أمورها والاجتماع بحكام الأقاليم التي تم فتحها وتوجيه نصائحه وارشاداته اليهم وحل مشكلاتهم وسماع آرائهم ودراسة الموقف العسكري والسياسي المحيط بالدولة العربية معهم .

وكانت هذه أول زيارة من سلسلة الزيارات التي قرر القيام بها لأقاليم دولته . عقد الخليفة مؤتمراً في الجابية حضره حكام الأقاليم والقادة كافة تدارس فيه الموقف العام للدولة والأخطار المحدقة بها . فقد تم تحرير سورية الطبيعية وجلا الروم عنها ، كما تم تحرير العراق وجلا الفرس عنه . وكان وضع الفرس مزريا ، فالتفكك والانحلال عصفا بأمبراطوريتهم ، والتنازع على الملك هد عرشهم ، لذلك كانوا في وضع لا يتمكنون فيه من استعادة ما فقدوه بوقت قريب ولا يشكلون خطراً آنياً على العرب .

أما الروم فكان امبراطورهم هرقل يعد العدة في القسطنطينية للانقضاض على سورية واستعادتها مهدداً بالزحف من الشمال (آسيا الصغرى) ومن الغرب ، من مصر التي كانت خاضعة لحكمه وفيها نائبه « المقوقس » يستعد بدوره للزحف نحو الشرق . لذلك كان خطر الروم يستوجب الاهتمام والمعالجة

الآنيـة . وكان لا بـد من التصدي لـه وسحقه قبـل فوات الأوان . وجـريا عـلى التقليد السوقي الذي اتبعه العرب في حروبهم السابقة كافة وهو أخذ المبـادأة من عـدوهم بالتعـرض أخـذوا يفكـرون في أحسن وسيلة تمكنهم من انـزال ضـربـة جديدة بالروم .

وكـان أمامهم أمـا التقدم إلى القسـطنطينيـة والقضاء عـلى الامبراطـوريـة الرومية وفي ذلك اخطار وصعاب تحتاج إلى وقت طـويل لتـذليلها فضـلاً عن أن الخليفة كان مصـراً في ذلـك الوقت عـلى عدم اجتيـاز المنطقـة الجبلية في الشـرق (جبال ايران) وفي الشمال (جبال طوروس) والاكتفاء بتحـرير البـلاد العربيـة فقط ، وأما التقدم الى مصر والقضاء على نفوذ الروم فيها وتحريرها منهم مستفيداً من طبيعة أرضها السهلة التي تساعدهم على القتال فيهـا ومن عداء أهلهـا للروم وإمكان تعاونهم مع العرب خاصة العشائر العربية التي كانت تسكن فيها .

وكان عمرو بن العاص الحاكم العام لفلسطين من أشد المتحمسين لتحرير مصر العربية من الروم فقد دخلها في الجاهلية للتجارة وتعرف على مدنها وطرقها وأحـوال سكانها . وقـد الح عـلى الاستفادة من سخط الاقبـاط على البيـزنطيـين الذين يسومـونهم سوء العـذاب بالـرغم من أنهم يدينـون بالمسيحيـة دين الدولـة البيزنطية ، والاستفادة من العشائر البدوية التي تعيش في أطـراف مصر الشـرقية والتي ستنخرط حتماً في الجيش العـربي الزاحف ، ثم استغـلال ضعف معنويـات الجيش الرومي الذي تأثر بانتصارات العرب الحاسمة عليه في الأرض السورية ، ومن ثم حـرمان البيـزنطيـين من خيراتهـا التي يعتمدون عليهـا اعتماداً كليـاً بعد خسارة سورية .

ورغم كـل ذلك كـان الخليفة متـردداً في الاقدام عـلى مثل هـذه المغـامـرة المحفوفة المخاطر . إلا أن عمراً استطاع في النهاية اقناعه بعد أن أكد له أنه قـادر على فتح مصر بجيشه البالغ ٤ آلاف مقاتل .

أوعز الخليفة لعمرو بالتقدم نحو مصر بعد اكمال استعدادات جيشه وقفل

عائداً إلى المدينة لمشاورة الساسة والقادة فيها وأخذ موافقتهم على الفتح الجديد ، وقال له سأرسل لك كتاباً بالموافقة أو عدمها ، « فإن ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وان انت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فأمض لوجهك واستعن بالله واستنصره » .

كان عمرو بن العاص من قبيلة سهم القرشية . أبوه من اشراف قريش . وكان في الجاهلية جزاراً وتاجراً ، أسلم في السنة الثامنة للهجرة . شارك في حروب الردة وقضى على المرتدين في « قضاعه » .

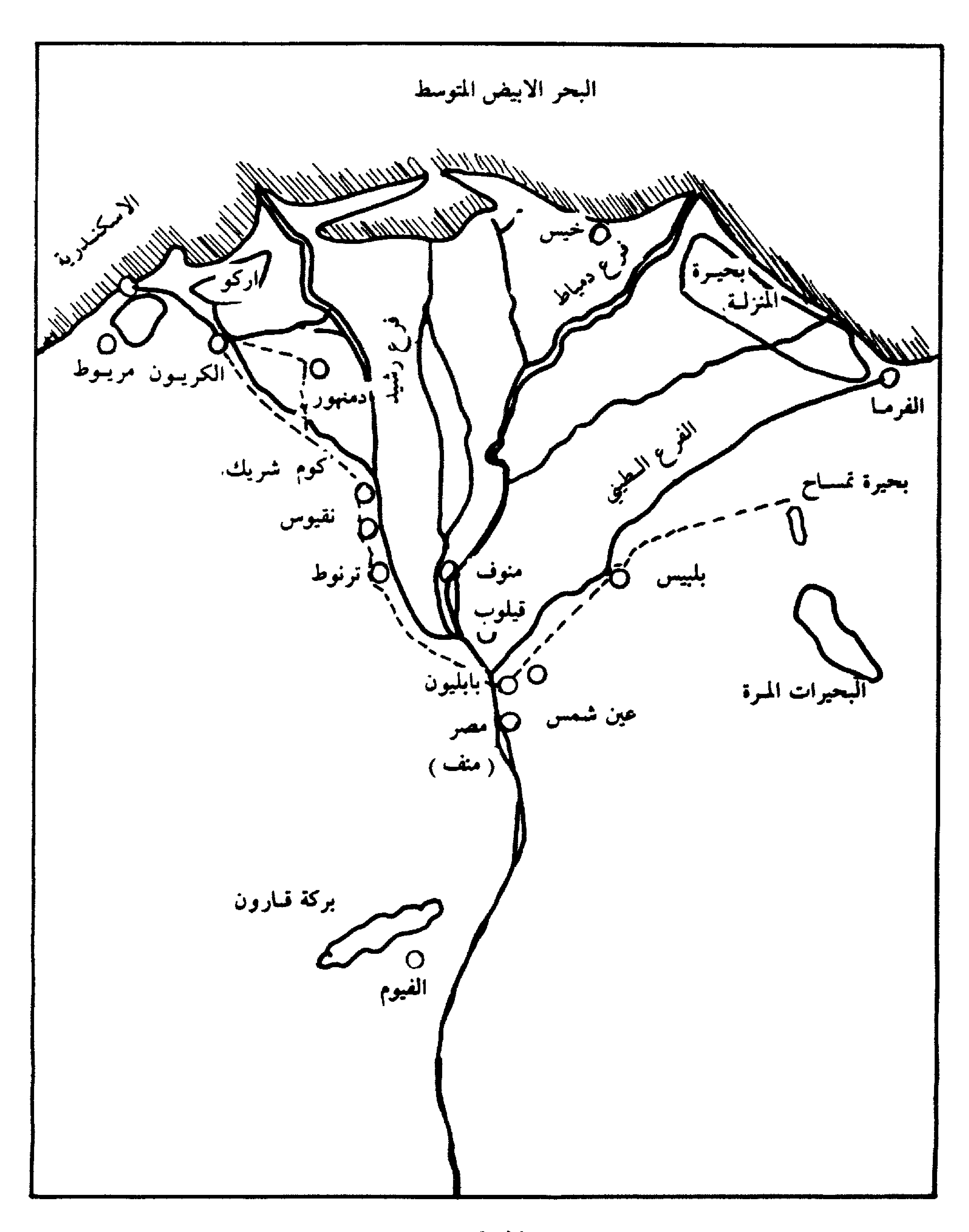
كان له دور كبير في معركة اليرموك وهو بطل معركة فلسطين ومحررها، ويعتبر من دهاة العرب في الجاهلية والإسلام .

كان فارساً متفوقاً في فنون الفروسية والسيف ، قوي البنية ، راجح العقل ، كثير الاناة ، واسع الحيلة ، فصيح اللسان ، سياسياً بارعاً ، وقائداً محنكاً ، طموحاً ، ولوعاً بالإمارة ، شديد الاعتداد بنفسه .

تقلد ولاية فلسطين بعد فتحها ، ثم تولى حكم مصر حتى عزله عثمان بن عفان ، ثم عاد اليها حاكماً مرة ثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان .

أبدى خلال قيادته للجيش في فلسطين ومصر كفاءة حربية عالية ومعرفة دقيقة في فنون القتال .

أواخر عام ١٨هـ تحرك الجيش العربي من فلسطين معقباً الطريق التاريخي الذي سلكه قبله الاسكندر وقمبيز . ولما وصل إلى رفح وصلته رسالة الخليفة ، فتحايل عمرو على الرسول ولم يستلم منه الرسالة حتى دخل أرض مصر ووصل قرب العريش فوجد أن الخليفة يأمره بالعودة وارجاء فتح مصر . فقال لاصحابه : « لم يلحقني كتاب أمير المؤمنين حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله » .


البحر الابيض المتوسط
الاسكندرية
اركو
خيس
فرع دمياط
بحيرة
المنزلة
فرع رشيد
الكريون
مريوط
دمنهور
الفرما
الفرع الطيني
كوم شريك
نقيوس
ترنوط
منوف
قيلوب
بلبيس
بحيرة تمساح
بابليون
عين شمس
مصر
(منف)
البحيرات المرة
بركة قارون
الفيوم

مخطط رقم (١)

فتح عمرو العريش في كانون اول ، ديسمبر ، ٦٣٩م دون مقاومة تذكر وتركها مسرعاً إلى مدينة « الفرما » وكانت تقع قرب « بورسعيد » اليوم . وهي تعتبر من الحصون الأمامية في خط الدفاع عن مصر ، وقد أهمل الروم أمرها فلم يرمموا ما تخرب من حصونها على يد الجيش الفارسي الذي احتل مصر عام ٦١٦ . لذلك استولى عليها العرب بسهولة ودمروا أسوارها وحصونها وتقدموا منها دون أن يتركوا أية حامية فيها تحمي خط مواصلاتهم الطويل ، لأن عمرو كان يريد أن يقتصد بكل جندي من قواته القليلة في المعركة التي ستدور في الداخل .

سلك الجيش العربي من الفرما إلى مدينة مصر « منف » طريقاً صحراوياً لم يسبق للفاتحين الأوائل سلوكه هو طريق : الفرما ، مجدل ، القنطرة ، الصالحية ، التل الكبير ، بلبيس ، منف . وكان غرضه من سلوك هذا الطريق تجنب الموانع المائية والأراضي الزراعية في الدلتا ، ومباغتة الروم بسلوك طريق غير متوقع ، مستفيداً من قابلية حركته وصغر جيشه وتعودهم على المسير في الأراضي الصحراوية وتحمل مشاقها .

موقف الروم :

كان الروم يستعدون لاعادة فتح سورية ، ولم يتوقعوا قيام العرب بالهجوم على مصر لذلك اهملوا الدفاع عنها ، فلم يرمموا حصون خط دفاعهم الأمامي ، ولم يضعوا حاميات قوية فيها للدفاع عنها . ولما سمعوا بتقدم العرب لم يحركوا ساكناً بل لبثوا وراء حصونهم الداخلية يعدونها للدفاع . ولقد علم قادتهم بصغر حجم القوة العربية المتقدمة لذلك فضلوا انتظارها قرب النيل لاطالة خطوط مواصلاتها وابعادها عن قواعدها في فلسطين والحجاز ثم عزلها والقضاء عليها على ضفاف النيل خاصة وإنها ستصل منهوكة القوى من جراء المسير الطويل الشاق .

احتلال بلبيس :

كانت بلبيس تقع شمالي شرق « مصر » ، القاهرة اليوم ، بمسافة ٣٣ ميلا . وكانت مدينة حصينة ومنيعة ، حاصرها العرب لمدة شهر وقد دافعت عنها حاميتها الرومية ببسالة منتظرة وصول النجدات لها .

حالما سمع المقوقس حاكم مصر بوصول العرب المفاجيء إلى بلبيس أرسل جيشاً تعداده ١٢ ألف مقاتل بقيادة الاطربون القائد السابق لجيش الروم في فلسطين ، لفك الحصار عنها وتدمير الجيش الغازي .

اشتبك الجيشان بمعركة حامية خسرها الاطربون وفر هارباً بعد أن ترك في أرض المعركة الف قتيل و٣ آلاف اسير . فاستسلمت بلبيس ودخلها عمرو ولبث فيها مدة شهر أعاد خلاله تنظيم قواته وتجهيزها منتظراً وصول النجدات التي طلبها من الخليفة قبل أن يترك « الفرما » . ولما استبطأ وصول النجدات سار نحو الغرب قاصداً مصر بعد أن انضم اليه عدد كبير من العشائر البدوية عوضوه عن خسائره في الفرما وبلبيس .

وصل العرب حصن « ام دنين » الواقع شمال حصن « بابليون » الشهير . وكان الحصنان يقعان على الضفة الشرقية لنهر النيل في محل القاهرة الحالية .

حصار بابليون :

قبع الروم وراء أسوار « أم دنين » و« بابليون » ولم يستغلوا تفوقهم العددي الساحق وأخذ المبادأة بالهجوم على الجيش العربي الصغير وتدميره اذ هزتهم هزيمتهم الشنعاء في بلبيس ، وهم ما زالوا يتذكرون هزائمهم السابقة في الأراضي السورية فكانت معنوياتهم في الحضيض .

قرر عمرو محاصرة الحصنين منتظراً وصول النجدات ، متحيناً الفرص لاسقاط احدهما .

كانت ام دنين تقع في محل حديقة الازبكية الحالية في القاهرة ، بينما كان

حصن بابليون يقع في محل مصر القديمة اليوم .

وبابليون حصن روماني[1] يقع قرب الكنيسة المعلقة في مصر القديمة ، سماه العرب بـ « قصر الشمع » . يحيطه سور بارتفاع ٦٠ قدماً وبسمك ١٨ قدماً ، وفيه عدد من الأبراج في جهته الجنوبية والشرقية . أما الجهة الغربية فكانت قائمة على النيل وفيها باب حديدية ترسو عندها السفن ، ويهبط منها درج إلى النهر . وإلى الغرب من الحصن كانت تقع جزيرة الروضة في وسط النيل ، وكانت ذات حصون قوية تتحكم في النهر وتزيد من مناعة الحصن ، وكان يصلها بالحصن جسر من السفن . وكان يحيط بالحصن خندق يأخذ الماء من النيل ، عليه قنطرة متحركة لا يستطاع فتحها أو تحريكها إلا من الداخل .

وكانت في الحصن حامية قوية مكتفية بذاتها تستطيع الصمود لمدة طويلة دون أن تحتاج إلى ماء أو غذاء حيث كان يوفرها لها الحصن ، اضافة إلى امكان امدادها بهذه اللوازم عن طريق النيل .

كانت تنقص عمرو أدوات الحصار الثقيلة ، فلم يكن معه أي عدد من المجانيق ، لذلك استعصى عليه تهديم أسوار الحصن . فقرر تجميع قوته وفتح حصن أم دنين الضعيف بالنسبة لبابليون ، فاستولى عليه بسهولة وجعله مقراً لقيادته ، وبعد الاستيلاء عليه وصلته النجدات الجديدة وعددها ٤ آلاف مقاتل فبلغ مجموع قوته مع ما التحق به من البدو عشرة آلاف مقاتل . يقابلهم في حصن بابليون ٢٥ ألفاً .

التقدم إلى الفيوم والعودة إلى بابليون :

قدر عمرو الموقف فوجد أنه غير قادر على اقتحام الحصن بقوته الحالية لتفوق الروم العددي ومناعة الحصن ، لذلك أرسل الى الخليفة يشرح له الموقف

---

(١) « معارك الاسلام الكبرى » ، جمال الدين حماد ص ٩٠ و٩٥ .

ويطلب اليه مدداً جديداً ليكون بمقدوره انزال ضـربة حـاسمة بـالروم واحتـلال مصر بأجمعها .

وحتى لا يبقى جيشه عاطلاً فيصيبه الملل والتـذمر قـرر التقدم نحـو الفيوم لاستطلاعها والقضاء عـلى قوة الـروم فيها والعـودة إلى بابليـون مرة ثـانية حـين وصول النجدات التي طلبها .

لـذلك استفـاد من السفن والزوارق التي استـولى عليها في أم دنـين وعبـر عليها بجيشه وسـار عبر الصحـراء ، حتى وصل اطـراف الفيوم ، فـأخذ يـرسل المفارز هنا وهناك تغير على القرى والدساكر ، ولقد أخبره بعض البدو من سكان المنطقة بتحرك كتيبة متسترة بالنخيل تريد مهاجمته على حـين غرة . فاستدرجهـا عمرو في أرض مختارة وقضى عليهـا وقتل قـائدهـا المدعـو « حنا » . وبعـد هذه المعـركة وصله رسـول من المدينـة يخبره بـأن الخليفة وافق عـلى ارسال قـوة كبيرة بقيـادة « الزبـير بن العوام » لنجـدته ، فعـاد مسرعـاً إلى أم دنين وعبـر النهر إلى الجهة الثانية والتقى بجيش الزبير الذي كان قد وصل توا وعسكر في هليو بوليس « عين شمس » . وكان عدد جيش الزبير ٨ آلاف مقاتل فيهم من أبطال العـرب « عبادة بن الصامت » و« المقداد بن الأسود » و« مسـلمة بن مخلد » .

ولقد ضيع « تيودور » قائـد الروم في بـابليون الفـرصة مـرة ثانيـة ، لعدم خروجه لتعقب عمرو عند مسيره إلى الفيوم ومحاصرتـه هناك ، ولم يهـاجم جيش الزبير حين وصولـه ليقضي عليه قبـل التقاء جيش عمـرو به . ولم يهـاجم جيش عمـرو عند عـودته إلى بـابليون قبـل عبوره ، ولم يتخـذ أي تدبـير للحيلولة دون عبوره إلى الجهة الشـرقية ومنـع اتصالـه بالجيش الآخـر . وكأن القـدر قد أعمى بصيرة القادة الرومان ، والخوف من العرب شـل تفكيرهم فنسـوا أبسط المبادىء الحربية .

معركة عين شمس

كانت عين شمس تقع على هضبـة مرتفعـة يسهل الـدفاع عنهـا . وكانت

المياه والارزاق متوفرة فيها وقربها . فعسكر فيها الجيشان العربيان ، وبدأ عمرو باستطلاعاته تمهيداً لوضع خطة تمكنه من فتح الحصن واستدراج الجيش الرومي إلى خارجه للقضاء عليه .

بلغت قوة العرب بعد وصول النجدات « خمسة عشر الفاً وخمسمائة جندي »[1] يقابلهم خمسة وعشرون الف جندي رومي »[2] في حصن بابليون .

ويبدو أن القائد الرومي قد وصلته تعليمات جديدة بعد إكمال تحشد الجيوش العربية في عين شمس فقد بدأ يستعد للخروج من الحصن والقيام بتعرض عام على القوات العربية لسحقها . وقد يكون هرقل ساءه تردد قادته وتقاعسهم وتخاذلهم فأرسل يأمرهم بتبديل خطتهم الدفاعية المستكنة وراء الحصون إلى الهجوم . وقد يكون القائد الرومي يئس من طول الحصار فقرر الخروج وخوض معركة حاسمة فأما النصر وأما الموت .

خطة العرب :

بينما كان عمرو يتدارس مع قادته الخطة المثلى لفتح الحصن أخبره جواسيسه أن « تيودور » قائد الروم قرر الخروج من الحصن والهجوم على معسكر العرب في عين شمس في اليوم التالي . فدرس القادة العرب الموقف الجديد مستبشرين بخروج الروم مقررين استغلال هذه الفرصة التي كانوا ينتظرونها للقضاء عليهم فاتفقوا على الخطة التالية التي تفتقت عنها عبقرية ابن العاص .

١ ـ ارسال قوة من ٥٠٠ جندي إلى الجناح الأيسر تكمن للروم في مغارة بني وائل عند قلعة الجبل .

٢ ـ إرسال قوة من ٥٠٠ جندي بقيادة « خارجة بن حذافة » إلى الجناح الأيمن تكمن قرب حصن أم دنين .

---

(١) الفاروق عمر محمد حسين هيكل ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) « العرب » فيليب حتي ج ١ ص ٢١٧ .

٣ ـ يتقدم باقي الجيش بقيادة عمرو إلى الأمام إلى منتصف الطريق بين عين شمس وبابليون ، (محل العباسية اليوم في القاهرة) ، وينتظر تقدم الروم عليه .

٤ ـ حال ما يشتبك القسم الأكبر بالروم يباغتهم الكمينان من الجانبين فتدور الدائرة عليهم .

المعركة

تموز ، يوليو ، ٦٤٠م

تحرك الكمينان تحت ستار الظلام وكمنا في محليهما المختارين وفي الصباح سار باقي الجيش إلى الموضع الذي تقرر قبول المعركة فيه . ولما خرج الروم من الحصن اخذوا يتسللون من بين البساتين والمزارع المحيطة بالحصن وكان على رأس الجيش تيودور بينما كان تيودوسيوس يقود الخيالة . علم الروم بتقدم العرب إلى العباسية فأخذتهم النشوة وسارعوا اليهم فالتحم الجيشان بمعركة رهيبة ، ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى إنحدرت الكتيبة اليسرى من مغارة بني وائل تضرب جناح الروم الأيمن ومؤخرتهم . فكانت مباغتة مثالية لم يكن يتوقعها الروم مطلقاً ، فاختل نظامهم وانخفضت معنوياتهم وتولاهم الفزع ، فانحرفوا إلى جهة اليسار نحو أم دنين ، عند ذاك خرج إليهم الكمين الثاني وبذلك انحصروا من جهاتهم الثلاثة ، فظنوا أن ثلاثة جيوش كبيرة تهاجمهم من ثلاثة اتجاهات، وكانت ضربات العرب شديدة ومتلاحقة فانهارت مقاومتهم وتمزق شملهم وهربت كتائبهم حيرى لا تدري أين تذهب ، دخلت احداها حصن بابليون بينما ركبت ثانية السفن التي كانت في النيل وقصدت الحصن نفسه . وقد قتل أغلب الجيش الرومي وتمكن العرب من استعادة أم دنين التي عاد إليها الروم بعد توجه العرب إلى الفيوم .

بعد هذه الضربة الماحقة ترك القسم الأكبر من جيش الروم بابليون

بالسفن إلى حصن « نقيوس » الكائن شمالي منوف على فرع الرشيد ، وبقيت في الحصن حامية تدافع عنه مستفيدة من مناعة أسواره . أما قائد الجيش « تيودور » فقد هرب إلى الاسكندرية بينما احتمى المقوقس في بابليون .

ضيق العرب الحصار على الحصن بعد أن احتلوا « منف » مصر ، ونقل عمرو معسكره من عين شمس إلى شمال الحصن بين البساتين والكنائس ، في المكان الذي شيدت به مدينة الفسطاط فيما بعد .

بعد المعركة :

قرر عمرو استغلال انهيار الجيش الرومي وفتح أكبر ما يمكن من أراضي مصر . فبينما شدد الحصار على بابليون أرسل كتيبة إلى الفيوم واستولت عليها . ثم سير كتيبة ثانية إلى جنوبي الدلتا واستولت على « اثريب » و« منوف » . ولقد فر عدد كبير من الروم إلى الاسكندرية ، أما السكان المحليون المصريون فكانوا يستقبلون الفاتحين المحررين ويمدون لهم كل مساعدة ممكنة ، فرحين بتخلصهم من نير الاستعباد الرومي والاضطهاد الذي كانوا يعانونه من زبانية هرقل والمقوقس .

طال الحصار على حصن بابليون وأخذ النيل بالفيضان وامتلأ الخندق حول الحصن بالماء ، وصار أمر مهاجمته متعذراً ، وبات العرب ينتظرون انخفاض منسوب المياه بفارغ الصبر .

ولما يئس المقوقس من وصول النجدات إليه قرر الدخول بمفاوضات مع العرب لعله يغريهم بالمال فيعودوا إلى بلادهم ، فأرسل اليهم وفداً يعرض عليهم عروضه ، ولما عاد الوفد حاملاً رد القائد العربي الذي جاء به : « أنه ليس بيني وبينكم إلا احدى ثلاث خصال : أما دخلتم في الإسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا . وأما أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وأما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

دهش المقوقس من هذا الرد وسأل وفده عن أحوال العرب فأجابه رئيسهم ؛ « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كأنه واحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » .

لما سمع المقوقس هذا الوصف قال : « والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لازالوها ، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد ! ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم إذا امكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم » .

وبعد سلسلة من المفاوضات الطويلة وافق المقوقس على دفع الجزية على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران على كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ سن الرشد ، ولا يشمل ذلك النساء والشيوخ والاطفال ، وأن يسمح للمسلمين النزول ضيوفاً في أي منزل يختارونه ، ومقابل ذلك لهم أرضهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وألا تمنع تجارتهم أو زراعتهم .

عقد هذا الصلح وعلق نفاذه على موافقة الامبراطور هرقل . واتفق الطرفان على أن تبقى جيوشهما في مواضعها لحين ورود موافقته . وسافر المقوقس إلى الإسكندرية ومنها أرسل نص الاتفاق إلى القسطنطينية ، ولما صعب على الامبراطور فهم الاتفاق استدعى المقوقس إليه ، ولما علم أنه يشمل مصر برمتها غضب على المقوقس واتهمه بالخيانة والجبن وعزله عن حكم مصر ونفاه ونقض الاتفاق ولم يوافق على ابرامه .

ولما علم العرب بذلك انتهت الهدنة وعاد القتال فشددوا الهجوم على الحصن مستغلين انتهاء فصل الفيضان وجفاف الأرض وخلو الخندق من المياه . وقد صنعوا خلال فترة الهدنة بعض المجانيق الكبيرة أخذت تقذف الحصن،

بحممها فأثرت فيه وبالمدافعين عنه . ورغم هذه الشهور السبعة الطويلة من الحصار لم يرسل قائد حامية الاسكندرية أية قوة لفك الحصار عن الحصن ، كما أن هرقل لم يهتم بإرسال قوة من عاصمته لايقاف تقدم الجيش العربي واستعادة ما خسره من أرض مصر .

وفي شهر أيار ، مايو ، ٦٤١م مات هرقل فضعفت معنويات المحصورين كثيراً فاستغل ذلك الزبير بن العوام فقاد كتيبة سارت تحت جنح الظلام وردمت الخندق في موضع اختاره لهذه الغاية وتسلقت الأسوار على سلالم أعدتها لهذا الغرض وقاتلت الحامية وفتحت الأبواب فدخل الجيش العربي برمته .

فتح الاسكندرية :

لبث العرب في بابليون ينظمون صفوفهم بينما أرسل عمرو بن العاص رسالة إلى الخليفة يستأذنه بفتح الاسكندرية . ولما وصلت الموافقة ترك حامية في الحصن بقيادة خارجة بن حذافة السهمي وتوجه مع باقي الجيش إلى الاسكندرية .

بعد وفاة هرقل توج ابنه قسطنطين أمبراطوراً فوجه هذا همه لاستعادة مصر . فاستدعى المقوقس من منفاه وعينه مرة ثانية حاكماً على مصر واعداً إياه بتسيير جيش كبير من العاصمة معه لهذه الغاية . إلا أن قسطنطين توفي بعد ثلاثة اشهر من تتويجه وحل محله ابنه كونستانس لذلك تأخر مسير هذا الجيش حتى ايلول ، سبتمبر ، سنة ٦٤١م .

سار الجيش العربي على الضفة اليسرى لفرع « رشيد » متجنباً الترع التي تكثر جنوب الدلتا مستصحباً معه عدداً من رؤساء القبط لاقناع الاهالي بمساعدته .

وكان أول اشتباك مع الروم قرب مدينة « ترنوط » فانتصر عليهم واستمر بزحفه حتى وصل « نقيوس » المحصنة فدارت حولها معركة ضارية انتصر فيها

العـرب ودخلوا المدينـة ، ثم استمروا في تقـدمهم ففتحـوا « دمنهـور » . تجمـع الجيش الرومي بكامله عند حصن « كريون » وهو آخر حصن يحمي الاسكندرية وكان يقودهم قائدهم الاكبر « تيودور » .

بلغ عدد الجيش العربي الذي وصل أطراف الاسكندريـة ١٥ ألف جندي حيث قد وصلتهم نجدات جديدة تعويضاً عن خسائرهم ولتسـاعدهم عـلى فتح الاسكنـدرية . وقـد استعـان العـرب بـالبـدو والمصـريـين الـذين دخلوا الـدين الإسـلامي لتقويـة جيشهم . وكـان عـدد الجيش الـرومي المـوجـود في كـريـون والاسكندرية ٥٠ ألف مقاتل . وعندما نشبت المعركة كـانت كفة الـروم راجحة في اليومين الأولين ، حيث استماتوا في الدفـاع عن مواقعهم وقـد استمر القتـال لمدة عشرة أيام دون نتيجة . إلا أن العـرب أصروا عـلى النصر في الـوقت الذي أخذت فيه معنوية الروم تنهار ومعنويات العـرب تقوى وعـزمهم يزداد ، فحملوا بشدة وضايقوا الروم مصممين على النصر أو الموت ، فانهارت مقاومة الروم أمام هذا الهجوم الساحق والاصرار العنيد وفروا هاربين إلى الاسكندرية تاركين عدداً كبيراً من القتلى في ساحة المعركة .

حاصر عمـرو الاسكندريـة ، وأراد أن يستغل انهيـار الجيش الرومي بعـد معركة كريون ويهجم على الاسكندرية فوراً ، ولمـا بدأ الهجـوم أخذ ينصب عـلى الجيش العـربي وابل من حجـارة المجانيق المنصـوبة فـوق أسوار المـدينة ، فـارتد العرب إلى وراء مرمى الحجارة .

وكان مقر عمرو شرقي المدينة بين « الحلوة » و« قصر فاروس » .

وكان البحر يحمي المدينة من شمالها وبحيرة مريـوط من جنوبهـا ، وترعـة الثعبان تدور حولها من الغـرب ، وكان الـطريق الوحيـد إليها من الشـرق حيث تزداد مناعة حصونها وقوتها .

ولمـا طال الحصـار أرسل عمـرو بعض كتائبـه تجوس خـلال الدلتـا فاتحـة مدنها ، كما أرسل كتيبة قوية لفتح الصعيد . ولقد تم فتح مدن الدلتـا والصعيد

وبقيت الاسكندرية وحدها صامدة لمدة تزيد على السنة مستفيدة من البحر في تموينها .

استبطأ الخليفة فتح الاسكندرية فأرسل كتاباً إلى قائده ابن العاص جاء به :

« أما بعد ، فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم . وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم . وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر[1] وأعلنتك أن الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد . وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة ، وليعج الناس إلى الله ويسألونه النصر »[2] .

قرأ عمرو كتاب الخليفة على جنده واستشار قادته وقرر الجميع شن هجوم عام على المدينة . فكان ذلك يوم الجمعة مستهل محرم سنة ٢٠ هـ . وبعد قتال مرير استخدم فيه العرب السلالم والحبال في تسلق أسوارها تمكنوا من دخولها وتم استسلام المدينة .

أجمع مؤرخو العرب كافة على أن الجيش العربي دخل الاسكندرية قتالا . أما مؤرخو الغرب فقالوا أنهم دخلوها صلحاً .

وقد جلا الروم عن الاسكندرية عدا المقوقس الذي توسل أن يبقى بقصره

(١) وهم الزبير بن العوام والمقداد وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد .

(٢) الفاروق عمر ـ محمد حسين هيكل ـ ج ٢ ص ١٤٢ .

فسمح له وتوفي ودفن فيها.

كان فتح الاسكندرية فاتحة لاخضاع مصر كلها. فقد استولى خارجة بن حذافة على الصعيد ووصل إلى حدود طيبة وكذلك تم الاستيلاء على باقي المدن والدساكر.

لم يكتب المؤرخون الكثير عن معارك فتح مصر، فجاءت بحوثهم ناقصة، فهم لم يفصلوا أدوار معركة عين شمس، كما لم يتكلموا عن معركة كريون الهامة التي مهدت الطريق لفتح الاسكندرية، وجاء كلامهم عنها مبهماً، كذلك لم نعرف كيف تم اقتحام الاسكندرية.

وبالرغم من هذه النواقص التاريخية فإن ما كتب عن معركة عين شمس يدلنا على عبقرية القادة العرب في وضع الخطط وتنفيذها. فقد طبق فيها مبدأ المباغتة بصورة رائعة، إذ كان لخروج الكمينين على جانبي الجيش الرومي تأثير كبير في تقرير نتيجة المعركة بالنصر الحاسم للعرب.

وتبرز في معارك مصر قابلية الحركة لدى مقاتلي الجيش العربي، فكانوا يتنقلون من محل إلى آخر بسرعة فائقة ومهارة أوقعت الرعب في نفوس عدوهم فكانوا سادة الميدان في كل محل.

مَعركَة لكة
(وَادي البربَاط ، ٧١١م)

بعد أن أستقر الأمر للعرب في شمال افريقيا واعتنقت القبائل العَرَبيّة والبربرية الدين الإسلامي ، وتحققت وحدة المغرب العربي مع المشرق العربي ، بدأ القادة العرب يفكرون بنشر الرسالة الإسلامية في ربوع العالم أجمع ، وكان لا بد من غزو آسيا وأوروبا لترغيب شعوبها في الدخول بالدين الجديد . ولم يكن أمام العرب لغزو أوروبا إلا طريق القسطنطينية وطريق جبل طارق . ولما عجزوا عن فتح القسطنطينية بدأوا يفكرون في الطريق الثاني الذي يسره لهم استيلاؤهم على ساحل شمالي افريقيا بأجمعه ، مستغلين اضطراب الحال في اسبانيا نتيجة تنازع امرائها على العرش .

لذلك قرروا استغلال هذه الفرصة والعبور إلى اسبانية لاخضاعها للدين القويم وليجعلوا منها رأس جسر وقاعدة لغزو اوروبا .

فتح الاندلس :

تمكن موسى بن نصير والي شمالي افريقيا من اخضاع هذه الاصقاع وضمها للامبراطورية العربية ، ولقد استعصت عليه مدينتا « طنجة » و« سبتة » الواقعتان في الريف المغربي أمام صخرة جبل طارق مباشرة . فركز جهوده لاحتلالهما . فتمكن من طنجة وولى عليها طارق بن زياد الليثي أحد قادة جيشه

البارزين . ثم حاصر سبتة إلا أنه فشل في فتحها فعاد إلى مقره في القيروان بعد أن ترك طارق ومعه تسعة عشر ألف مقاتل في طنجة .

كان القائد الفاتح يتطلع إلى فتح جديد يضمه إلى امبراطورية العرب ، وينشر راية الإسلام الخفاقة في ربوع جديدة . ولقد فكر في عبور البحر والتوجه إلى اسبانيا لفتحها ، وقد شجعه بعض المغاربة الذين كانت لهم صلات تجارية مع الاسبان بما أخبروه عن اضطراب حالها وانقسام امرائها . لذلك قرر اخضاع سبتة أولاً وبأي ثمن كان ليتخذها قاعدة امينة للغزو المنتظر ، وكان من غير المعقول أن يعبر إلى الساحل الآخر ويترك سبتة وحاميتها خلفه تهدده دوما وتمنع أية امدادات له أثناء زحفه في اسبانيا . لذلك أوعز إلى طارق اخضاع قبائل « غمازة » و« براغوطة » القاطنة بين سبتة وطنجة ، ومراقبة سبتة وانتهاز أية فرصة لفتحها .

كانت سبتة مدينة محصنة خاضعة للرومان يحكمها الكونت « جوليان » . وكان هذا تابعاً بالأسم لبيزنطة ، وعندما قضى العرب على قوتها العسكرية في افريقيا طلب حماية الملك « غيطشة » ملك اسبانيا ليساعده ضد الغزو العربي ، فحالفه هذا وأمده بالعون والمدد .

ولما كانت قوة طارق في طنجة تزداد يوماً بعد يوم خشي « جوليان » هذه القوة المتزايدة فدخل معه بمفاوضات انتهت بالصلح . وفي هذه الاثناء حصلت ثورة في اسبانية ضد « غيطشة » قادها الأمير القوطي « لذريق » فقتل غيطشة وحل محله على العرش الاسباني ، وشرد أولاد الملك السابق واخوته . أخذ جوليان يساعد هذه العائلة سراً على استرداد العرش المغتصب . وكانت له ابنة جميلة اسمها « فلورندا » تعيش في قصر الملك في اسبانية مع عائلته لتتأدب بأداب الملوك ، طبقاً للعادة التي كانت سارية في ذلك الوقت ، حيث يرسل امراء الاقاليم أبناءهم إلى قصور الملوك للتأدب ظاهرياً بينما هم في الحقيقة رهائن خشية قيام حكام الاقاليم بثورة ضد العرش أو مخالفة أوامره . هام لذريق حباً

بفلورندا فاغتصبها ، ولما سمع والدها بذلك قرر الانتقام منه ، ولم يجد إلا التحالف مع العرب وتسهيل أمر عبورهم إلى اسبانية ، خاصة وأنه كان على علم بأفكار موسى بن نصير ورغبته في فتح اسبانية . عبر جوليان إلى اسبانية واحتال على لذريق وأقنعه بالسماح لابنته بالعودة معه لمشاهدة والدتها المريضة . ولما عاد بها اخذ يحث « طارق » على اقناع موسى بغزو اسبانية وقد وعده بتقديم السفن وكل المعونات اللازمة لعبور البحر بشرط الا يتعرض العرب لـ « سبتة » أو ينتقصوا من سيادتها . وقد قبل طارق هذا العرض .

تحالف اولاد الملك المقتول « غيطشة » مع جوليان و« اخيلا » حاكم طنجة السابق الذي دخل بذمة المسلمين على مساعدة العرب ضد لذريق وقرروا وضع كل امكاناتهم تحت تصرف العرب ظناً منهم أنهم سيستردون عرشهم إذا قضى العرب على لذريق .

في سنة ٩٠هـ (٧٠٩م) ارسل طارق جوليان إلى القيروان ليشرح لموسى طبيعة الموقف في اسبانية وسهولة فتحها .

طلب موسى من جوليان القيام بغارة على الاندلس ليتأكد من صدق اخلاصه ، وليورطه حتى لا يخون الجيش العربي عند نزوله إلى الشاطىء الاسباني .

قام جوليان بالغارة التي اعتبرت بمثابة اعلان حرب بينه وبين لذريق .

أرسل موسى إلى الخليفة « الوليد بن عبد الملك » يستأذنه بالعبور إلى اسبانية ، فوافق الخليفة وأرسل إلى موسى وصاياه التي جاء بها : « خضها - أولا - بالسرايا[1] حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » .

---

(١) أي بقلة من الجيش .

فرد عليه موسى قائلاً : « أنه ليس ببحر زخار وإنما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه » .

فرد عليه الخليفة : « عليك ان تكتشفها بنفر قليل من الفرسان قبل مغامرتك بجيش كبير » .

نجاح قوة الاستطلاع :

قرر موسى إرسال قوة صغيرة لاستطلاع الساحل الجنوبي من الاندلس ، وطلب من جوليان أن يضع تحت تصرفه السفن اللازمة لنقل هذه القوة عبر المضيق الضيق الذي يفصل اسبانية عن الريف المراكشي .

ألف موسى كتيبة قوامها اربعمائة راجل ومائة فارس اسند قيادتها إلى القائد « أبو زرعة طريف بن ملوك المعافري » وكلفها بمهمة النزول على الساحل الاسباني لاستطلاعه ودراسة طبيعة أرضه وأحوال سكانه ، ورفع تقرير مفصل يستند عليه في وضع خطة حملته القادمة على الاندلس .

توجهت الكتيبة إلى سبتة ، ومن هناك ركبت السفن الأربع التي اعدها لهم جوليان الذي ارسل معهم مفرزة من قواته لمساعدتهم ودلالتهم .

اجتازت القوة مضيق جبل طارق الذي كان يسمى وقتذاك مضيق « جبل كالبي » ، ونزلت في « بالوماس » على مقربة من الموضع الذي انشئت فيه بعد ذلك بلدة « طريف » والتي تسمى اليوم « رأس طريف » . وقد كان في استقبالهم أعوان أولاد غيطشة وجوليان مع كتيبة من اتباعهم كانت تحمي مؤخرة القوة العربية في تقدمها بالأرض الاسبانية ، وكان ذلك في رمضان سنة ٩١هـ (٧١٠م) .

إنطلق فرسان العرب يجوبون شواطىء اسبانية الجنوبية مستطلعين ارضها وأحوالها ، وقد عادوا إلى افريقيا بعد اتمام مهمتهم ، وقد يسر هذه المهمة لهم

ضعف سيطرة « لذريق » على الساحل الجنوبي لاسبانية وعطف سكانه على عائلة الملك المقتول وموالاتهم لها .

قدم القائد طريف تقريره الكامل إلى موسى بن نصير الذي قرر على ضوئه ارسال جيش كبير للبدء بالفتح الجديد عهد بقيادته لقائده الشاب طارق بن زياد .

كان طارق من أبرز القادة في شمالي افريقيا ، ولقد اختلف المؤرخون في أصله ، وإن أرجح الروايات تقول أنه من إحدى القبائل العربية التي هاجرت إلى شمالي افريقيا قبل الإسلام واختلطت بالبربر وتطبعت بطباعهم حتى غلبت عليهم الصفة البربرية ، وهو ينتسب إلى بطن من بطون « نفزة » ، تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله . وكان أبيض الوجه ، اشقر الشعر ، أزرق العينين .

برز طارق في حروب المغرب ، واثبت حنكة وبراعة فائقتين ، فكان سياسياً بارعاً وقائداً فذاً ، وإدارياً قديراً ، اكتسب خبرة واسعة في فنون الحرب ، وقد استطاع ترويض العشائر البربرية وقيادتها بقوة شخصيته وشجاعته وحسن إدارته .

عبور طارق إلى الأندلس[1] :

قرر موسى إرسال جيش قادر على إخضاع جنوبي الأندلس فقط ، وذلك ليجس نبض القوط ويعرف مقدار قوتهم الحقيقية ومقدرتهم الحربية ومعنوياتهم وصلابتهم قبل التورط في إرسال جيوش كبيرة والقيام بمغامرة كبرى لفتح الأندلس بكاملها .

---

(١) يطلق المؤرخون العرب كلمة الاندلس على شبه جزيرة ايبريا المكونة من اسبانيا والبرتغال . وبعضهم يطلقها على اسبانيا المسلمة ، أي الأقاليم التي دانت للعرب فقط . وفي العصور المتأخرة اصبحت تطلق فقط على ولايات الاندلس الواقعة جنوبي اسبانيا بين نهر الوادي الكبير والبحر ، وما زالت الاندلس تحتل في تقسيم اسبانيا الاداري الحاضر نفس هذه المنطقة .
وان اسم الاندلس مشتق من كلمة « فاندالوسيا » ، أي بلد الوندال الذين سكنوها في القديم .

كانت قوة طارق لا تزيد على سبعة آلاف مقاتل بدأت العبور من « سبتة » في أواخر شهر ربيع الثاني سنة ٩٢هـ الموافقة لسنة ٧١١م مستفيدة من السفن الأربع التي أعدها لهم الكونت جوليان . لذلك قرر العبور على دفعات . وبعد خمسة أيام هبطت آخر دفعة من الجيش العربي ، وكان بضمنها طارق والكونت جوليان .

ولقد حمى انصار الكونت في الساحل الاسباني عبور الجيش العربي وانضموا إليه ، وكان عددهم يزيد على الخمسة آلاف مقاتل .

نزلت قوة طارق في المنطقة الصخرية المقابلة للشاطىء المغربي والتي سميت منذ ذلك الوقت بجبل طارق .

وفي حال عبور الجيش أخذ طارق يستطلع المنطقة دارساً طبيعتها ، فقرر تحصين منطقة الجبل ليتخذ منها قاعدة قوية لانطلاقه داخل البلاد الاندلسية ، وليحتمي بها إذا ارتد أمام جيوش الخصم . وبعد أن فرغ من تحصين المنطقة ، أرسل فرقة بقيادة عبد الملك بن عامر سارت بمحاذاة الساحل الجنوبي لاسبانية بقصد حماية جناحه الأيمن اثناء توغله نحو الشمال . تمكنت هذه الفرقة من الاستيلاء على المنطقة الكائنة بين قرطاجنة والجزيرة الخضراء ، عهد بحراستها وقاعدته في الجبل إلى كتيبة من كتائب الكونت جوليان .

بعد أن أمن طارق قاعدته وجناحه الأيمن ، وتأكد من سلامة خط مواصلاته مع قاعدته الرئيسية في « سبتة » سار بقوته الكبرى لفتح قرطبة .

اتجه طارق نحو رأس طريف ، ومنه سار إلى الشمال في أراض سهلة ، ثم مر بين جبلي « سيليا دل بابا » و« سيراديل رتين » واقترب من بحيرة الخندق « لاخندا » ، وكان بين البحيرة و« سيرادل رتين » سهل واسع سار فيه حتى وصل نهر البرباط ، « برباتي » ، الذي يخترق بحيرة « لاخندا » وعسكر على ضفته الجنوبية قرب قرية تدعى « لكة » ، وقد سمي بعض المؤرخين الوادي باسمها « وادي لكة » .

يذهب بعض الباحثين بأن معركة جرت قرب مدينة شريش الواقعة قرب مصب نهر « جوادا ليتي » في خليج قادس ، ظناً منهم بأن « جوادا ليتي » هي تحريف للتسمية العربية « وادي لكة » . إلا أن معظم المصادر تدل على أن المعركة وقعت على ضفة نهر البرباط الشمالية حيث استفاد طارق من مناعة السهل الكائن بين بحيرة « لاخندا » وجبل « سيرادل رتين » كمنطقة تحشد لجيشه ، والتهيؤ لصد قوات القوط التي أخذت تتحشد في قرطبة بأمر من « لذريق » الذي كان يستعد لصد العرب ودحرهم إلى البحر بعد أن وصلته انباء نزولهم إلى البر الاسباني .

اتخذ طارق هذا المكان المنيع ليدافع به عن قاعدته لما سمع بأنباء التحشد الكبير الذي يعده عدوه .

وعندما قدر الموقف وجد أنه غير قادر على صد هذا الجيش بقوته القليلة ، لذلك أرسل « طريف بن ملوك » إلى افريقيا ليشرح لموسى الموقف ويطلب اليه تعزيز قوته لمجابهة هذا الخطر القادم .

بعد أن أطلع موسى على الموقف وقدر خطورته ارسل قوة تقدر بـ ٥ آلاف مقاتل عبرت المضيق على سفن سبق لموسى بناءها بعد عبور طارق مباشرة . ولقد وصلت هذه القوة منطقة التحشد قبل إكمال تحشد « لذريق » .

موقف الجيش القوطي وتحشده :

لما علم « لذريق » بنزول العرب إلى اسبانية أخذ يتودد إلى اعدائه ابناء الملك « غيطشه » واخوته ، فأرسل اليهم من يفاوضهم على الاتحاد ضد الغزاة العرب . وقد قرر هؤلاء الاتفاق معه ظاهرياً مبيتين له الغدر حيث كانوا يعتقدون أن العرب سيكتفون بالاستيلاء على الغنائم والعودة تاركين لهم الانفراد بحكم اسبانية . ولم يدر بخلدهم أن العرب اصحاب عقيدة ومثل وإنهم ما جاءوا لكسب المغانم ، بل جاءوا مبشرين بعقيدتهم السمحاء ، ومبدئهم

القـويم ، قـوم اشتـروا وبـاعـوا الحياة في سبيـل تحقيق رسـالتهم وتكـوين امبراطوريتهم الخالدة . هكذا كان العرب وقتذاك .

إنضم أولاد « غيـطشـة » ومن معهم إلى « لـذريق » ، ولمـا كمـل تحشـد الجيش القوطي في قرطبة البالغ عدده بـ ١٠٠ الف مقاتل توجه بـه نحو الجنـوب حتى وصـل « شـذونـة » وهي مـدينـة منيعـة واقعـة بـين نهري « جـوادا ليتي » و« البرباط » واتخذها منطقة تحشد أمامية لقواته ، واخذ يستعـد فيها للمعـركة . ولما أنجز استعداداته تقدم وعسكر شمال البرباط .

المعركة

جمع طارق المعلومـات اللازمـة عن خصمه ، فـوجد أن « لـذريق » حشد جيشـاً كبيراً يسـاوي خمسة أضعـاف قوتـه ، إذ كان مجمـوع قوتـه وقوة الكـونت جوليان لا تزيد عن الـ ٢٠ الف مقاتل . وبهذه الحالـة لا يمكن التغلب عليه إلا بـالإيمان والاستبسـال والشجاعـة الفائقـة ، لذلـك أراد أن يلهب حماسـة جيشه ويقطع عليهم أي تفكير للردة والفرار فأما النصر أو المـوت ، فقرر بعـد استشارة قادته إعادة السفن التي قدموا بها إلى الساحل الافريقي .

تذهب بعض المصادر أنه أمر بحرق السفن ، والمنطق يخالف هذا الرأي ، فالمعقول أن تعود هذه السفن إلى مينـاء « سبتة » لتكـون تحت تصرف مـوسى بن نصير لكي يستخدمها في ارسال الامدادات له . ثم أن ملكيتهـا كانت تعـود إلى الكونت جوليان .

وإذا كانت غايته شحذ معنـوية قـواته وقـطع املهم من العودة إلى افـريقيا فعودة السفن إلى « سبتة » تفي بهـذا الغرض . لـذلك فـأنا لا أميـل إلى تصديق عملية حرق السفن .

وبعـد عودة السفن ، أو حـرقهـا كـما قيـل ، وقف طـارق وألقى خـطبتـه المشهورة التالية[1] :

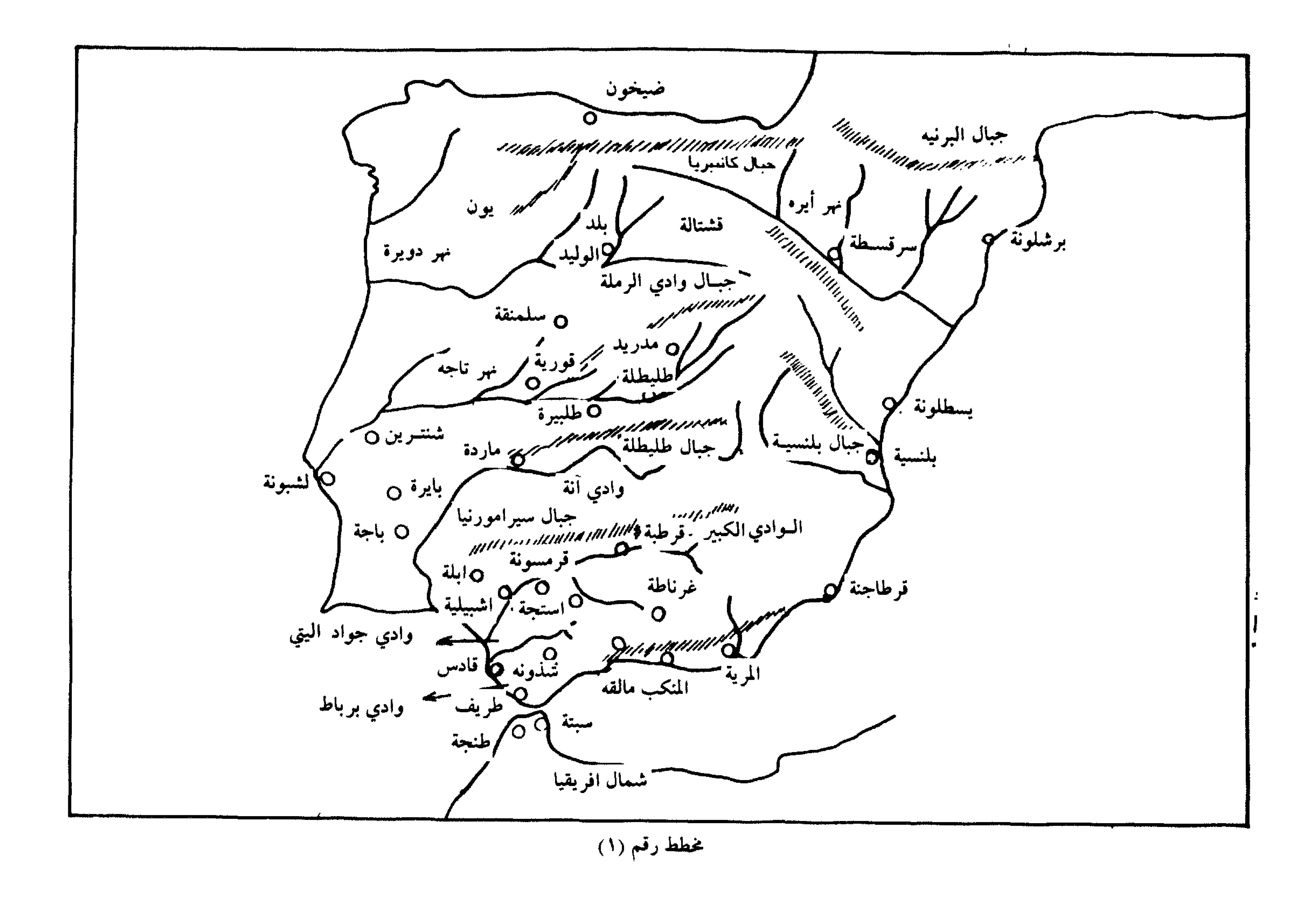
« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، وإعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته وقواته مـوفـورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيـوفكم ، ولا أقـوات لكم إلا مـا تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتـدت بكم الأيام عـلى افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجـرأة عليكم ، فادفعـوا عن أنفسكم خذلان هـذه العاقبـة من أمـركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد القت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لانفسكم بالموت . وإني لم احذركم امـراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة ارخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسي ، واعلمـوا أنكم إن صبرتم عـلى الأشق قليلاً استمتعتم بـالأرفة الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظي » .

إلى أن يقول :

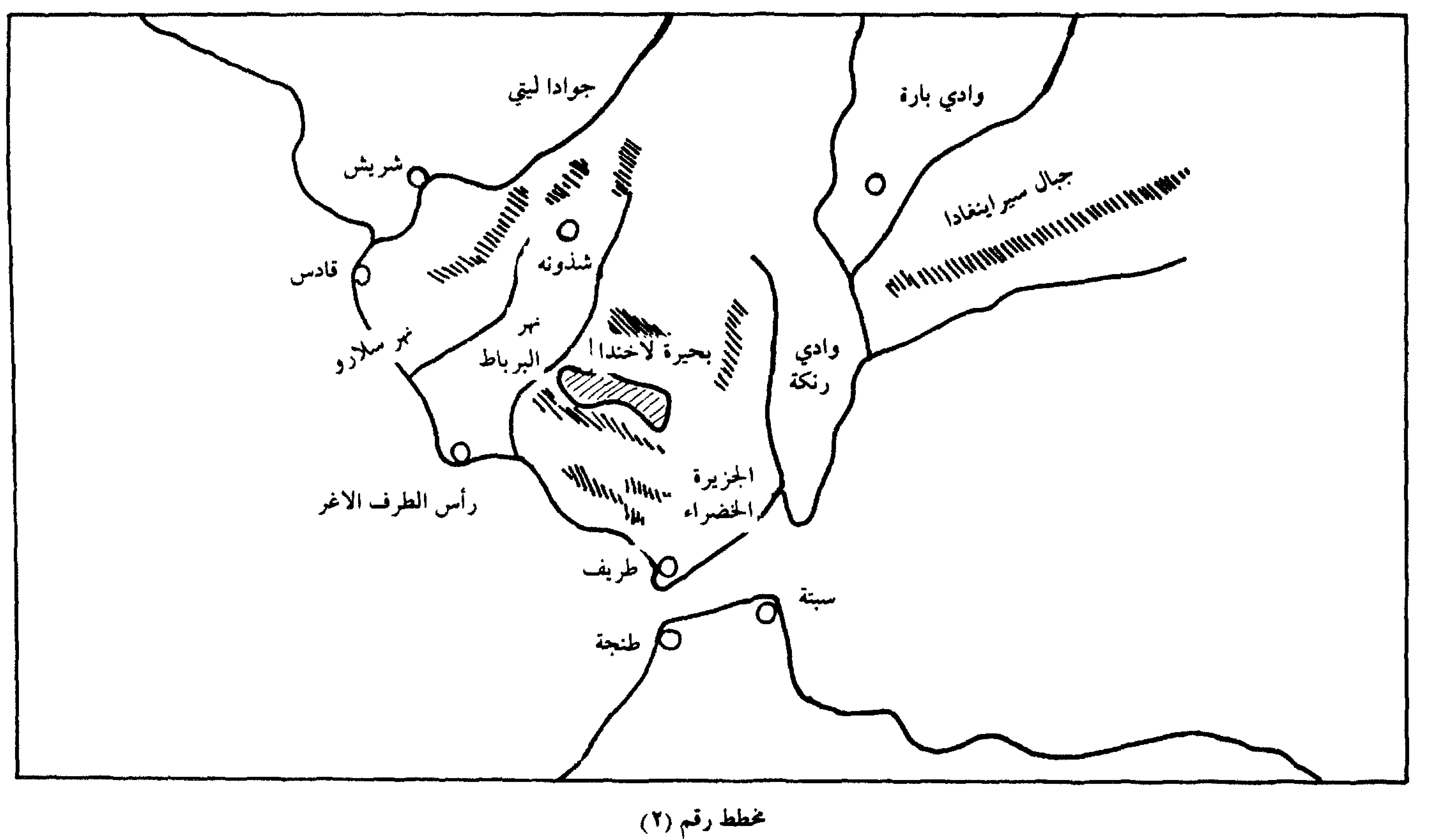
« أيهـا الناس : مـا فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملت فـاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتـال . وإني عامـد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى اخـالطه وأمثـل دونه ، فـإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم ، فتبدوا بـين قتيـل وأسـير ، وأيـاكم أيـاكم ان تـرضـوا بـالـدنيـة ، ولا تعـطوا

---

(١) لم يـرد في كتب المؤرخين الأوائـل ذكـر لهـذه الخطبـة بـل وردت في كتب المؤرخـين والادبـاء المتـأخرين . لـذلك يشـك في نسبتها إلى طـارق ، بالـرغم من أن من عادة القـادة العرب القـاء الخطب على جنودهم قبل المعركة .


ضيخون
جبال البرنيه
حبال كانتبريا
يون
بلد
قشتالة
نهر أيره
سرقسطة
برشلونة
نهر دويرة
الوليد
جبال وادي الرملة
سلمنقة
مدريد
قورية
نهر تاجه
طليطلة
طلبيرة
يسطلونة
شنترين
جبال طليطلة
جبال بلنسية
بلنسية
ماردة
لشبونة
بايرة
وادي آنة
جبال سيرامورنيا
الوادي الكبير
قرطبة
باجة
قرمسونة
ابلة
غرناطة
قرطاجنة
اشبيلية
استجة
وادي جواد اليتي
قادس
شذونه
المرية
المنكب مالقه
طريف
وادي برباط
سبتة
طنجة
شمال افريقيا

مخطط رقم (١)



مخطط رقم (٢)
وادي نهر البرباط

بـأيـديكم ، وارغبـوا فيـها عجـل لكم من ثـواب الشهـادة ، فـإنكم أن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم تبوؤا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بـين من عرفكم من المسلمـين ، وها أنـذا حـامـل حتى اغشـاه فـاحملوا بحملتي » .

كان نهر البربـاط يفصل بـين الجيش العربي والقـوطي ، ولقد قـدر طارق الموقف مع الكـونت جوليـان وقرر العبـور وأخذ المبـادأة بالهجـوم بعنف ، وذلك ليساعد على تقوية معنويات قوات عائلة غيطشة التي كانت تحارب بجانب لذريق فيشجعها على تنفيذ الخطة التي سبق لهم الاتفاق عليها مـع جوليـان وذلك بتـرك لذريق والانسحاب من المعركة لتمكين العرب من النصر .

في يوم الأحد ٢٨ رمضـان سنة ٩٢هـ المصـادف ١٩ تموز ، يـوليو ، سنـة ٧١١م بـدأت طـلائـع الجيش العـربي بعبـور وادي البـربـاط وقـامت بهجمـات استطلاعية استمرت لمدة ثلاثة أيام تمكن خـلالها القسم الأكبـر من العبور إلى الضفـة الأخرى . وفي الـوقت نفسه استـطاع العرب بواسـاطتهـا معـرفـة نقـاط الضعف في مواقع خصمهم .

وفي اليوم الرابع بدأ الهجـوم العربي العـام ، وقد قـاتل فـرسان القـوط في البداية بشجاعة وثبات ، وبات مصير المعركة متأرجحاً ، وكان العـرب يهاجمـون بحماسة وعناد واصرار عـلى احراز النصـر ، تدفعهم عقيـدتهم وإيمانهم ، ولقـد استمرت المعركة الرئيسية لمدة أربعة أيام . وكان الجيش القوطي رغم كثرته مختل النظام ، منحل القـوى ، وكان يقـود جناحيـة « أبة » و« ششبـرت » أولاد الملك غيطشة ، ولقد استمال هؤلاء بالتعاون مع عمهما الأسقف « اويـاس » كثيراً من جند القوط .

في اليـوم السـابـع للمعركـة اشتدت ضـربـات العـرب وبـدأت قـوة أولاد غيطشة بتنفيذ خطة الانسحـاب من مواقعهـا ، فانسحب الجنـاحان وثبت القلب الذي كان يقوده الملك نفسه قليلاً ، إلا أن إنسحاب الجناحين كان كافيـاً ليوقـع

الفوضى في الجيش ، فاضطرب نظامه وتضعضعت صفوفه وإنهارت معنوياته ، فلاذ بأكمله بالفرار باتجاه الشمال . ويرجح أن القسم الأعظم من الهاربين عبر وادي « جوادا ليتي » ، وكان العرب يطاردونهم فأوقعوا بهم خسائر فادحة واستولوا على معظم الخيل التي كان يمتطيها فرسان القوط . ويقال أن لذريق نفسه قتل في هذه المعركة وإن لم يعثر على جثته بل وجد حصانه المطهم بسرجه المذهب على ضفة النهر فظن أنه قضى نحبه غرقاً . بينما يذهب بعض المؤرخين إلى أنه عبر النهر سباحة وهرب إلى الشمال حيث استطاع تأليف جيش جديد اشتبك به بعدئذ بجيش موسى بن نصير في معركة السواقي ولقى حتفه في تلك المعركة .

المطاردة :

على اثر انتصار العرب الساحق في المعركة ، تمزق الجيش القوطي وهرب جنوده كل قسم في جهة ، فتحصنوا بالجبال والهضاب ، وكان أكبر تجمع لهم في مدينة « استجة » . ولقد حث طارق السير لمطاردتهم بهذا الاتجاه الذي يوصله إلى هدفه الرئيسي « قرطبة » ، حتى أنه لم يعر أية أهمية لاحتلال مدينة « شذونة » بل تركها على جانبه وسار مسرعاً وراء قوة القوط الكبرى لتدميرها قبل ان تفيق من صدمتها وتنتعش معنوياتها . فلحق بها في « استجة » فكانت معركة رهيبة ثانية انتهت بانتصاره .

بعد المعركة :

في استجه وضع طارق خطة تقدمه لاحتلال الاندلس ، حيث قرر استغلال فرصة انهيار الجيش القوطي واحتلال اكبر ما يمكن من أرض الاندلس وضمها للامبراطورية العربية مخالفاً بذلك وصايا موسى بن نصير له بالاكتفاء باحتلال القسم الجنوبي فقط . واعتقد أن عمل طارق كان صائباً وصحيحاً إذ لا يمكن انتظار موافقة القائد العام الذي كان في القيروان على التوغل نحو الشمال ، لأن ذهاب الرسول وعودته قد تستغرق اكثر من شهر ، وبذلك تضيع

الفرصة ويستعد القوط للمقاومة . وكانت خطة تقدمه الجديدة تتلخص بـ :

١ ـ يسير طارق بالقوة الكبرى إلى « طليطلة » عاصمة القوط لاحتلالها .
٢ ـ يسير مغيث الرومي على رأس قوة تتألف من ٧٠٠ فارس لاحتلال « قرطبة » .
٣ ـ ألف قوة عهد بقيادتها إلى « زيد بن قاصد » لاخضاع مدن الجنوب .

شرعت القوات الثلاث بتقدمها فوراً . واستطاع جيش الجنوب الاستيلاء على مالقة وغرناطة . أما مغيث فوصل الضفة الجنوبية للوادي الكبير وعسكر جنوبي القنطرة المهدمة التي كانت تصل الشاطىء الجنوبي بالمدينة وأخذ يتحين الفرص للعبور وتسلق أسوار المدينة . ولقد دله بعض الاهالي على مخاضة في النهر عبر منها في ليلة غزيرة المطر من ليالي شهر آب ، اغسطس ، وتسلقت مفرزة من الجيش اسوار المدينة من ثغرة دلهم عليها أحد الرعيان المحليين ففتحوا الأبواب ودخل الجيش إليها وأسر حاكمها القوطي .

أما طارق فعبر الوادي الكبير قرب « منسجبار » وسار في الطريق القديم الذي كان يعرف بطريق « هنيبعل » حيث اخترق جبال « سيراموربنا » ، « جبال الشارات » ، التي تفصل بين الاندلس الجنوبية وقشتالة ، وكان يرشده جوليان وصحبه . وقد استطاع احتلال طليطلة دون مقاومة تذكر حيث تركها القوط دون دفاع . وفيها استولى طارق على المائدة الرائعة التي سميت مائدة سليمان بن داوود ، وكانت مصنوعة من الزبرجد الأخضر وكان لها ثلاثمائة وخمس وسبعون رجلاً ، ويقال أن القساوسة كانوا يضعون عليها الاناجيل .

قضى طارق فصل الشتاء في طليطلة أعاد خلاله تنظيم جيشه وأراح قطعاته من عناء المعارك السابقة وبدأ ينظم أمور البلاد التي فتحها ، فأعاد لأولاد غيطشة بعض املاكهم جزاء لمساعدتهم له ، ولقد اكتفوا بها وزال حلمهم بالحكم بعد أن ايقنوا ان العرب لن يرحلوا عن بلادهم فآثروا السلام وكسب صداقة الفاتحين بدلاً من عدواتهم .

وما أن حل فصل الربيع حتى واصل زحفه شمالاً فاخترق قشتالة ، ثم ليون سائراً في طرق وعرة لم يألفها جيشه من قبل ، وطارد فلول القوط حتى « استرقة » . ثم توجه إلى ميناء « خيخون » الواقع على ساحل خليج باسكاي ثم عاد إلى طليطلة ينتظر أوامر موسى بن نصير الذي اصدر اليه الأمر بايقاف الفتح وعدم التقدم من طليطلة بعد ذلك الا بأمره .

موسى بن نصير في الاندلس

وصلت انباء النصر الساحق الذي احرزه طارق إلى موسى بن نصير ، وبعد أن درس الموقف وجد أنه ليس بامكان قوة طارق فتح اسبانيا برمتها ، فلا بد من إرسال قوة اخرى تساعده على ذلك . كما درس خط زحف طارق فوجده يتجه نحو الشمال الشرقي وقد ترك أغلب مدن الغرب بيد العدو تهدد جناحه ومؤخرته ، خاصة وأن بعض جنود القوط الفارين لجأوا إليها . وفي الوقت نفسه كان لذريق الذي يقال أنه نجا من القتل في معركة لكة يجمع جيشاً جديداً لدحر الجيش العربي المتقدم . لذلك جمع موسى جيشاً تعداده ١٨ ألف مقاتل قاده بنفسه ونزل الساحل الأندلسي في رمضان عام ٩٣هـ (٧١٢م) في موقع سمي منذ ذلك الحين « رأس موسى » . وكان في استقباله الكونت جوليان الذي شرح له الموقف ، وعلى ضوء ذلك وضع خطة تقدمه .

قرر موسى التقدم باتجاه الشمال الغربي . فاستولى على مدينة شذونة التي سبق أن تركها طارق متجنباً البقاء مدة طويلة محاصراً حصونها . ثم استولى على « قرمونة » واشبيلية ، ثم توجه إلى ماردة وهي امنع مدن اسبانيا على الإطلاق . وبعد حصار استمر عدة أشهر تخللته معارك ضارية اضطرت إلى الاستسلام فدخلها صلحاً .

وبعد فتح ماردة قامت ثورة في اشبيلية ضد الحامية العربية التي ابقاها فيها ، فاضطر أن يرسل ابنه عبد العزيز على رأس قوة لاخماد هذه الثورة . وبعد

اخضاعها توجه عبد العزيز إلى « باجة » و« بايرة » و« شنترين » واستولى عليها جميعاً .

كان القوط يتحشدون في المنطقة الكائنة بين نهري « آنة » والتاجة » . فقرر موسى مهاجمتهم قبل اكمال تحشدهم ، لذلك طلب إلى طارق أن يتقدم من طليطلة ليلاقيه في « طليبرة » . وسار هو بجيشه إليها سالكاً الطريق الروماني القديم الذي يصل ماردة بسلمنقة . وكان يحاذي هذا الطريق نهر صغير سمي منذ ذلك الوقت بنهر موسى .

التقى موسى بطارق في مكان سمي « المعرض » كائن بين نهري « تاجة » و« التيتاز » .

عسكر الجيشان العربيان في ناحية « السواقي » استعداداً للمعركة . زحف القوط نحو معسكر الجيش العربي مقررين مباغتته بضربة خاطفة . ولما التحم الجيشان ظل القتال مستمراً طوال النهار ، وفجأة لمح « مروان بن موسى بن نصير » قائد الجيش القوطي[1] فاندفع نحوه وقتله ، وبموته اضطربت صفوف القوط وفروا هاربين تاركين اكداساً من القتلى والاسرى في ساحة المعركة . وما كاد موسى يرتاح من عناء هذه المعركة الفاصلة حتى وصلته انباء قيام ثورة في طليطلة ، فسار اليها وأخذها واستقر مقامه فيها يوجه منها الجيوش لفتح باقي المدن الاندلسية .

ولم تمض إلا فترة وجيزة من الزمن حتى دانت اغلب شبه الجزيرة الاسبانية للعرب ولم تبق إلا أجزاء قليلة في شمالها خاضعة لبعض امراء القوط .

وهكذا وضع العرب أقدامهم في أوروبا ، فحكموا اسبانيا مدة ثمانية قرون بدأت من سنة ٧١١م وانتهت في سنة ١٤٩٢م .

---

(١) يقال أنه لذريق نفسه الذي نجا من القتل في معركة لكة .

وفي سنة ٧٥٦ سيطر عبد الرحمن الداخل الفتى الأموي الهارب من سيف العباسيين في الشام على الأندلس وأسس الدولة الأموية الزاهرة فيها ، تلك الدولة التي انتقلت منها الحضارة إلى أوروبا التي كانت تعيش في عصور مظلمة ، فغرف الأوروبيون العلوم والفنون والهندسة والطب من مدارس قرطبة وطليطلة وغرناطة واشبيلية ونقلوها الى بلادهم .

فالنهضة الأوروبية الحديثة ما هي إلا وليدة تلك المدنية الزاهرة التي شادها العرب في الاندلس فتأثرت بها أوروبا وانتقلت من عصر الظلمات إلى عصر النور .

جدير بكل عربي دراسة هذه المعركة ليرى كيف تمكن العرب بفضل وحدتهم وإيمانهم وعقيدتهم ومعنوياتهم العالية ، وتفانيهم وقيادتهم الحكيمة من احتلال اسبانيا الأوروبية وتهديد فرنسا وأوروبا كلها ، ليستمدوا من هذا الماضي المشرف قوة وعزيمة لمقارعة الاستعمار الأوروبي الذي ترزح تحت وطأته بعض الاجزاء العربية اليوم .

وليعلم كل عربي أن هذا الغول الأوروبي الذي يخافه بعضنا اليوم سبق أن مزقته جيوشنا العربية الموحدة في السابق في كل مكان .

لقد امتازت معارك الاندلس بالروح التعرضية العالية التي تحلى بها الجيش العربي بعلو معنوياته ، وسرعة حركته ، وشدة مطاردته ، وحنكة قادته ، واصرار افراده على النصر بالرغم من أنهم يقاتلون في أرض غريبة جديدة عليهم يفصلهم عن قواعدهم في افريقيا بحر كبير .

معركة بلاط الشهداء

(تور) أو (بواتية)

سنة ١١٤هـ - ٧٣٢م

اصبحت الأندلس ومعظم البلاد الأسبانية بعد أن أكمل فتحها موسى بن نصير ولاية من ولايات الخلافة الأموية في الشام . وبعد عشرين سنة من فتحها ، اندفع واليها (الحر بن مالك) إلى غالسيا (فرنسا) مخترقاً جبال البرينه ، وسار مع ساحل البحر الأبيض المتوسط واحتل مقاطعة بستمانيا ودخل عاصمتها (اربونة) . وكان القوط يسكنون هذه الأمارة وهي ليست خاضعة لحكم الأسرة المالكة في غالسيا .

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز اندفع والي الاندلس (السمح بن مالك) نحو غالسيا في غارة جريئة فعبر جبال البرينة واحتل مدينة (تولوز) ثاني اكبر مدن امارة (اكونتين) . ولقد روع تقدمه قلوب اهلها ، فنهض اميرها (الدوق اودو) لمقاومته ، فحشد جيشاً كبيراً واشتبك مع السمح في معركة كبيرة قرب (تولوز) استشهد فيها السمح وعدداً كبيراً من جنده وذلك سنة (١٠٢هـ) (٧٢١م) . ولم يستطع الجيش العربي من التماسك والانسحاب إلا بفضل احد قادة السمح البارزين وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي تولى القيادة والإمارة بأنتخاب القادة له لما كان يتمتع به من حنكة ودراية وشجاعة واستقامة . ولقد لبث في امارة الاندلس عدة اشهر لحين تعيين

(عنبسة بن سحيم الكلبي) والياً عليها ، لقد قضىٰ عنبسة السنين الأربع الأولىٰ من حكمه في تنظيم امور الولاية وتهدئة الاضطرابات القبلية التي حدثت بين المضرية واليمانية والبربر ، ثم اخذ يستعد للتقدم نحو غالسيا (فرنسا) . وفي سنة١١٢ هـ ـ ٧٣١م قام بغارة كبيرة استهدف الوصول إلى أبعد ما يمكن في عمق الأرض الفرنسية ، فأحتل المدن الفرنسية الواحدة بعد الأخرى حتى وصل مدينة (ليون) ، ثم دخل مدينة (سانس) التي تبعد بـ نحو (٣٠ كم) من جنوب باريس . ثم عاد إلى الاندلس محملاً بالغنائم مكللاً بأكاليل الغار .

وفي صفر سنة ١١٣هـ ـ نيسان ٧٣١ عين الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عبد الرحمن الغافقي والياً على الأندلس ، وهو القائد المحنك والإداري الفذ العارف بأمور الولاية وأهلها ، والأقوام الساكنة ما وراء حدودها ، المطلع على الخلافات القبلية بين صفوف العرب والقادر على انهائها بقوة شخصيته وعدله وحب الجميع له ، إضافة إلى تجربته الفنية في ميادين الحرب والإدارة والتنظيم .

الموقف العام في غالسيا (فرنسا) :

بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، استولىٰ الألمان (الهون) على غالسيا ، واختلطوا بأهل البلاد الاصليين ، واعتنق بعضهم الدين المسيحي ، وحكمت اسرة (ميروفنجيان) الجرمانية بلاد غالسيا . وفي أوائل القرن الثامن ضعف نفوذ هذه الأسرة وانقسمت غالسيا إلى مقاطعات ، كل مقاطعة يحكمها دوق أو أمير . وكانت المقاطعة الجنوبية تسمىٰ (بستمانيا) وعاصمتها (اربونة) وقد سيطر عليها العرب في عهد ولاية (الحر بن مالك) . وفي غربها تقع مقاطعة (اكونتين) وعاصمتها (بوردو) وحاكمها الدوق (أودو) ، وتقع هذه المقاطعة بين نهر الرون شرقاً وخليج بسكاي غرباً . وبين نهر اللوار شمالاً وجبال البرنيه جنوباً ، وتشغل من مقاطعات فرنسا الحديثة (جوبان) و(بيرجو) و(سانتونج) و(بواتو) و(فندة) .

وشمال اكونتين تقع مقاطعة (نوستريـا) ثم (استراسيـا) . وكان شـارل مارتل حاكم استراسيا وهو أشجع وادهى واعظم امراء القبائـل الجرمـانية وكـان الحاكم الفعلي لبلاد غالسيا بأجمعها ولم يكن الملك إلا العوبة بيده . ولقد صقلت المعـارك المحلية التي حصلت بينـه وبين بـاقي أمراء فـرنسا مـواهبـه العسكـريـة واكسبتـه خبرة وتجـربة كبيـرة . وكان بينـه وبين الـدوق أودو عـداء مستحكم ، وكراهية شديدة ، وتنافس على السيطرة على باقي امارات غالسيا .

الموقف العام في الاندلس :

تعين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً عـلى الأندلس في سنـة ١١٣هـ وهو من زعماء القبائل اليمانية من (غافق) ، ولكنه كان لا يؤمن بالانتماء القبلي ولا يشجع العصبية والخصـام بين القبـائل ولا ينتصـر إلا للحق ، ولا يقرب إلا المؤمن المقاتل النزيه ، الشجاع وبفضل هذه المزايا ومزاياه الأخرىٰ الجيـدة دانت له القبائـل المضريـة واليمانيـة والبربـر ، وعملوا تحت رايته يـداً واحدة ، وقلبـاً واحداً .

كـان عبد الـرحمن جنـديـاً عـظيـماً سبق لـه أن مـارس القيـادة تحت امرة السمح بن مالك فأكتسب خبرة عظيمة ، وكان حـاكماً قـديراً ، بـارعاً في شئـون الحكم والإدارة ، مصلحاً ، مهيباً ، تقياً ورعاً ، نزيهاً ، لا يحب المظاهر ، حليماً عنـدما يتـطلب الأمر ذلـك ، دمث الأخلاق ، حسن السيـرة ، محبوبـاً ، قـوي الشخصية ويتمتع بمزايا الزعامة كافة .

(بدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها وعهد بإدارتها إلى ذوي الكفاية ، والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصارىٰ كنائسهم واملاكهم المغصـوبة ، وعـدل نظام الضـرائب ، وفرضهـا على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضىٰ صدر ولايته في اصلاح الإدارة وتدارك ما سـرىٰ اليها في عهد اسلافه من عوامل الاضطراب والخلل ، وعنىٰ باصلاح الجيش وتنـظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وانشأ فرقاً جديـدة مختارة

من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لأخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة)[1] .

لقد سمع عبد الرحمن بأن حاكم الولايات الشمالية (البرنية وسبتمانيا) المدعو (منوسة) وهو زعيم بربري اخذ يتصل بالدوق (اودو) حاكم امارة (اكمونتين) وعقد معه محالفة ضمن فيها صداقته وتزوج من ابنته الحسناء (لامبجيا) تأميناً للاستقلال بولايته وفصلها عن باقي ولايات الاندلس ، ولقد رحب الدوق بهذا التحالف وهذه المصاهرة اتقاءً لخطر الغزو العربي من جهة ، ومن جهة ثانية الاستعانة بمنوسة ضد عدوه (شارل مارتل) . ولما علم عبد الرحمن بذلك جرد عليه حملة بقيادة (بن زيان) طارده حتى قتله واسر زوجته (لامبجيا) وأرسلها إلى دمشق حيث تزوجها امير مسلم . لقد غضب الدوق أودو لما أصاب صهره وحليفه منوسة فتأهب للدفاع عن دوقيته وبدأ بالاتفاق مع القوط بمهاجمة المواقع الإسلامية ، فلما رأى عبد الرحمن الخطر محدقاً بولاياته الشمالية جمع جيشاً لجباً قدره مؤرخوا الفرنجة بـ (٤٠٠) الف مقاتل وهو رقم مبالغ فيه ، بينما قدره مؤرخوا العرب بعدد يتراوح بين (٧٠) ألف ومائة الف مقاتل وترجح بعض الروايات بأنه لم يتجاوز الـ (٧٠) الف مقاتل معظمهم من البربر والباقي من القبائل اليمانية وفيهم قلة مضرية وهو رقم معقول واقرب إلى الحقيقة . وسار على رأسه للقضاء على اودو وامارته واكمال فتح باقي بلاد غالسيا .

تحشد الجيش العربي في مدينة (بنبلونة) في جبال البرنية وعبر به الجبال في ربيع سنة ٧٣٢م من ممر (رونشغالة) واتجه شرقاً نحو نهر الرون حيث اعاد احتلال مدينة (آرل) التي إستغلت الاضطرابات التي حدثت بعد مقتل منوسة وخرجت عن الطاعة وامتنع اهلها من دفع الجزية ، ثم زحف غرباً وعبر نهر

---

(١) راجع كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٤٨ الطبعة الرابعة لمؤلفه محمد عبد الله عنان .

(جارون) وانقض على دوقية (اكونتين) ، فحاول الدوق اودو الدفاع وايقاف زحفه إلا أنه اخفق في ذلك ، وتراجع بسرعة امام الزحف العربي الجارف ، ونشبت المعركة الأخيرة بينه وبين العرب على ضفاف نهر (دردوني) فهزم فيها وطارده عبد الرحمن حتى عاصمته (بوردو) فدخلها بعد حصار قصير ، وفرَّ الدوق نحو الشمال وسقطت اكونتين بأجمعها بيد العرب . ثم ارتد عبد الرحمن مرة اخرىٰ نحو الرون واخترق (برجونيا) (برغنده) واستولىٰ على (ليون) و(بيزانسون) ووصلت طلائع جيشه حتى (سانس) وهو المحل الذي سبق أن وصلت إليه طلائع جيش (عنبسة بن سحيم) ثم استدار غرباً حتى وصل نهر اللوار . وبذلك فتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة اشهر . ثم استمر بزحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي (تور) و(بواتية) فأستولىٰ على بواتية ثم تور .

تحشد الجيش الفرنسي .

لما خسر الدوق أودو امارته لجأ إلى عدوه القديم شارل مارتل الذي خشي بدوره على ملكه من تقدم الجيش العربي فأتفق مع أودو واخذ يحشد عدداً كبيراً من الفرنج والجرمان والمرتزقة فيها وراء نهر الراين ، وكان شارل مارتل بارعاً في الحركات السريعة وقرر المسير نحو الجنوب الغربي باتجاه نهر اللوار سالكاً الهضاب والجبال والوديان لاحفاء تقدمه عن عيون الدوريات العربية وجواسيسهم ليباغت الجيش العربي في المكان الذي اختاره لقبول المعركة فيه . وكان الجيش العربي أنذاك قد اشرف على نهر اللوار في السهل الذي تلتقي فيه فروع نهر اللوار وهي انهر (الكريز) و(الفين) و(الكين) . ولقد كان جيش شارل مارتل يتفوق بالعدة والعدد على الجيش العربي ، ولقد قدره المؤرخون بضعفي الجيش العربي .

تحشد الجيش العربي :

لقد وصل الجيش الغالي إلى نهر اللوار دون أن يشعر به العرب ، ولقد

ظن عبد الرحمن انه قوة صغيرة يستطيع دحرها ، ولما أراد العبـور إلى ضفة اللوار اليمنى لمواجهته وجده جيشاً لجباً لا قدرة لـه بمهاجمتـه دون استعدادات دقيقـة . فسحب جيشه من ضفاف النهر إلى السهل الواقع بين تور وبـواتية ، وحشـد كل القوات التي قدمت معـه في هذا السهـل خلف نهر (فين) واخـذ يستعد للقيـام بالهجوم الحاسم على الجيش المعادي . إلا أن شارل مارتل عبـر اللوار غرب تـور وعسكر بجيشه يسار الجيش العربي بين نهري كلين وفين فرعي اللوار .

المعركة

(١٢ تشرين اول اكتوبر) ٧٣٢م ـ اواخر شعبان ١١٤هـ) .

كـان الجيش العربي قـد حصل عـلى غنائم هـائلة نتيجة المعـارك السابقـة اخذت ترهق كاهله ، فقرر عبد الرحمن ترك هذه الغنائم والأثقال كافة خلف نهر فين وعبور النهـر الذي لم يكن عميقـاً ويمكن عبوره من مخـاضات متعـددة وقبول المعركة في السهل الكائن بين نهري كلين وفين ، ولقـد وافقه القـادة العرب عـلى هـذه الفكرة وخـالفه امـراء البربـر الذين اصـروا على أن تكـون غنائمهم معهم فأضطر على الأخذ برأيهم خوفـاً من تفرق الكلمـة وكانت هـذه غلطة العمر التي تسببت بالكارثة فيما بعد .

وضع عبد الرحمن خطة بسيطة ، فوضع مشاته في القلب ووضع الفـرسان في الجناحين .

بدأ القتال بين الطرفين بمناوشـات بسيطة استمـرت لمدة ثمـانية أيـام جسَّ كلا الطرفين مكامن الضعف والقوة في صفوف خصمـه . وفي اليوم التـاسع بـدأ العرب بالهجوم العام ، فأستخدموا اولاً النبال ثم تقدم المشاة عـلى قلب الفرنـج بينما اطبق الفرسان على اجنحتهم ولكنهم صمدوا في مكانهم ودارت معركة رهيبة استمرت حتى المساء حيث عاد كلا الجيشـين إلى مواضعـه للاستـراحة وتـدارس الأمر .

وفي الليل عقد عبد الرحمن مؤتمراً لقادته تدارس وإياهم الموقف ، وقرر فيه تبديل خطته فأمر بوضع الخيالة في القلب ومشاة البربر في الجناح الأيمن ومشاة العرب في الجناح الأيسر .

وفي صباح اليوم العاشر تقدمت الخيالة بسرعة وعزم وبعد معركة قصيرة تمكنت من اختراق قلب الجيش الافرنجي في عدة محلات فأربكتهم وخلخلت صفوفهم ، فحلت الفوضىٰ بينهم ، وبات فوز العرب في المعركة مضموناً . فلجأ شارل مارتل للحيلة ، فأرسل من نادىٰ أمام صفوف مشاة البربر بأن خيالة الافرنج اغارت على معسكر الغنائم وهي الآن تنهب فيه ، فأرتد البربر لحماية غنائمهم واعقبتهم خيالتهم ، وهكذا توقف الخرق العربي وتخلخلت صفوف المهاجمين وعبثاً حاول عبد الرحمن تلافى الموقف وطلب من المنسحبين الثبات ومواصلة الهجوم ، وصاح بهم أن استعادة الغنائم رهين بربح المعركة ، إلا أن البربر لم يلبوا ندائه واستمروا بالتراجع نحو معسكر الغنائم ، ولما رأىٰ شارل مارتل هذا الارتداء الرهيب قرر استغلال الفرصة فأمر جيشه بالهجوم بسرعة ومطاردة المنسحبين حتى معسكر الغنائم . فنشبت معركة ابادة رهيبة قُتل خلالها عبد الرحمن الغافقي فزاد ذلك من تخلخل الجيش العربي وانهيار معنوياته إذ اصبح الجيش بلا قائد ، ولولا ثبات فرسان العرب لقضى على الجيش العربي برمته ، ومع ذلك مني بهزيمة منكرة وقتل منه الألوف حتى ضاقت ساحة المعركة بجثث الشهداء لذلك سمىٰ العرب فيما بعد هذه المعركة بـ (بلاط الشهداء) لأن القتلىٰ كانوا يفترشون ارضاً واسعة جوار احد قصور الأمراء الفرنجة .

ولما حلّ الليل عاد كلّ إلى معسكره وكان ذلك في يوم ٢١ تشرين الأول ٩٣٢م . ولقد تدارس امراء الجيش الموقف ولم يتفقوا على شخص يتولىٰ القيادة بدلاً من القائد الشهيد عبد الرحمن كما لم يوجد شخصية قوية من بينهم يفرض نفسه قائداً ، وكان هذا من الاخطاء التي تنسب لعبد الرحمن حيث لم يعين له نائباً يتولىٰ القيادة من بعده . لذلك قرروا الانسحاب فوراً وفي الليلة نفسها إلى

بستمانيا تاركين قتلاهم وغنائمهم واثقالهم وهكذا انهارت عـزيمتهم بمجرد مقتـل قائدهم وموحد كلمتهم ، فخسروا المعركة وخسروا الغنائم التي تركوا المعركة من اجلها لحمايتها .

وفي فجر اليوم التالي تقدم شارل مارتل بجيشه نحو ساحـة المعركـة ليجهز على ما تبقى من الجيش العربي فلقي معسكره خاوياً حيث انسحب العـرب ليلاً فلم يتعقبهم خوفاً من الخديعة والكمين ولكثرة خسائره هو ايضاً وإنهاك قـطعاتـه في معارك الأيام السابقة وآثر العودة إلى الشمال .

ويعزىٰ سبب خسران المعركة اضافة إلى الخـديعة التي استعملهـا الأفرنـج وتحويل انظار المهاجمين من خرق صفوفهم إلى الارتداد إلى الخلف لحماية معسكر الغنائم إلى نقص المعلومات حيث لم يعلم عبد الرحمن بتقـدم شارل مـارتل نحـو نهر اللوار بجيش كبير . ولم يهاجمـه وهو يعبـر النهر ليقضي عليـه قبل أن يكمـل عبوره وتحشده . وإلى الخـلاف بين العـرب والبربـر الذي كـان مقتل (منـوسة) الأمـير البربـري لا يزال يحز في نفوس البـربر . ثم تهـاون عبـد الـرحمن وعـدم اصراره على ترك الغنائم خلف نهر فين . ثم تفوق الافـرنج العـددي حيث بلغ جيشهم ضعفـ الجيش العربي ، وأخيراً مقتل القائد العربي عبد الرحمن الغـافقي الذي لم يعين خلفاً له ولم يوجد قائد آخر ذو شخصية قوية يخلفه ليوحد الصفوف ويستعد لمعركة اليوم التالي .

تبالغ المصادر الغربيـة بعدد قتـلى المسلمين حيث يقـول البعض انها بلغت (٣٥٠) الف قتيل وهذا عـدد ضخم مبالـغ فيه وغـير معقول مـطلقاً خـاصة إذا عرفنا أن مجموع الجيش العربي لم يتجاوز الـ (٧٠) ألف مقاتل . كما تبـالغ بـأنها دحـرت الجيش العربي وقضت عليـه قضاء مبـرماً ولم ينجـوا منه إلا من استـطاع الفرار . وهذا مخالف للوقائع التي ذكرناها في سير المعركة التي تثبت بأن قسماً من الجيش العـربي ارتد ليحمي معسكـر الغنـائم ، والقسم الآخـر استمـر بـالقتـال ببسالة حتى المساء وانسحب طوعاً إلى معسكره ليعيد تنظيمه استعداداً لمعركة اليوم

التالي ، وإن قادة الجيش قرروا الانسحاب طوعاً في الليل إذ لم يوجد بينهم قائد طموح يفرض عليهم زعامته ويواصل المعركة ويكمل الهدف الذي دخل من أجله عبدالرحمن أرض غالسيا . وأكبر دليل على سلامة الجيش العربي وانسحابه بقسمه الأعظم أن القائد شارل مارتل لم يطارده خوفاً من الخديعة والكمين . ولو كان فلولاً منهزمة أو قليلاً لطارده واسترد الأجزاء الجنوبية من فرنسا .

وإنني لا أريد أن اقلل من فداحة الخسائر التي تكبدها الجيش المسلم في هذه المعركة التي سكت عنها مؤرخوا العرب ولم يذكروا عنها الشيء الكثير لفداحة الخسارة وعمق تأثيرها على الأحداث التي تلتها . وإني اميل إلى تصديق القائلين بأن الجيش العربي خسر نصفه أي ما يعادل الـ (٣٥) الف شهيد وهو عدد كبير لم يخسره العرب قط في معاركهم السابقة وخاصة في يوم واحد لذلك سمي مؤرخوهم المعركة (معركة بلاط الشهداء) .

ولقد اعتبر مؤرخوا الغرب هذه المعركة فاصلة بين المسيحية والإسلام وقالوا عنها :

(لو انتصر العرب فيها لاصبحت أوروبا كلها مسلمة ولكانت اللغة العربية تدرس الآن في جامعات لندن وباريس وبرلين .

ولقد قال عنها المؤرخ الانكليزي الشهير (ادورد جيبون) ما يلي : -

(امتد خط الفتح مدى الف ميل من صخرة جبل طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى ايفوسيا . فليس الراين بأمنع من النيل أو الفرات ، ولعل اسطولاً عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت احكام القرآن تدرس الآن في معاهد اكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة) .

وقال أيضاً :

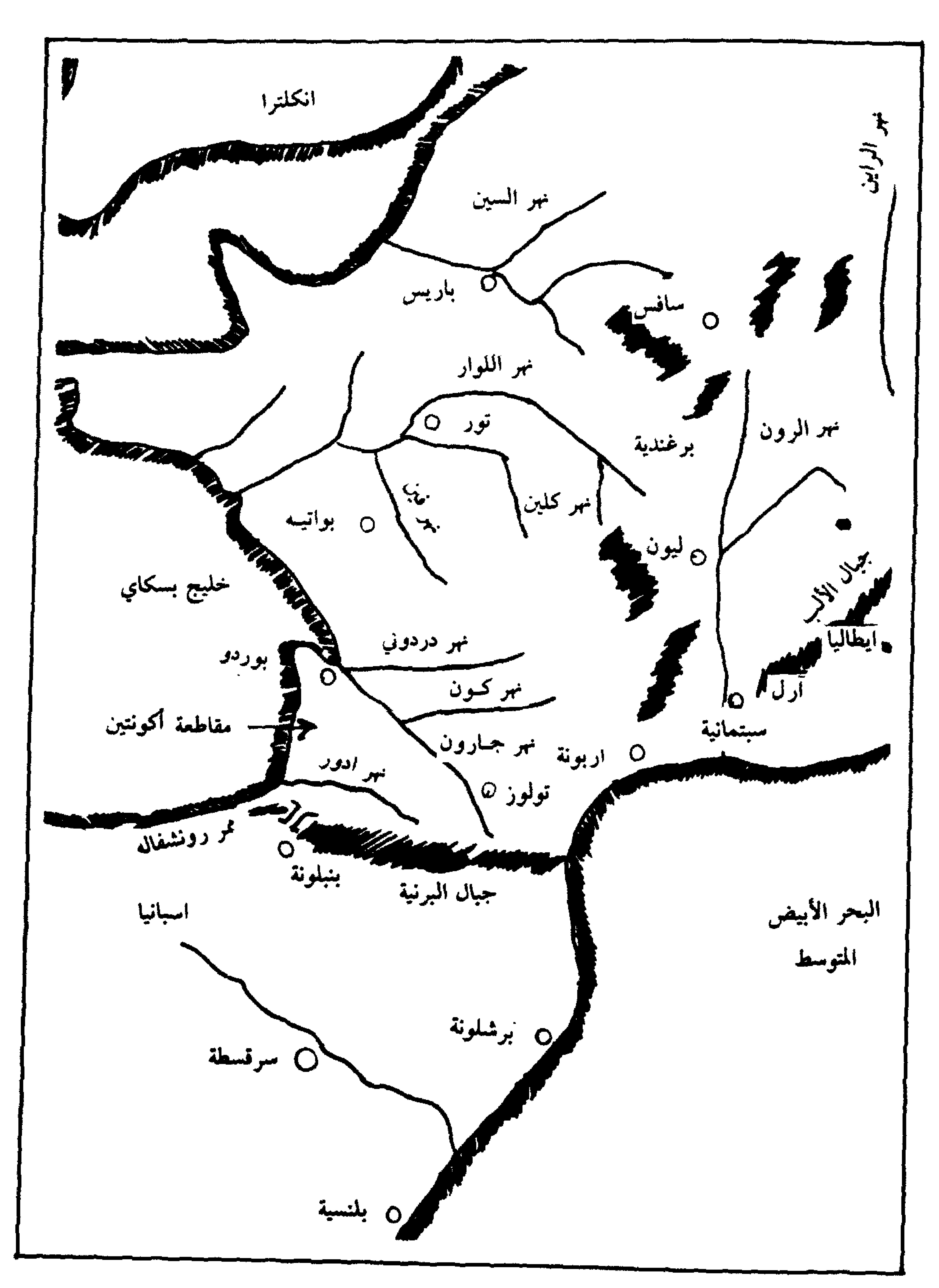
(إن حوادث هذه المعركة انقذت آباءنا البريطانيين وجيرانا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني ، وحفظت جلال روما ، وأخرت سقوط القسطنطينية ، وشدت بأزر النصرانية ، واوقعت بأعدائها بذور التفرق والانحلال) .

وقال عنها المؤرخ درابد : -

(لقد وصل طرف الهلال العربي الواحد البسفور ، والطرف الثاني اسبانيا ، وامتد إلى فرنسا . وكان يهدد أوروبا ببلوغ البدر التمام . فيمحوا التمدن اللاتيني العتيد من الوجود ويغمر اوروبا) .

وقال ارنولد في تاريخ الامبراطورية الرومانية المجلد الثاني ص ٣١٧ : -

(إن فوز شارل مارتل اعظم كثيراً من فوز ارمينوس وكانت له نتائج ارسخ في حياة الجنس البشري) .



خارطة فرنسا (غالسيا)

مَعركَة حطِّين ١١٨٧

نبذة عن الحملات الصليبية حتى ظهور صلاح الدين

في ٢٦ تشرين الثاني ، نوفمبر ، عام ١٠٩٥م ، دعى البابا اربانوس الثاني أوروبا المسيحية إلى تجنيد الجيوش لاحتلال آسية الصغرى وسورية وبيت المقدس على اثر رسالة تسلمها من الامبراطور البيزنطي « الكسيوس كومينوس » يتوسل بها إليه مساعدته في حربه ضد السلجوقيين الذي كانوا يحكمون جزءاً كبيراً من آسية الصغرى والذين باتوا يهددون عاصمة ملكه القسطنطينية بالفتح والدمار .

استجاب معظم ملوك اوروبا لنداء البابا . وما كاد يحل ربيع عام ١٠٩٦م حتى تجمع جيش تعداده ١٥٠ الف رجل اكثرهم من الفرنج والنور منديين وفيهم عدد من البولونيين وغيرهم من اوروبا ، وكان كل منهم يحمل علامة الصليب على صدره ، لذلك سميت تلك الحروب بالحروب الصليبية . وكان ابرز قادة الحملة (غودفري دي بويون »[1] ابن كونت بولونيا .

سارت الحملة الصليبية الأولى عبر آسية الصغرى التي كان يحكمها الأمير السلجوقي « قليج ارسلان » ، فتمكن الصليبيون في حزيران ، يونيو ، ١٠٩٧م من احتلال« نيقية » عاصمة السلاجقة ثم « اسكي شهر » . وسيطر الأمبراطور

(١) « صلاح الدين الايوبي » ، قدري قلعجي .

الكسيوس على النصف الغربي من الأناضول .

عبـر الصليبيون جبـال طوروس وافـرزوا قـوة بقيـادة « بلدوين » ، شقيق غودفري ، وتوجهوا نحو الشرق واستولوا عـلى مدينـة « الرهـا » أورفة ، وكـونوا فيها امارة جلس على عرشها .

كما سارت قوة اخرى نحـو الغرب بـامرة « تـانكرد النـورمندي » واحتلت طرسوس . أما القسم الاكبر من الجيش الذي كان يقوده « بوهمنـد » النورمنـدي فتوجه إلى انـطاكية واحتلهـا وأسس امارة صليبيـة ثانيـة فيها . ثم انحـدرت قوة بقيادة « ريموند دي تولوز » أمير تـولوز وبـروفانس ، إلى معـرة النعمان واحتلتهـا بعد أن قتلت فيها ما يزيد على «١٠٠» الف نسمة . ثم احتل ريموند بعض مدن الساحل اللبناني وبعدئذ توجه مع باقي الجيش الزاحف نحو القدس .

في ٧ حزيران ، يونيو ، سقطت الرملة ، ثم حـوصرت القـدس وسقطت بعد شهر من حصارها ، فقتل الصليبيون فيهـا كل من وجـدوه ، ولم يسلم منهم طفـل أو شيخ أو امـرأة ، وارتكبوا من الأعمـال الوحشيـة مـا ينـدي لـه جبـين الانسانية . ولقد بلغ عدد القتلى فيها «٧٠» ألف نسمة .

أسس الصليبيون مملكة في القدس نصبوا عليها « غودفـري » ملكاً . اهتم هذا باحتلال مدن الساحل مستعيناً بالسفن الايطالية ، فاستولى اسطول البندقيـة على حيفا وقتل أهلها بلا رحمة أو شفقة . أما تانكرد فقد تقدم داخـل البلاد حتى المنطقة الملاصقة لنهر الأردن واستولى على بيسان ونابلس وطبرية .

بعد وفاة غودفري استدعى شقيقه « بلدوين » من الـرها وتـوج ملكاً عـلى القــدس في كنيسـة بيت لحم عــام ١١٠٠م . وقـد اتسعت المملكـة في عهـده وامتدت من العقبة عـلى البحر الأحمـر إلى بيروت وصيـدا اللتين تم فتحهـا عام ١١١٠م .

في سنة ١١٠١ عزم ريموند عـلى احتلال طـرابلس فحاصـرها لمـدة ثمانيـة

أعوام ومات دون أن يستطيع احتلالها حتى تمكن خلفه من دخولها عام ١١٠٩م وأسس امارة جديدة فيها .

وهكذا اصبح للصليبيين ثلاث امارات تابعة لمملكة بيت المقدس ، هي امارات : الرها وانطاكية وطرابلس . وكانت هذه الامارات تضم الرها وبيت المقدس والشقة الساحلية الضيقة في البحر الأبيض المتوسط ، ولم يستطع الصليبيون احتلال مدن دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك حيث بقيت عربية حتى النهاية وإن دفع بعضها لهم الجزية في بعض الفترات . وإن اهتمامهم بفتح المدن الساحلية لدليل جديد على الدافع الاقتصادي في حملتهم الصليبية للسيطرة على موانىء البحر وحماية طريق التجارة مع المدن الاوروبية .

في عام ١١٢٧م ظهر عماد الدين زنكي « اتابك » الموصل وبدأ يدعو المسلمين والعرب لنسيان خلافاتهم والاتحاد لطرد الصليبيين ، وقد استولى على حلب وحماه وحمص وحران وضمها إلى ملكه وأسس الدولة الزنكية التي اخذت على عاتقها التحول من موقف الدفاع والتخاذل امام الصليبيين إلى موقف التحدي والهجوم ، فبدأ يهاجم الامارات الصليبية فاسترد الرها وحطم امارة الصليبيين فيها . وأخذ يعد العدة لاحتلال دمشق «لايمانه بأن قيام وحدة بين الامارات العربية يجب أن يسبق أية خطوة ضد الصليبيين »[1] .

أدى سقوط الرها إلى قيام الحملة الصليبية الثانية التي قادها « كونراد الثالث » الالماني و« لويس السابع » الفرنسي ، حيث وصلت فلسطين بعد وفاة عماد الدين ، إلا أنها خابت في تحقيق اغراضها فلم تستطع استعادة الرها أو فتح دمشق وحلب ، وعاد الملكان من حيث أتيا .

بموت عماد الدين انقسمت الدولة الزنكية إلى دولتين تولاهما ولداه :

---

(١) « الحركة الصليبية » ، ج ١ ص ٥٧٤ ، الدكتور سعيد عاشور . و « صلاح الدين الايوبي » ص ٩٣ ، قدري قلعجي .

الأولى في حلب وما جاورها وتولاها نور الدين . والثانية في الموصل وما جاورها وتولاها سيف الدين .

وكان الحد الفاصل بين املاك الأخوين نهر الخابور (خابور الفرات) .

يعتبر نور الدين من الأبطال الذين حاولوا توحيد العرب في مملكة واحدة ، ومن القادة الافذاذ الذين تصدوا للصليبيين . فكان همه اتمام رسالة والده بتوحيد البلاد الشامية تمهيداً للقضاء على الحكم الصليبي . ولقد تأكد لديه أن الوحدة هي السبيل الوحيد لكسب معركة التحرر وطرد الاجنبي الغاصب . لذلك انتزع دمشق من حاكمها السلجوقي . وهاجم امارتي انطاكية وطرابلس ، وإن لم يستطع فتحهما إلا أنه اسر أميريها الصليبيين . وبات الصليبيون يخافون دولته النامية ويهابون هذا السلطان القوي المخلص الحازم .

ظهور صلاح الدين الأيوبي :

بلغت الدولة الفاطمية في مصر منتهى الضعف والانحلال في سنة ١١٦٤م . فكان للانقسامات الداخلية ، وتهديد الصليبيين لها أثر كبير في هذا الانحلال . وفي خضم هذه الاخطار وجد نور الدين ان لا بد له من انقاذ مصر من هذه الفوضى ، ولا بد من توحيد الخلافة الاسلامية بالقضاء على الخليفة الفاطمي وإعادة سيطرة الخليفة العباسي الدينية على جميع البلاد الاسلامية في الوقت الذي يكون هو الحاكم السياسي لهذه البلاد .

جهز نور الدين جيشاً بقيادة « أسد الدين شيركوه » وأرسله لفتح مصر . وقد استطاع هذا اخضاعها بسهولة .

استنجد وزير الخليفة الفاطمي « شاور » بملك القدس الصليبي « غموري الأول » فسار هذا على رأس جيش كبير وحاصر بلبيس التي اعتصم بها أسد الدين ، ثم اتفق الطرفان على ترك مصر ، فانسحبا منها في وقت واحد .

وفي سنة ١١٦٧م عاد أسد الدين مرة ثانية على رأس جيش قوي

وفتحها ، فاستنجد وزيرها « شاور » مرة ثانية بالصليبيين ، فدارت معارك عنيفة بين الطرفين انتهت بعقد الصلح واتفاقهما على الانسحاب من مصر .

وفي سنة ١١٦٨م قرر الصليبيون فتح مصر واخضاعها لحكمهم ، وفي هذه المرة استجار الوزير « شاور » بنور الدين ، فأرسل هذا اسد الدين مرة ثالثة فاستطاع طرد الصليبيين والسيطرة على مصر سيطرة كاملة .

عزل اسد الدين « شاور » وحل محله وزيراً للخليفة الفاطمي « العاضد » . وعندما مات أسد الدين بعد توليه الوزارة بشهرين حل محله ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي شارك عمه في حملاته الثلاث على مصر ، اظهر خلالها جدارة عسكرية وسياسية وإدارية اهلته دون اخوته وعمومته لتولي هذا المنصب الخطير وكان عمره يومذاك ٣١ سنة . وصلاح الدين ، هو يوسف صلاح الدين بن نجم الدين ايوب بن شادي . ينتمي إلى اسرة كردية . ولد في تكريت التي كان والده حاكماً عليها وانتقل مع والده الى الموصل على اثر خلاف بين الوالد وحاكم بغداد « بهروز » ودخل وأخوه شيركوه في خدمة عماد الدين زنكي . ولما شب صلاح الدين انخرط أيضاً في خدمة هذا الحاكم العظيم .

كان صلاح الدين من القادة العباقرة العظام ، ذا شخصية نفاذة ، وإرادة قوية لا تقهر ، ومعرفة في فنون الحرب والسياسة لا تجارى ، وكان ذا خلق متين ، يتميز بانسانية ونبل قل ان وجدت في الفترة التي عاش فيها ، وقد نال اعجاب خصومه واعدائه وتقديرهم .

قرر صلاح الدين بناء دولة قوية في مصر تابعة لسيده نور الدين . فقام بعدة عمليات تطهير ، وقضى على الفتن واصحابها . وتخلص من كافة العناصر الموالية للخليفة الفاطمي ، أو التي كانت تتصل وتتعاون مع الصليبيين .

شعر عموري الأول أن مملكته أصبحت بين فكي الرحى ، تهددها جيوش نور الدين من الشام ومصر ، لذلك راسل امبراطور بيزنطة « مانويل

كومينين » طالباً معونته لاحتلال مصر .

أرسل هذا اسطولاً كبيراً إلى مصر استهدف مدينة دمياط ، كما سير عموري جيشاً من عسقلان نحوها . فاضطر صلاح الدين إلى طلب النجدة من نور الدين لمجابهة هذا الخطر المزدوج .

أرسل نور الدين قوة إلى صلاح الدين ، وهاجم بنفسه اراضي فلسطين المحتلة لتخفيف الضغط على قوات صلاح الدين . فلما سمع عموري بهجوم نور الدين على أراضيه ، وكان يئس من فتح دمياط اسرع بالعودة خائباً .

إن خسران هذه الحملة الصليبية البيزنطية دعم مركز صلاح الدين في مصر . فبدأ يفكر باستغلال هذا النصر وانتزاع بعض الأراضي المحتلة ، لذا قاد حملة سنة ١١٧٠ هدفت إلى الاغارة على سواحل فلسطين ، فحاصر قلعة « الداروم » جنوبي غزة إلا أنه لم ينجح في احتلالها . وفي نهاية العام نفسه هاجم ميناء « أيلة » على خليج العقبة واستولى عليه .

في صيف عام ١١٧١م طلب نور الدين من صلاح الدين الغاء الخلافة الفاطمية في مصر واحلال اسم الخليفة العباسي « المستضيء » في خطبة الجمعة .

ولما ألغيت الخلافة اصبح صلاح الدين تابعاً لنور الدين من كل الوجوه ، وسبب هذا الاتصال المباشر الخلاف بين الرجلين ، فبات كل منهما يخشى نفوذ صاحبه وقوته ، ورغم ذلك بقي صلاح الدين مخلصاً لنور الدين .

في سنة ١١٧٢م أرسل صلاح الدين اخاه « توران شاه » على رأس جيش لفتح بلاد النوبة ، ومنها قصد اليمن فضمها إلى ملك أخيه .

وفي سنة ١١٧٤م توفي نور الدين زنكي وتولى الحكم بعده ابنه الطفل اسماعيل ، وانقسمت الدولة الزنكية على نفسها حيث انفرد كل أمير بمقاطعة .

وبعد قليل مات عموري الأول ملك القدس وخلفه « بلدوين الرابع » الذي كان عمره ١٣ سنة .

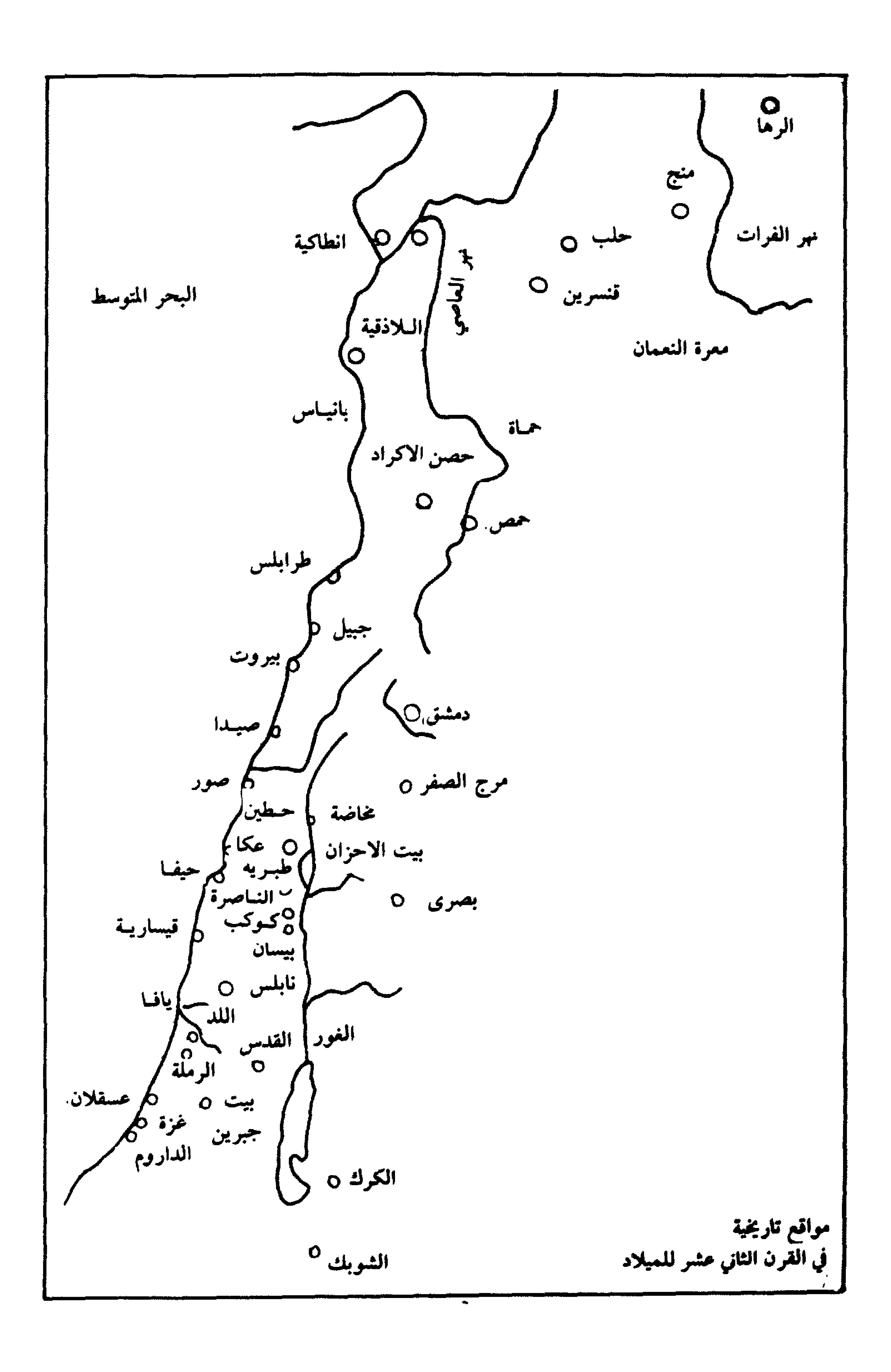
بوفاة نور الدين اصبح صلاح الدين أقوى حاكم عربي في ذلك الزمان ، ولم يجد بين حكام العرب أجدر منه بتولي القيادة السياسية والعسكرية لمحو الدولة المسخ التي اقتطعت أغلى جزء عربي وأسست فيه مملكتها اللاتينية .

وجد صلاح الدين أن تفرق كلمة العرب وانقسامهم إلى دويلات صغيرة متناحرة ، ضعيفة ، هي السبب الذي مكن الأوروبيين من احتلال فلسطين ، لذلك قرر توحيد البلاد العربية وتأسيس دولة قوية قادرة على دحرهم وطردهم من الأرض العربية .

حال وفاة نور الدين أعلن صلاح الدين استقلاله بمصر ، ثم توجه على رأس جيش إلى الشام ودخل دمشق بين هتاف وتصفيق اهلها للبطل الذي جاء به القدر لانقاذ العروبة والاسلام . ثم استولى على حمص وحماه ، ولقب نفسه بملك مصر والشام ، واستحصل موافقة الخليفة العباسي على اسناد السلطة اليه على مصر والشام والنوبة وغربي الجزيرة العربية وذلك في أيار ، مايو ، عام ١١٧٥م .

ثم حاول فتح الموصل وحلب ، إلا أنه خاب في ذلك ، وكان يهدف إلى تشكيل دولة قوية تضم العراق وسورية ومصر ليستطيع استخدام مواردها البشرية والمادية لدحر الدولة اللاتينية ومن يسندها من جيوش اوروبية .

في عام ١١٧٧م اتفق امبراطور بيزنطة مع حكام القدس وقرروا مهاجمة مصر ، فعاد إليها صلاح الدين ونظم فيها خطط الدفاع وبنى التحصينات اللازمة من ضمنها سور كبير حول القاهرة ، إلا أن الحملة لم تقم . فتحرك مصمماً الهجوم بدلاً من الدفاع متوخياً عسقلان التي حاصرها وحصر فيها « بلدوين » الرابع وجيشه الذي تقدم إلى عسقلان لانتظار صلاح الدين فيها .



الرها
منج
نهر الفرات
حلب
انطاكية
قنسرين
البحر المتوسط
نهر العاصي
اللاذقية
معرة النعمان
بانياس
حماة
حصن الاكراد
حمص
طرابلس
جبيل
بيروت
دمشق
صيدا
صور
مرج الصفر
حطين
مخاضة
عكا
بيت الاحزان
حيفا
طبريه
الناصرة
بصرى
كوكب
قيسارية
بيسان
نابلس
يافا
اللد
الغور
القدس
الرملة
عسقلان
بيت
غزة
جبرين
الداروم
الكرك
مواقع تاريخية
في القرن الثاني عشر للميلاد
الشوبك

ولما استعصى عليه فتحها ترك قوة لمحاصرتها وتوجه إلى اللد والرملة فأحرقهما ثم واصل التقدم حتى مشارف نابلس .

استطاع « بلدوين » فك الحصار وجمع جيشاً كبيراً هاجم به الجيش العربي بغتة عند « تل الصافية » فكانت معركة رهيبة انتصر فيها الصليبيون ، واستطاع صلاح الدين النجاة بصعوبة وتوجه إلى مصر مصمماً على الثأر .

عاد صلاح الدين سنة ١١٧٨م إلى الشام وفي العام نفسه نشبت معركة ضارية بين عز الدين ابن أخيه والصليبيين قرب « بانياس » فاستنجد هذا بعمه . فسار اليه وثأر لنفسه حيث دمر الجيش الصليبي ، ولقد نجا « بلدوين » جريحاً في حين قضى قائده « همفري دي تورون » نحبه متأثراً بجراحه .

وفي سنة ١١٧٩م دارت معركة اخرى بين صلاح الدين و« بلدوين » قرب « تل القاضي » في سهل « مرج العيون » انتصر فيها انتصاراً حاسماً ، ولقد نجا « بلدوين » منها مرة اخرى بأعجوبة .

لم يستغل صلاح الدين انتصاره في هذه المعركة ، وهذه خطيئة تسجل عليه ، فكان الموقف يتطلب منه أن يستغل الانتصار ويتقدم بسرعة نحو طبرية والقدس ، ولو فعل ذلك لسحق الصليبيين وقضى عليهم في وقت مبكر .

وكل ما فعله أنه احتل حصن الاحزان المنيع الذي بناه « بلدوين » قبل سنة قرب جسر بنات يعقوب على طريق دمشق - طبرية ، وخربه تخريباً كاملاً . ثم تحول نحو الشمال فأغار على صور وصيدا وبيروت ، ثم أمر اسطوله الذي بناه في الموانىء المصرية بالاغارة على عكا . وإزاء هذه الضربات المتلاحقة اضطر الملك « بلدوين » إلى طلب الصلح عام ١١٨٠م فوافق صلاح الدين ولكنه استمر على مهاجمة طرابلس التي لم يشملها هذا الصلح حتى اذعن اميرها وعقد صلحاً مماثلاً معه .

استغل صلاح الدين فترة هذا الصلح لتقوية دولته العربية الإسلامية ،

وزيادة أواصر الوحدة بين اجزائها ، والقضاء على ما تبقى من دويلات وإمارات ضعيفة في أطراف سورية والعراق .

في سنة ١١٨١م توفي الملك اسماعيل وأصبح ابن عمه عز الدين ملكاً على الموصل وحلب حيث وحد الامارتين في مملكة واحدة .

أما أحوال الصليبيين ، فقد مرض الملك « بلدوين » وبدأ يبحث عن وريث للعرش فزوج اخته الارملة « سيبل » إلى « غي دي لوسينيان » . وفي عام ١١٨٠م مات حليفهم القوي الامبراطور « مانويل كومنين » .

وكان الخلاف قد دب بين امرائهم حول مسألة من يخلف الملك بعد وفاته . وكان اقواهم أمير انطاكية (ريجنالد » الذي يسميه العرب « ارناط » إذ أضاف إلى امارته حصني الشوبك والكرك بعد أن تزوج الاميرة (ايتيت دي ميلي » وريثة عرش الاردن . وكان هذان الحصنان يسيطران على طريق الشام ـ الحجاز وطريق الشام ـ مصر . وكان هذا الأمير المتهوس يغير دوما على القوافل التي تسلك هذين الطريقين . ولقد تحدى « ارناط » الهدنة فجهز جيشا توجه به نحو الاراضي المقدسة في الحجاز حتى وصل « تيماء » على طريق المدينة ، الا أن « فرخ شاه » سارع وهاجم الاردن ، مما جعل « ارناط » يعود بسرعة للدفاع عن امارته بعد أن نهب قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى المدينة .

غضب صلاح الدين من عمل « ارناط » فأرسل يلوم الملك اللاتيني ويطلب اليه الايعاز إلى اميره برد المنهوبات ، إلا أن ارناط لم ينصع لأمر هذا الملك .

في سنة ١١٨٢ غادر صلاح الدين مصر على رأس قوة كبيرة وقرر أن يستقر نهائيا في دمشق ليسوس المملكة منها وليكون قريبا من فلسطين . ولقد حاول الصليبيون منعه من الوصول اليها فاحتلوا موضعا دفاعيا عند حصن الكرك بأمر « بلدوين » إلا أن « فرخ شاه » أمير دمشق هاجم طبريه وعكا

لاستدراجهم ولفت نظرهم إلى محل آخر ، ليسهل لعمه المرور والوصول إلى دمشق . وفعلا ترك الصليبيون موضعهم في الكرك وساروا إلى الجليل ، إلا أن صلاح الدين تحاشاهم وسلك طريقا آخر حتى وصل دمشق . أما الجيش الصليبي فسار إلى « صفورية » في اقليم الجليل وانتظر فيها يرقب ما سيقوم به صلاح الدين .

وهكذا نكث الافرنج اتفاق الصلح الذي سبق أن وقعوه .

في ١١ تموز ، يوليو ، سنة ١١٨٢ م ترك صلاح الدين دمشق وعسكر في سهل « الاقحوانة » جنوبي بحيرة طبرية ، وفي الوقت نفسه ارسل ابن أخيه « فرخ شاه » للاغارة على اقليم « الغور » وقد نجح هذا في الاستيلاء على بيسان ، ثم انضم اليه صلاح الدين وهاجما سوية حصن « كوكب الهوى » الذي يشرف على الطريق المؤدي إلى الناصرة ، واشتبكا مع الافرنج بمعركة ضارية انتصر فيها العرب . إلا أن صلاح الدين لم يستغل هذا النصر ايضا بل فضل العودة إلى دمشق . وفي السنة نفسها هاجم بيروت من البر والبحر وحاصرها حصارا محكما إلا أنه خاب في فتحها وعاد إلى دمشق ايضا .

في سنة ١١٨٣ م استولى صلاح الدين على حلب وضمها إلى ملكه ، فامتدت الجبهة الاسلامية تحت زعامته من جبال طوروس شمالا حتى النوبة جنوبا ، وتهددت انطاكية تهديدا مباشرا .

في أواخر سنة ١١٨٣ م كان موقفه قويا جدا . إذ كان الخليفة العباسي يؤيده ، وعز الدين مسعود اتابك الموصل يخافه ، والسلطان السلجوقي يتقرب اليه ، والامبراطورية البيزنطية قد عقدت الصلح معه . لذلك كان في موقف يشجع على شن هجوم عام على الصليبيين . اضافة إلى تردي موقف مملكة القدس اللاتينية ، إذ بلغ المرض بالملك بلدوين منتهاه حتى بات عاجزا عن تدبير شؤون المملكة فخول زوج اخته « غي » ادارتها نيابة عنه ، وكان هذا بليدا ، ضعيف الشخصية .

وفي خضم هذه الاحداث تحرك « ارناط » مرة ثانية نحو الحرمين الشريفين فاستولى على ميناء « ايلة » ونقل سفنا حمل اجزاءها على الجمال ركبها في الميناء وبدأ يهاجم الشواطىء الحجازية نفسها . وبات جيشه البري يهدد المدينة المنورة .

اسرع الملك العادل شقيق صلاح الدين الذي تركه حاكما على مصر فجهز اسطولا قويا هاجم به سفن ارناط وقضى عليها قضاء مبرما .

قرر صلاح الدين الهجوم على حصن الكرك والاستيلاء عليه ليتخلص من مضايقات ارناط ، الا أنه خاب بالاستيلاء عليه مرتين متعاقبتين .

بعد ذلك أخذ ينظم دولته ويوطد اركان حكمه ، فنقل اخاه العادل من مصر إلى حلب ، وولى ابنه الافضل وابن اخيه تقي الدين عمر على مصر ، ثم ابدل تقي الدين بابنه الثاني العزيز عثمان . ثم عزل اخاه من حكم حلب وعين ابنه الظاهر غياث الدين ، وعين اخاه العادل على الرها وحران وميافارقين .

في سنة ١١٨٥ م توفي « بلدوين » الرابع وتوج ابن اخته « سيبيل » ، الطفل من زوجها الاول باسم « بلدوين الخامس » ، وانتخب « ريموند الثالث » أمير طرابلس وصيا عليه ، فسارع هذا وعقد هدنة مع صلاح الدين لمدة اربع سنوات .

في سنة ١١٨٦ م وافق اتابك الموصل عز الدين مسعود على الانضواء تحت لواء صلاح الدين وأصبح تابعا له وبذلك قوي ساعده وتمت وحدة الاقطار الثلاثة مصر وسورية والعراق ، وتحقق الهدف الذي كان يسعى اليه ، وبات أمر القضاء على الصليبيين سهلا ميسورا .

في تلك السنة نفسها مات الملك الطفل « بلدوين الخامس » ، فتجدد الصراع بين الامراء الصليبيين على العرش . وبعد مؤامرات ومناورات أعلنت « سيبيل » ملكة مع زوجها « غي » بمساعدة « جوسلين » وبطريق القدس

وارناط ، ولقد اغاظ ذلك « ريمـوند » أمـير طرابلس ، فبـات يتقرب من صـلاح الدين محاولا الاتفاق معه ضد باقي الامراء .

معركة حطين

في الـوقت الذي كـان فيه « ريمـونـد » امير طـرابلس يتقـرب من صـلاح الدين ، وأمراء الصليبيين الآخرينمفككين يحتقرون ملكهم الضعيف « غي » ، خرق « ارناط » الهـدنة مـرة ثانيـة ، إذ انقض فجأة عـلى قافلة كبيـرة للمسلمين كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق في اوائل سنة ١١٨٧م واستولى عليها وكانت تحمل اموالاً نفيسة وغاليـة الثمن ، وأسر كـل من كان في القـافلة من مسافـرين وحراس وزج بهم في أقسى سجونـه . فأرسـل إليه صـلاح الدين طـالباً اطـلاق سراح الأسرى ورد الأموال إلا أنه امتنع . ثم أرسل إلى الملك « غي » طالباً إليه التدخل وتنفيذ نص معاهدة الصلح ، ولما تدخل هذا رفض « ارناط » الانصيـاع إلى اوامره .

رأى صـلاح الدين انـه قد آن الأوان لانـزال ضربتـه الكبرى بـالصليبيين مستغلاً خرقهم للهدنة ، خاصة وأنـه استطـاع توحيـد البلاد العـربية ، وطـوق المملكة اللاتينية من جميع الجهات ، وبات امـر القضاء عليهـا سهلاً . ومـا كان بالامكان تحقيق النصر عليهم بغير وحدة الأقاليم العـربية الثـلاثة مصـر وسوريـة والعراق التي هي الأساس في قوة العرب .

أخذ صلاح الـدين يستعد للحـرب ، فأعلن التعبئـة العامـة لجميع قـوى مملكتـه البشريـة والمادية ، وأرسل إلى قـادته وحكـامه في الأقـاليم يـطلب اليهم الاستعـداد وتجهيز الجيـوش لخوض معـركة الكـرامـة ، معـركـة تحـريـر الأرض السليبة . فسارت الجيـوش إليه من حلب ومصـر والجزيـرة وديار بكـر ، وعـين منطقة « رأس المـاء » الكائنـة شمال غـربي حوران منـطقة تحشـد لجيوشـه . وفي منتصف آذار ، مارس ١١٨٧م ترك دمشق إلى منطقة التحشد ، وفيها ترك جزءاً من قـوته مـع ابنه الافضـل انتظاراً لـوصول بـاقي الجيوش القـادمة من اطـراف

المملكة وسار هو وباقي الجيش إلى منطقة « بصرى » لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحجاز خوفاً عليها من غارة جديدة يقوم بها ارناط .

وفي ١١ أيار ، مايو ، تحرك على رأس قوة قوامها ١٢ ألف مقاتل نحو الكرك لمهاجمة « ارناط » في عقر داره ، وكان هذا ينتظر وصول القوات القادمة من مصر للقضاء عليها قبل وصولها منطقة التحشد ، إلا أن صلاح الدين كان أسرع منه حيث وصل الكرك وحاصرها قبل مرور قوات مصر . كما كان حريصاً على ألا يقاتل بأكثر من جبهة واحدة ، لذلك أرسل إلى حاكم حلب أمراً بالتقرب من « بوهيموند » أمير انطاكية ويصالحه ليأمن جانبه ويحول دون تدخله في المعركة الرئيسية . ولما تمت المصالحة أمن حياد أميري انطاكية وطرابلس . كانت طبرية من ممتلكات امير طرابلس وقد تحصن هذا بها غاضباً من تنصيب « غي » ملكاً على القدس في الوقت الذي كان يشعر فيه أنه أحق بالملك منه .

اتفق « غي » مع « فرسان الداوية »[1] و «الاسبتارية» على التقدم نحو طبرية وانتزاعها من أمير طرابلس أو اجباره على الخضوع للملك . ولما علم « ريموند » بذلك أرسل إلى صلاح الدين يطلب المعونة ، فأمده بالمساعدات وتحرك بنفسه إلى بانياس ليكون على مقربة من الاحداث .

حشد « غي » جيشه بالناصرة لغرض التقدم نحو طبرية ، إلا أن بعض

---

(١) كانت هناك منظمتان قويتان تأسستا بعد تأسيس المملكة اللاتينية في القدس هما :

الداوية : « فرسان الهيكل » TEMPLARS ، وسميت بذلك لأن بناء منظمتهم قد شيد حيث كان يقوم هيكل سليمان .

الاسبتارية : « فرسان المستشفى » HOSPITALERS ، وهم فرسان القديس حنا وسموا كذلك لأن منظمتهم اعتمدت اول الأمر على رهبان مستشفى القديس حنا في القدس .

أضاف الاسبتارية إلى نذورهم الدينية نذور الفروسية وأضاف الداوية الى نذورهم العسكرية نذور الدين . لذلك توحدت المنظمتان وعملتا معا ، وكانتا تملكان القلاع والحصون والاساطيل ولها حق عقد المعاهدات وجباية الضرائب .

والمنظمتان تشكلان قوة عسكرية شاركت في الحروب الصليبية بأدوارها كافة .

الأمراء نصحوه بـالاقلاع عن فكـرة الهجوم والسعي لمصـالحة أمـير طرابلس لأن الخطر الأكبر (صلاح الدين الأيوبي) قابع في بانياس لينتظر اكمـال حشد قـواته لتقويض العرش الصليبي والقضاء على المملكة برمتها ، وطلبوا إليه إرسال وفـد إلى أمير طرابلس « ريمـوند » ليقنعـوه بالـولاء للملك والاتحاد ضـد خطر العـرب الـداهم . وقد تـألف الوفـد من « جوزيف » اسقف صـور ، و« باليـان » حاكم بيت جبريل ، و« رينولد » أمير صيدا .

معركة صفورية :

قرر صلاح الدين في ربيع عام ١١٨٧م ارسال غارة استطلاعية نحو عكـا لتجمع له المعلومات وتختبر قوة الصليبيين ومعنـوياتهم . فجهـز قوة تعـادل فرقـة عهد بقيادتهـا إلى حاكم الـرها « مـظفر الـدين كوكبـري » . ولكي يختبر صـدق إخلاص « ريموند » ، طلب إليه أن يسمح لهذه القـوة بالمـرور من أراضي الجليل نحـو عكا . فسمـح هذا للقـوة بالمـرور وهو ممتعض . ولمـا علم قائـد الـداويـة « جيرار دي ريد فورد » بمرور هذه القوة جمع جيشاً من جماعته والاسبتارية قـرب صفورية لصدها . فدارت معركة رهيبة قتل فيها معظم قوة جيرار بضمنهم قائـد الاستبـارية ولم ينـج إلا جيـرار مـع بضعـة اشخـاص فقط ، ولمـا وصلت إليهم النجدات كانت المعركة قد انتهت فأسر العرب قوة النجدة بكاملها .

على أثر هذا النصر فكر « ريموند » ملياً فـوجد أن خـطر المسلمين يتـطلب نسيان الخلافات والاتحاد لمقاومته ، لـذلك حـال وصول الـوفد المـرسل من قبـل الملك لاقناعه ، أعلن ولاءه للملك ونكث عهده مع صلاح الدين وسار إلى عكا للالتقاء بالملك وباقي الأمراء وتدبير أمر الدفاع عن المملكة المهددة بالانهيار .

الاستعداد لحطين :

أكمل صلاح الـدين تحشد قـواته واستعـداداتها ، واستعـرضها في منـطقة حوران يوم الجمعة ٢٦ حزيران ، يونيو . وقد بلغ عـدد مشاتـه ١٣ ألف مقاتـل

وعدد فرسانه ١٢ ألف فارس . قسم قواته إلى ثلاثة اقسام : تولى بنفسه قيادة القلب ، وعهد إلى ابن أخيه تقي الدين قيادة الميمنة ، وعهد إلى مظفر كوكبري قيادة الميسرة .

وبعد أن تأكد من انجاز الاستعدادات كافة أصدر أوامره بالتقدم نحو الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية حيث انتظر هناك في « سهل الاقحوانة » خمسة أيام ارسل خلالها كشافته ومفارز استطلاعه لجمع المعلومات عن قوة الصليبيين واستعداداتهم .

وفي ١ تموز ، يوليو ، عبر نهر الاردن عند « سينابرا » (الصنبرة) ، وتقدم إلى « كفر سبتة » وعسكر فيها ، وهي واقعة في التلال الكائنة على بعد خمسة أميال غربي بحيرة طبرية . ولما علم بغدر « ريمونـد » أرسل قوة كبيرة هاجمت طبرية ودخلتها بعد قتال استمر مدة ساعة واحدة ، وكان « ريمونـد » وقتذاك مع الملك في عكا .

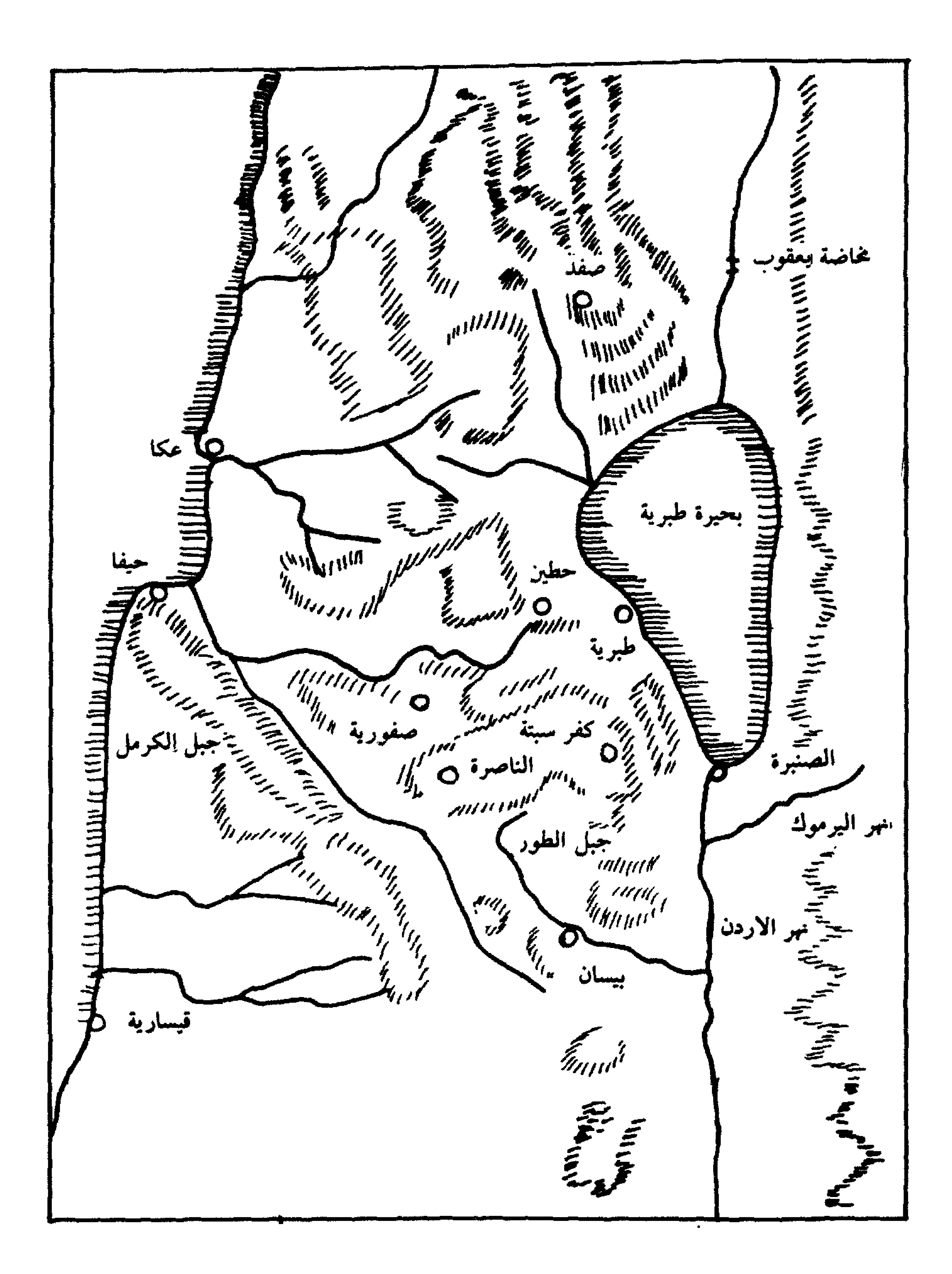
أما زوجته الكونتس « اشيفا » أميرة طرابلس والجليل فقد احتمت داخل قلعة طبرية مع حامية صغيرة وأرسلت رسالة إلى زوجها تخبره بما حدث .

كان غرض صلاح الدين من مهاجمة طبرية والوقوف على جانب الأردن الغربي هو اغراء الصليبيين على التقدم نحوه وقبول المعركة في المحل الذي اختاره لها . وكان يريد أن يبعدهم عن قواعدهم وقلاعهم ليقاتلهم في الأرض التي يستطيع أن يغلبهم فيها .

وصلت أنباء عبور العرب لنهر الأردن إلى المؤتمرين في عكا الذين كانوا متحمسين لفكرة التقدم إلى الشرق وصد صلاح الدين . وكان أقلهم حماسة « ريموند » الذي شعر بأن العرب يريدون استدراجهم ، فوقف ناصحاً اياهم بالتريث حيث قال[1] : « إن الجيش لا يتمكن من التقدم وقبول المعركة في مثل

---

(١) تاريخ الصليبيين ـ ستيفن رنسمان .



مخطط رقم (١)
معركة حطين

هـذا الفصل الشـديد الحـرارة ، ومن الاصلح قبول الـدفاع لحـين انتهاء فصـل الصيف ، فـإذا عجـز صـلاح الـدين عن كسـر دفـاعنـا ، سيضـطر إلى الانسحاب ، لأنه لا يستطيع ادارة هذه القوات الكبيرة التي حشدها لمـدة طويلة في مثـل هذه المنـطقة الشـديدة الحـرارة ، وخلال ذلـك ستصل إلينـا النجـدات ونتمكن في الخريف من قبول المعركة في المحل الملائم لنا » .

أيده في هذا الكلام بعض الأمراء وخالفه أرناط وشاتيلون وجيرارد واتهموه بـالجبن والضعف أمام العـرب . وقد أثـر كلامهم عـلى الملك فقرر التقـدم نحو صفورية وقبول المعركة فيها .

زحف الجيش الصليبي إلى صفورية ووصلها يوم ٢ تموز ، يوليو ، وعسكر فيهـا . وكانت مـوضعاً ممتـازاً تتـوفـر فيـه الميـاه والمـراعي الكثيـرة . وإذا نجـح الصليبيون باستدراج صلاح الدين إليها فستدور الدائرة عليه إذ سيسير في أرض قاحلة خالية من المياه ويصل إلى موضع سيطر العدو فيه على منابع مياهه ومراعيه وتهيأ لدحره .

إلا أن صلاح الدين لم يتحـرك من محله ، بل بقي ينتـظر عدوه في المحـل المختار .

وفي مسـاء اليوم الـذي وصل فيـه الجيش الصليبي إلى صفـوريـة وصلت رسالة الكونتس « اشيفا » من طبرية إلى زوجهـا « ريمونـد » . تخبره فيهـا بسقوط طبرية ومحاصرتها في القلعة .

دعـا الملك مجلس الأمـراء لـلاجتمـاع في خيمتـه ، وقـرأ عليهم رســالـة الكونتس ، فأجمع الحاضرون على ضرورة الزحف فوراً إلى طبرية لانقاذها ، وقد خالفهم « ريموند » وأصر عـلى البقاء في صفـورية لـلاستفادة من منـاعتها ووفـرة مياهها ، وأعاد اقتراحاته السابقة ونصحهم بعدم التهور والهجوم بمثل هذا الجو

الحار وقال[1] : « إن طبرية هي مدينتي ، والكونتس زوجتي ، وإني على استعداد أن اخسر طبرية وكل من فيها على ألا أدمر المملكة برمتها . وعلينا أن نغري العرب بالتقدم إلينا لأننا سنكون في وضع أفضل . وإنهم سيصلون مجهدين بسبب وعورة الطريق وحرارة الجو وقلة الماء » .

اقتنع معظم الحاضرين بوجهة نظره وانفض الاجتماع عند منتصف الليل مجمعين على البقاء في صفورية .

إلا أن جيرار قائد الداوية وارناط عادا إلى الخيمة الملكية وقالا للملك[2] : « هل أنت صدقت ما قاله هذا الخائن الغدار ؟ إنه لمن المخجل أن نخسر طبرية والمسافة بيننا وبينها لا تتجاوز ١٨ ميلا . إن فرسان الداوية والاسبتارية يتحرقون شوقاً للانتقام » .

استطاع القائدان إقناع الملك المتردد الضعيف الذي اقتنع قبل ساعة فقط بضرورة الدفاع في صفورية ، فأصدر أوامره للجيش بالتقدم نحو طبرية عند الفجر .

تقدم الجيش الصليبي إلى حطين :

كان هناك طريقان يؤديان إلى البحيرة ، وكان احسنهما هو الطريق المؤدي إلى الشمال الشرقي عبر تلال الجليل ، ثم الانحدار منها نحو البحيرة شمالي مدينة طبرية بميل واحد . أما الطريق الآخر فكان يتجه إلى الصنبرة جنوب البحيرة ماراً من قرب معسكر العرب في « كفر سبتة » .

قرر الملك التقدم من الطريق الأول متجنباً المرور بالعرب ، ولما علم صلاح الدين بهذا القرار قرر التحرك نحو الشمال والتعسكر على طريق تقدمهم ليحول دون وصولهم إلى طبرية أو إلى ضفة البحيرة ، فتحرك لمسافة خمسة أميال

---

(١) و(٢) تاريخ الصليبيين ـ ستيفن رنسمان .

عبر التلول واتخذ موضعه قرب قرية حطين في المحل الذي يبدأ فيه طريق تقدم العدو بالهبوط نحو البحيرة . وكانت المراعي والمياه متوفرة بكثرة في هذا الموضع . وطلب إلى أغلب قطعاته الموجودة في طبرية اللحاق به . ولم يبق فيها إلا قطعات صغيرة قادرة على ادامة الحصار على القلعة التي لجأت اليها الكونتس .

كان يوم ٣ تموز ، يوليو ، حاراً جداً . وفي صباحه الباكر ترك الصليبيون موضعهم المنيع في صفورية وساروا في تلول جرداء لا نبت أو ماء فيها . كان « ريموند » أمير طرابلس يقود المقدمة . وقاد الملك المركز ، بينما تولى « ارناط » و« بالين » قيادة المؤخرة .

لم يكد الجيش يصل منتصف الطريق حتى أخذ الرجال والخيل يعانون من العطش الشديد . وفي هذا الوقت اخذت دوريات العرب تهاجم مقدمة ومؤخرة الجيش بواسطة السهام ، وكانت تضرب ثم تنسحب بسرعة متحاشية الاصطدام . وعند الظهر وصل الجيش إلى الهضبة الكائنة فوق حطين التي ترتفع عن سطح البحر بأكثر من ٣٠٠ متر ، وكانت الهضبة تحتوي على قمتين ارتفاع كل منهما ١٠٠ قدم وقد سميت هاتان القمتان بـ « قرون حطين » .

وما أن شاهد الافرنج معسكر العرب في أسفل التلال حتى قرروا التوقف على الهضبة وتدارسو الأمر ، فنصح بعضهم بضرورة الهجوم فوراً والوصول إلى البحيرة بينما نصح البعض الآخر بالتعسكر على الهضبة واستئناف الهجوم في اليوم التالي . وكان فرسان الداوية اشد المتحمسين على التعسكر واصروا على ذلك فوافق الملك ، ونصبت الخيام للمبيت . وكان المعسكر قرب بئر جاف خال من الماء ، وأمامه أرض شديدة الانحدار نحو قرية حطين والبحيرة .

المعركة

كان صلاح الدين ينتظر اسفل السفح ، ولقد شعر بخطيئة العدو الكبرى بالتوقف فوق الهضبة بعيداً عن الماء الذي كان أمامهم على بعد أميال فقط .

ولقد مرت ليلة عصيبة عليهم حيث كانوا يعانون العطش الشديد ، حتى خاطر بعضهم بالتقدم ليلاً للبحث عن الماء . وحتى يزيد العرب موقفهم حراجة ، أحرقوا الأشواك اليابسة الكائنة في سفح الجبل ليزيد لهيبها ودخانها من تعاسة خصومهم .

وتحت جنح الظلام حرك صلاح الدين قواته للاحاطة بالهضبة وتطويق الخصم قبل حلول الصباح . وما كاد صباح يوم ٤ تموز ، يوليو ، يظهر حتى كان الطوق محكماً حول معسكر الافرنج ، ومع الضوء الأول بدأ هجوم الجيش العربي ، فكانت معركة رهيبة ، استغل فيها العرب ضعف معنوية العدو وتعبهم وعطشهم ، فشددوا عليهم الخناق ، فلم يصمد المشاة أمامهم . أما الفرسان فكانوا يقاتلون بشجاعة فوق الهضبة حول خيمة ملكهم . ولما رأى « ريموند » أن لا منجاة له من معركة الابادة الدائرة على الهضبة ، تمكن مع بعض فرسانة من شق طريق في الجبهة التي كان يقاتل فيها تقي الدين وهرب ناجياً بنفسه .

أخذت الدائرة تضيق على قوة الافرنج ، وكانوا يتراجعون نحو أعلى الجبل باتجاه « قرون حطين » بعد أن نقلوا خيمة الملك اليها . وقد سقط أسقف عكا قتيلاً ووقع من يده « صليب الصلبوت » فاستولى عليه العرب . واستمرت المعركة على شدتها ، وكان فرسان الصليبيين ومشاتهم يتساقطون واحداً بعد الآخر حتى لم يبق مع الملك سوى ١٥٠ شخصاً فقط استسلموا وهم على أشد ما يكونون من الاعياء . وكان بين الأسرى الملك و« ارناط » و« جيرارد » وعدد كبير من الأمراء . ولقد سقط أغلب الجيش بين قتيل وأسير . وقيد الملك ومرافقوه إلى خيمة صلاح الدين الذي أحسن استقبالهم وناول الملك بيده كأساً من الماء ليطمئن باله حيث كان من عادة العرب إن قدموا ماء بيدهم إلى عدوهم أنه حصل على الأمان . ولما شرب الملك ناول الكأس إلى «ارناط » الذي كان بجانبه ، فانتبه صلاح الدين وقال للملك : « إني لم أناوله الكأس لذلك ليس له عندي أمان » وأمر بقتل « ارناط » لغدره مرات عديدة ، وعفا عن الملك وباقي

الأمراء ، وأمر بمعاملتهم وباقي الأسرى معاملة جيدة ، كما أمر بارسالهم إلى دمشق .

خسر الصليبيون في هذه المعركة جيشهم بكامله ، ولم ينج منه إلا عدد ضئيل .

تقول بعض المصادر أن عدد الجيش الصليبي كان ٢٢ ألف مقاتل ، وأخرى تقول ٥٠ ألف مقاتل ، وثالثة تقدره بـ ٦٠ ألف مقاتل ، وقع ثلاثون ألفاً منهم بالأسر وقتل الآخرون .

حقق هذا النصر الحاسم الحلم الذي كان يراود صلاح الدين منذ مدة طويلة بطرد الصليبيين من البلاد ، لذلك أخذ يزحف بسرعة نحو المدن المحتلة الأخرى فكانت تتساقط الواحدة بعد الأخرى دون مقاومة . وكانت قلعة طبرية أول من رفع راية الاستسلام ، فعامل صلاح الدين الكونتس « اشيفا » وفرسانها معاملة حسنة . وسمح لها ولفرسانها بالالتحاق بزوجها الذي هرب إلى طرابلس .

بعد حطين :

قرر صلاح الدين تأجيل التقدم نحو بيت المقدس والتوجه بسرعة نحو المدن الساحلية والاستيلاء عليها ، ليمنع الصليبيين من الاستفادة من قواعدهم البحرية التي تصلهم بأوروبا ، وبذلك يمنع عنهم النجدات التي تصل بواسطتها ، فيتم عزلهم في الداخل ويسهل امر القضاء عليهم وفي الوقت نفسه يتمكن هو من استخدام هذه الموانىء للاتصال بالأقليم المصري عن طريق البحر . ولقد تمكن من الاستيلاء على عكا بسهولة ، ثم استولى على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والطور . كما استولى اخوه العادل على حصن مجدل يابا ويافا ، واستولى ابن اخته حسام الدين على سبسطية وقلعة تبنين .

كما سقطت صرفند وصيدا وبيروت وجبيل . ثم توجه نحو الجنوب

واستولى على اللد والرملة والداروم وغـزة واللطرون وبيت جبرين وأخيراً عسقلان .

وبعدها أخذ يعد عدته لفتح بيت المقدس . ولقد ارسل بعض الرسل ليقنع أهلها بالتسليم ، إلا أنهم رفضوا ، وكان « باليان الثاني » زوج الملكة « ماريا كومنين » أرملة « عموري الأول » يحرضهم على القتال . لقد وقع هذا بالأسر في معركة حطين وتوسل إلى صلاح الدين أن يسمح له بالذهاب إلى القدس لأخذ زوجته وأطفاله ، ولقد أعطى لصلاح الدين كلام شرف بالعودة وعدم البقاء في القدس ، إلا أنه أخلف بوعده وأخذ يحصن المدينة ويقوي معنوية سكانها على القتال .

ولما خابت كل جهود صلاح الدين لدخول القدس دون قتال تحرك نحوها فوصل الجانب الغربي منها ولما وجده منيعاً اخذ يستطلع باقي الجوانب ، فلبث خمسة أيام يستطلع ويدرس أحوال السور حتى وجد أن الجهة الشمالية أقل تحصيناً وأوهن مكان في السور .

وفي يوم ٢٠ ايلول ، سبتمبر ، ١١٨٧م بدأ هجومه من جهة كنيسة صهيون وفتح ثغرة فيها دخل منها بعض رجاله .

شعر « باليان » باستحالة المقاومة ، لذلك ارسل إلى صلاح الدين يطلب اليه قبول تسليم المدينة بشرط حماية أهلها ، إلا أن صلاح الدين اصر على التسليم بدون قيد أو شرط . إلا أن اصرار « باليان » وفرسانه على القتال حتى آخر نفس والتهديد بحرق المدينة ومن فيها جعله يرضخ لشروطهم فوافق على دخولها صلحاً وأعطى لأهلها الأمان ، وسمح لمن يريد مغادرتها منهم بالذهاب .

وهكذا سقطت بيت المقدس وعادت عربية بعد أن بقيت في حوزة الصليبيين منذ سنة ١٠٩٩م .

تذكر صلاح الدين وهو يقف تحت قبة الصخرة في القدس كيف دخل

الصليبيون القدس في تلك السنة ، وكيف استباحوا اهلها ونهبوا دورها وقتلوا شيوخها وأطفالها ونساءها ، وارتكبوا من الجرائم الوحشية ما يندي له جبين الانسانية . وها هو الآن يرد السيئة بالحسنة ويعامل أهلها الذين حاربوه وشيوخهم ونساءهم معاملة الرجل الشريف فيعفو عنهم ويخيرهم بين البقاء والرحيل ، ويصون كرامتهم وأعراضهم وأموالهم . يا له من موقف نبيل ، موقف بين عقليتين ، عقلية انسانية امتاز بها العرب في جميع حروبهم وفتوحاتهم ، وعقلية همجية امتازت بها شعوب اوروبا في حروبهم وفتوحاتهم كافة .

في سنة ١١٨٨م استولى العرب على اللاذقية وطرطوس وعندما حلت سنة ١١٩٠م[١] كان بيد الصليبيين من مملكة القدس مدينة صور فقط . ومن امارة طرابلس العاصمة طرابلس وحصن الاكراد . ومن امارة انطاكية ، انطاكية وميناء السويدية ، وحصن المرقب .

أزعج سقوط القدس أوروبا فثارت حميتها الدينية التي أججتها مصالح التجار الذين خسروا بعض موانئهم على ساحل البحر الأبيض فراحوا ينفقون الأموال لشن حرب صليبية جديدة يستعيدون بها المدن التي خسروها وليقضوا على هذا البطل القائد صلاح الدين الذي استطاع توحيد العرب واسترداد الأرض السليبة منهم .

وهكذا سارت الحملة الصليبية الثالثة التي ترأسها « فيليب أوغست » ملك فرنسا و« ريشارد » (قلب الأسد) ملك انكلترا ، فدارت معارك طاحنة بين الطرفين لا مجال لذكرها الآن . إلا أن الصليبيين لم يستطيعوا تثبيت اقدامهم مرة ثانية في فلسطين ونزحوا عنها نهائياً عام ١٢٩١م .

اقتبس الصليبيون خلال الحروب الصليبية كثيراً من مظاهر الحضارة العربية نقلوها إلى اوروبا المتأخرة[٢] . وكان من جملة ما اقتبسوه بعض مظاهر

---

(١) صلاح الدين الأيوبي ، قدري قلعجي ، ص ٣٦٠ .

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٥١ ، فيليب حتي .

الفن العسكري العربي ، فقد تعلموا القوس المصلبة ، وارتداء الدروع الثقيلة وارسال الرسائل الحربية بواسطة الحمام الزاجل ، وإرسال الارشادات ليلاً بواسطة ايقاد النار . وتعلموا مباريات البطولة بين الفرسان ، واحتكاكهم بفرسان العرب أغراهم باتخاذ الأوسمة وشارات البطولة . ولقد اقتبسوا النسر ذا الرأسين الذي نقشه عماد الدين زنكي على نقوده ، وهو شعار سومري قديم ، فقلده فرسان المائدة المستديرة ، ثم انتقل منهم إلى بيزنطة ، وفي سنة ١٣٤٥ اتخذه اباطرة المانيا شعاراً لهم .

أما زهرة الزنبق التي اشتهر امرها عند الاشوريين فقد ثبتها نور الدين شعاراً على الدروع ، ثم اقتبسها منه الصليبيون ، وتسربت منهم إلى الفرنسيين .

كما اقتبس الاوروبيون من العرب فن بناء الحصون والقلاع التي شاهدوها في سورية ومصر[1] من ذلك نظام « المشربيات » الذي عرفته العمارة الحربية ، وهذه عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب منه السهام إلى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت جدران الحصن أو يشعلوا النار فيه ، كذلك يمكن منها أن يصب الزيت والماء المغلي على رؤوس المحاصرين ، ولقد نقل هذا الفن الحربي إلى اوروبا فظهرت المشربيات في قلاع « شاتو جيار » و« نورويتش » . كما اقتبسوا طريقة صنع أبواب الحصون ، حيث كان العرب يصنعونها على شكل زاوية قائمة أو بشكل متعرج ، حتى لا يتمكن العدو من رؤية الفناء الداخلي للقلعة أو الحصن أو يصوب سهامه إلى من فيه . وقد ظهر هذا الاقتباس بوضوح في قلعة « بوماريس » في انكلترا ، وقلعة « كاركاسون » في فرنسا . كما اقتبسوا ادوات الحصار كالمجانق والكباش الهدامة .

---

(١) الحركة الصليبية ، سعيد عاشور ، ص ١٢٧٠ ج ٢ .

إن أهم ما يسترعي النظر في معركة حطين هـو اصرار صـلاح الدين عـلى أرغام خصمه على قبول المعركة في المحل الذي اختاره لها لتـدمير جيشـه بكامله وشل ارادته على القتال ، فهاجم طبرية ليغري الخصم بالتقدم من منطقة تحشده في عكا وصفوريـة في فصل شـديد الحـرارة عبر منـطقة قـاحلة . ولما وصـل هذا الخصم إلى ساحة المعركة نفذ صلاح الدين خطة تـطويق محكمة أدت إلى معـركة ابادة مثالية . وما كان يحصل على هذا النصر لو لم يـوحد البـلاد العربيـة في دولة قوية استطاعت تحدي الصليبيين وأوروبا .

برز في هذه المعركة مبدأ الأمور الادارية وتأثيـره على ربـح المعركـة بصورة واضحـة ، فنقص الماء والغـذاء في ساحـة المعركـة أثر عـلى معنويـات الصليبيين وسبب انهيارهم السريع .

ولقد طبق القائد صلاح الدين مبادىء تـوخي الهدف والتحشـد والتعرض بنجاح تام .

مَعركَة عَين جَالوت

٢٥ رمضان ٦٥٨هـ
٦أيلول سنة ١٢٦٠م

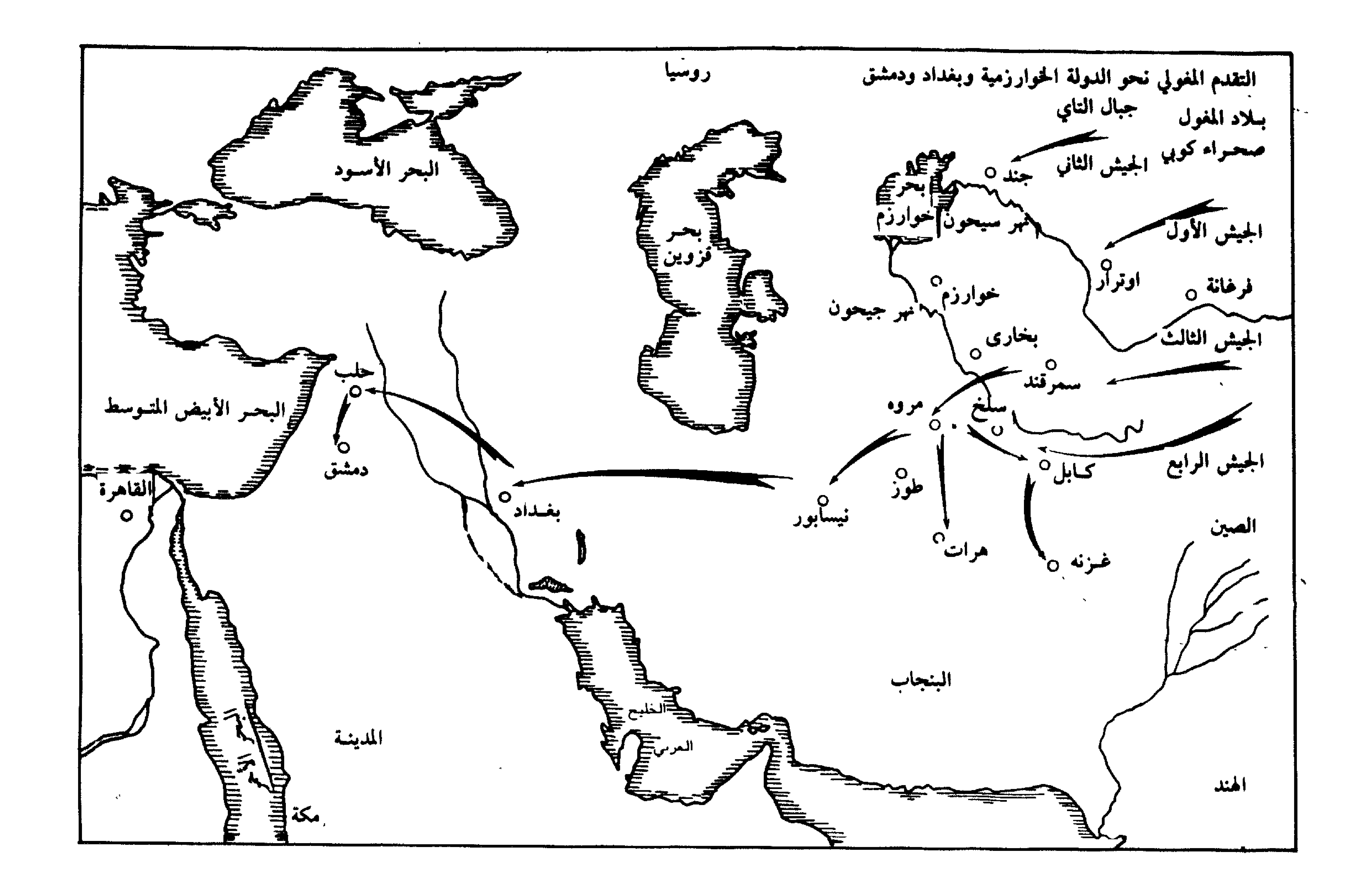
ظهور المغول :

كان المغول عشـائر متفـرقة ومتبـاغضة تسكن منـطقة « كـوبي » (منغوليـا الحـالية) ، التي تمتـد من شمال الصـين حتى تصل حـدود سيبيريـا وهي تـدين بـالوثنيـة . وفي سنة ٦٠٠هـ ، ١٢٠٦م ، استـطاع تيموجـين احـد زعـماء هـذه القبائل السيطرة عليها وتوحيدها تحت زعامته واعترفت به جميعها امبراطوراً عـلى كل المغول باسم « جنكيز خان » ، وكان عمره يومئذ ٥١ سنة .

وكانت هذه القبائل قوية الشكيمـة ، شديـدة المراس ، خشنـة الطبـاع ، دموية . تعيش حياة البداوة وتسكن الخيام وتأكـل ما تجـود به صحـراء كوبي من الأكل البسيط ، بارعة بركوب الخيل .

ولقد أخذ جنكيز خان يعد جيشاً قوياً عماده الخيالة ليسيطر بواسطتـه على الممالك الغنية المجاورة للدولة التي اسسها في منغوليا . وبعـد أن تم اعداد هـذا الجيش اخذ يزحف بـه لتأسيس الامبـراطوريـة المغوليـة التي دوخت العالم زهـاء الخمسين سنة التالية .

ولقد دك في البداية عرش الصـين العظيم وفتـح عاصمتهـا « بكين » سنـة


التقدم المغولي نحو الدولة الخوارزمية وبغداد ودمشق
روسيا
جبال التاي
بلاد المغول
صحراء كوبي
الجيش الثاني
جند
بحر خوارزم
نهر سيحون
الجيش الأول
اوترار
فرغانة
خوارزم
نهر جيحون
بخارى
الجيش الثالث
سمرقند
بلخ
مروه
الجيش الرابع
كابل
طوز
نيسابور
هرات
غزنه
الصين
البنجاب
الهند
البحر الأسود
بحر قزوين
البحر الأبيض المتوسط
حلب
دمشق
بغداد
القاهرة
المدينة
مكة
الخليج العربي

١٢١٥م . ثم اخذ يحتك بالدولة الاسلامية في خوارزم حتى اعتنق بعض اتباعه الدين الإسلامي . وقد عقد معاهدة تجارية مع السلطان الخوارزمي علاء الدين ، وبعث وفداً مغولياً من ٤٥٠ شخصاً من مسلمي المغول إلى خوارزم لتنسيق التبادل التجاري . وعندما وصل الوفد إلى مدينة « اوترار » تصدى لهم بعض الخوارزمين وقتلوهم جميعاً . ولما علم جنكيزخان بذلك قرر شن حرب دموية مميتة على الدولة الاسلامية الخوارزمية .

ولقد جهز اربعة جيوش لهذا الغرض :

الأول بقيادة اثنين من ابنائه وتعداده (٧٠) ألف جندي توجه لفتح مدينة اوترار التي قتل فيها التجار .

الثاني بقيادة ابنه الاكبر « جوشي » الذي اجتاح ساحل نهر سيحون وفتح مدينة « جند » .

الثالث توجه إلى منافذ جيحون .

الرابع بقيادته وهو الجيش الاكبر توجه إلى بخاري وسمرقند .

وتمكنت هذه الجيوش من احتلال أهدافها وتدمير جميع المدن وقتل أهاليها وسبي نسائها ونهب ممتلكاتها .

ثم استمر زحفه فأحتل مدن « بلخ » و« هراة » و« الري » وكان السلطان علاء الدين ينسحب بسرعة أمام هذا الاعصار حتى وصل بحر قزوين وتنازل هناك عن العرش لابنه جلال الدين ، وبعد فترة وجيزة مات غماً .

ثم سقطت مدينة خوارزم نفسها بعد حصار استمر اربعة شهور ولقد دمرت حتى ازيلت نهائياً من الوجود .

وبعد اكمال احتلال اقليم خوارزم اتجه المغول نحو اقليم خرسان فدمروا

مـدن « مرو » و« نسـا » و« نيسابـور » و« غزنـة » . ثم اتجه إلى ولايـة البنجـاب، الإسلامية في الهند .

وفي سنـة ١٢٢٧م مات جنكيـزخـان وخلفـه عـلى العـرش والقيـادة ابنـه « اوكتـاي » . ولقد دارت معـارك كبيرة بـين جيوش اوكتـاي وجيـوش السلطان الخوارزمي جلال الـدين انتهت بموت الأخـير ووصول المغـول إلى حدود العـراق الشمالية .

ولقد توقف الزحف المغولي على البلاد الإسـلامية لفتـرة وتوجـه إلى روسيا واحرق موسكو ثم فتح بولندا ووصل إلى مدينة برلين ثم فيينا ووصل إلى ساحل البحر الادرياتيكي .

وقبل وصول المغول إلى (روما) مات الامبراطور المغولي « اوكتاي » وتولى العرش بعده ابنه « منكو » الذي كلف أخاه هـولاكو استئنـاف الزحف من بـلاد فارس نحو بغداد .

كـان الخليفة المستعصم بـالله ضعيفاً وعـاجزاً ولقـد فرح بسقـوط الـدولـة الخـوارزمية التي كـانت خارجـة على سلطتـه ولم يقـدم اليهـا أيـة مسـاعـدة رغم استنجاد سلطانها جلال الدين به . كـما أن الخليفة لم يستعـد لحرب المغـول عند وصولهم حدود العراق ولم يجهز الجيوش اللازمة لصدهم ، لذلك تقـدم هولاكـو بيسـر نحو بغـداد وحاصـرها واستسلمت لـه يوم الأحـد ٤ صفر ٦٥٦هـ ، ١٠ شباط ، فبراير ، ١٢٥٨م . فعمل فيها قتلاً وتدميراً وسبياً حتى بلغ عدد القتـلى داخـل المدينـة مليون شخص . ولقـد غادر هـولاكو بغـداد عـلى عجـل حتى لا يصاب بالأوبئة الناتجة عن مذبحتها .

وبعـد سقوط بغـداد بعام واحـد (٦٥٧هـ ، ١٢٥٩م) ، سقـطت مـدن الشـام الواحـدة بعد الأخـرى ، فسقطت مـاردين ونصيبـين وحلب واستسلمت دمشق .

ولقد تحالف الأرمن وبقايا الصليبيين مع المغول ضد العرب والمسلمين . وعندما كان هولاكو يستعد لغزو مصر وردته الانباء عن وفاة اخيه الامبراطور منكو فأضطر إلى العودة إلى منغوليا وعين محله القائد « كيتوبوقانويان » .

الموقف العام في البلاد العربية والاسلامية :

عندما احتل المغول الصين وبدأوا بالاستعداد لغزو العالم الاسلامي كانت الخلافة العباسية في بغداد تحتضر ولم يملك الخليفة العباسي من الامبراطورية العظمى التي أسسها المسلمون الأوائل سوى بغداد وحدها ، أما بقية البلاد ، فقسم منها قد انسلخ عن الخلافة والقسم الآخر تقسم إلى دويلات يحكمها المماليك وملوك الطوائف . وكانت هذه الدويلات نفسها ينازع بعضها البعض .

ففي الشرق كانت الدولة الخوارزمية التي تضم ايران وافغانستان وتركستان وكانت هذه الدولة في نزاع مستمر مع جيرانها المسلمين فأضعفتهم وضعفت هي الأخرى من كثرة الحروب والاضطرابات .

وفي بغداد كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله ومن بعده المستعصم بالله اضعف من أن يعيدوا للخلافة هيبتها ويوحدا الأمة التي باتت تنطق بالعربية من المحيط الاطلسي إلى حدود الصين .

وكانت سورية تحكمها بقايا اسرة صلاح الدين الأيوبي بينما الفرع الآخر من الأسرة يحتضر في مصر نتيجة سيطرة المماليك على الحكم فيها .

وأما شمال افريقيا والاندلس فقد تفتت هي الأخرى إلى دويلات وامارات ضعيفة ، وكذلك الحال في جنوب الجزيرة العربية .

الموقف السياسي في مصر :

بعد وفاة الملك الصالح ومقتل ولده الملك المعظم على ايدي المماليك البحرية وهب هؤلاء عرش مصر إلى شجرة الدر ارملة الملك الصالح .

فتزوجت هذه الأمير عزالدين ايبك زعيم المماليك البحرية ونصبته ملكاً باسم الملك المعز . لبث هذا على العرش سبع سنين استطاع خلالها أن يؤمن نوعاً من الاستقرار . ولما دب الخلاف بينه وبين شجرة الدر على أثر عزمه على الزواج من أخرى دبرت له شجرة الدر مؤامرة ادت إلى اغتياله في حمام بيتها . إلا أن اعوانه تصدوا لها وقتلوها شر قتلة ونصبوا ابنه الملك المنصور محله ، وكان عمره ١٥ سنة ، وأصبح الحاكم الفعلي للبلاد الأمير سيف الدين قطز زعيم المماليك البحرية . وفي هذه الاثناء وصل كمال الدين عمر بن العديم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف ملك حلب والشام يطلب نجدة مصر لتخليص الأرض السورية من العدو المغولي المحتل .

ولقد درس قطز الموقف فوجد أن المغول لا بد لهم أن يتقدموا الى مصر لاحتلالها . وللدفاع عن مصر عليه أن يقبل المعركة خارج اراضيها لذلك عزم أن يتقدم إلى أرض الشام لمنازلة المغول فيها وفي ذلك يؤمن غرضين :

الأول : ابعاد المعركة عن أرض مصر .

الثاني : انقاذ البلاد السورية من الاحتلال المغولي .

وكان لا بد له أن يهيىء الشعب المصري نفسياً واقتصادياً وعسكرياً لهذا القتال ، لأن المعركة ستكون فاصلة ، فأما أن يدمر آخر المعاقل الاسلامية أو يطرد المغول من الأرض العربية .

وكان أول قرار اتخذه قطز هو عزل الملك الطفل من العرش وتولى عرش مصر بنفسه ، لذلك جمع الأمراء والمشايخ والاعيان ووقف فيهم خطيباً وشرح لهم الموقف وطلب موافقتهم على عزل الملك والمناداة به ملكاً فوافقوا جميعاً . لذلك أمر بالقبض على الملك وأمه وأفراد حاشيته وبعض الأمراء المعارضين له وزجهم في السجن . وأخذ يستعد للحرب بهمة وجد . وفي هذه الاثناء وصلته انباء هروب الملك الناصر صلاح الدين من دمشق واستسلامها للمغول ، كما وصلته رسالة من هولاكو جاء فيها : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان

الاعظم : باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز وسائر امراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، انا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، واسلموا إلينا امركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا ، ولقد سمعتم ، أننا فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأي أرض تأويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تحميكم ، فما لكم من سيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فإنكم اكملتم الحرام ، وختنتم العهود والايمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فابشروا بالمذلة والهوان ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . فلا تضلوا الخطاب ، وإسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد انصفناكم إذ راسلناكم ، وايقظناكم اذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الاعلى » .

وما أن تسلم السلطان قطز هذه الرسالة حتى أمر بقتل الرسل الأربعة وعلق رؤوسهم على باب « زويلة » ومضى في استعداداته للحرب .

وفي هذه الاثناء وصلت الانباء إلى هولاكو بموت أخيه الملك فأسرع عائداً إلى منغوليا وعهد بقيادة جيشه إلى القائد « كيتوبوقانويان » وأمره بالتقدم إلى مصر . فتقدم هذا بجيشه حتى وصلت طلائعه إلى غزة واحتل جنوب فلسطين . اما قطز فإنه بعد أن اكمل استعداداته وتحشد قواته ترك القاهرة في يوم ٥ شعبان ٦٥٨هـ ، آب اغسطس ، سنة ١٢٦٠م ، متجهاً نحو الصالحية . وارسل طلائع جيشه بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري لاستطلاع اخبار المغول .

تنظيم الجيش المغولي :

كان المغول يتبنون فكرة الحرب السريعة الخاطفة . لذلك كان جيشهم مؤلفاً من الخيالة فقط ، ولم يهتموا بتنظيم المشاة أو يعتمدوا عليهم بحروبهم خاصة بعد أن اخذت غزواتهم وفتوحاتهم هذا البعد الشاسع بالنسبة لذلك العصر . فقد تقدموا من منغوليا حتى وصلوا فيينا في أوروبا وفلسطين في آسيا . وكانت أسلحتهم بسيطة تعتمد على الرمح والسيف والقوس ولم يهتموا بالتدريع أو اللبس الثقيل الذي يعيق حركتهم .

كانت فرق الخيالة مؤلفة من نوعين :

الأول : فرق حاملي السهام ، وتقوم بواجب المدفعية .

الثاني : فرق حاملي الرماح والسيوف وواجبهم الهجوم الخاطف والسريع .

تنظيم الجيش المصري :

بلغ عدد الجيش المصري الذي حشده قطز زهاء ٤٠٠ الف مقاتل وكان مؤلفاً من الخيالة والمشاة . وكانت نسبة المشاة هي الغالبة (٢ إلى ١) :

الخيالة ، وجلهم من المماليك وكانوا يرتدون الدروع التي نقلوها عن الصليبيين وكانوا مسلحين بالسيوف والرماح .

المشاة ، وكان معظمهم من المصرين المسلحين بالسيوف والرماح والبلط والهراوات المسننة .

البدو ، وكان عددهم بضعة آلاف يركبون الابل ، وكانوا يشكلون جيشاً غير نظامي استخدمهم قطز بالاغارة على خطوط العدو الخلفية ومراكز تموينه ، خاصة وانهم كانوا بارعين في معرفة مسالك الصحراء ، ومتعودين على طبيعتها المناخية والمعاشية .

القائد المصري العام :

كان الأمير قطز من أصل تركماني وهو ابن اخت السلطان جلال الدين الخوارزمي واسمه الاصلي محمود بن ممدود ، ولما حلت النكبة بدولة خوارزم وامعن المغول في قتل ملوكها واسرهم ، نجا محمود وكان آنذاك طفلاً صغيراً فوقع بيد احد تجار الرقيق الذي سماه سيف الدين قطز وصحبه مع غيره من الرقيق إلى البلاد الشامية وباعه إلى شخص يدعى « ابن الزعيم » . لذلك تربى على كره المغول وكان يتوق إلى محاربتهم والانتقام لعائلته وابناء امته ودينه الإسلامي ولقد شب قطز وتعلم الفروسية وفنون القتال والتحق بخدمة الملك المعز ايبك التركماني .

ولقد امتاز قطز بالذكاء والشجاعة والحكمة . وكان مقداماً وحازماً حسن التدبير ، متديناً ، قوي الارادة ، واسع الإطلاع في أمور الحرب ، بعيد النظر . ولقد تجمعت فيه صفات القيادة الجيدة كلها .

التقدم إلى أرض المعركة

تقدم الجيش المصري :

بعدما اكمل قطز استعدادات الجيش المصري قرر أخذ زمام المبادأة والتقدم فوراً إلى فلسطين لمنازلة المغول في أرضها .

وقد ترك القاهرة في يوم ١٥ شعبان ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) ، وقد دفع امامه مقدمة من الخيالة بقيادة ركن الدين بيبرس لستر التقدم والاستطلاع وطرد المفارز الأمامية التي أرسلها القائد المغولي إلى قرب غزة .

لقد قطعت الخيالة صحراء سيناء بسرعة خاطفة وباغتت مفارز الجيش المغولي في غزة التي كانت بقيادة « بيدرا » . وبعد معركة حامية انسحب بيدرا من غزة ثم من جنوب فلسطين ودخلها بيبرس منقذاً ومحرراً . ولقد كان هذا

أول نصر ضد المغول . فقويت عزائم العرب وارتفعت معنوياتهم بعد أن كان الاعتقاد السائد ان الجيش المغولي جيش لا يغلب .

واصل بيبرس تقدمه فاحتل يافا وقيصرية ووصل إلى جبل الكرمل ، جنوب حيفا ثم انحدر نحو نهر الجالوت والتقى بالجيش المغولي قرب قرية عين جالوت الواقعة بين بيسان والعفولة ، وقد نجح بيبرس في تثبيت قوات المغول المحتشدة فيها لحين وصول القسم الأكبر بقيادة قطز . ولقد وصل القسم الاكبر وأكمل تحشده في سهل « دزرائيلون » قرب عكا الذي كان لا يزال تحت سيطرة الصليبيين ، ولقد وافق هؤلاء على معاونة المسلمين خوفاً من جيشهم الجرار وتخلصاً من الفظائع التي زرعها المغول في كل مكان . إلا أنهم رغم سماحهم لتعسكر الجيش الإسلامي اصروا على الحياد اثناء القتال .

ولقد بلغ تعداد الجيش المصري المحتشد ٤٠٠ ألف مقاتل .

خطط الطرفين

خطة المغول :

تعتمد خطة المغول التي برعوا فيها في جميع حروبهم على تجنب الاشتباك الواسع مع الخصم في البداية . فيقومون بهجمات بسيطة في محلات مختلفة حتى يكتشفوا نقاط الضعف في صفوف الخصم ليحشدوا قواهم الرئيسية أمام نقطة الضعف ويشنوا هجومهم الكثيف عليها .

يبدأ الهجوم بقصف كثيف من قبل حاملي السهام فيختل توازن الخصم ومن ثم يبدأ الهجوم .

وفي معركة عين جالوت قرر القائد المغولي بعد دراسته الموقف وقيامه بالهجمات المحدودة لكشف نقاط الضعف ، القيام بهجوم جبهوي وتحطيم مركز

تجمع المسلمين وقسمها إلى قسمين والنفاذ من الوسط والالتفاف على مؤخرة القسمين المنشطرين .

ولقد وضع خطة بديلة تقضي بالتظاهر بالانسحاب عند فشل هجوم المركز لاستدراج الجيش المصري وإخراجه من مواضعه الرئيسية وعندئذ تقوم فرق الخيالة السريعة بالانقضاض عليه وتحطيمه .

خطة المصريين :

درس قطز بعناية اساليب وخطط المغول الهجومية ، وقد رأى ان المغول يعتمدون على القتال المتحرك مستفيدين من خفة حركة الخيالة وهي عماد جيشهم وقتالهم . وقرر أن تتخذ المعركة شكل القتال الثابت ، لذلك قرر أن يتخذ موضع الدفاع وأن تتميز المعركة بالقتال القريب والاشتباك بالسيوف والرماح وبذلك يستطيع الاستفادة من عنصر المشاة الذي كان العنصر الرئيسي في جيشه .

انتخب قطز موضعه الدفاعي في المنطقة المحصورة بين نهري الجالوت وجلبو مستفيداً من طبيعة الأرض في هذه المنطقة التي كانت تتميز بما يلي : -

١ - الأرض منبسطة وواسعة ذات قابلية على استيعاب قطعات كبيرة .

٢ - وجود مستنقعات بيسان في جناحه الأيمن تحدد حركة الخيالة المغولية وبذلك تضطر إلى الهجوم من الجبهة حيث لا تستطيع الالتفاف من هذا الجناح .

٣ - كثرة الموانع والانهار تحدد عمل الخيالة التي يتفوق بها المغول فتقل اهميتها .

٤ - في حالة اضطراره إلى الانسحاب يستفيد من نهر جلبو لتأخير مطاردة المغول له . احتل قطز الموضع الدفاعي كما يلي :

القسم الاكبر بقيادته في المركز (القلب) ، ويتألف من المشاة وقليل من الخيالة .

الميمنة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة .

الميسرة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة .

الاحتياط وهو فرق الخيالة الرئيسية بقيادة الأمير بيبرس التي وضعها خلف القلب مباشرة ، واجبها مطاردة المغول بعد دحرهم .

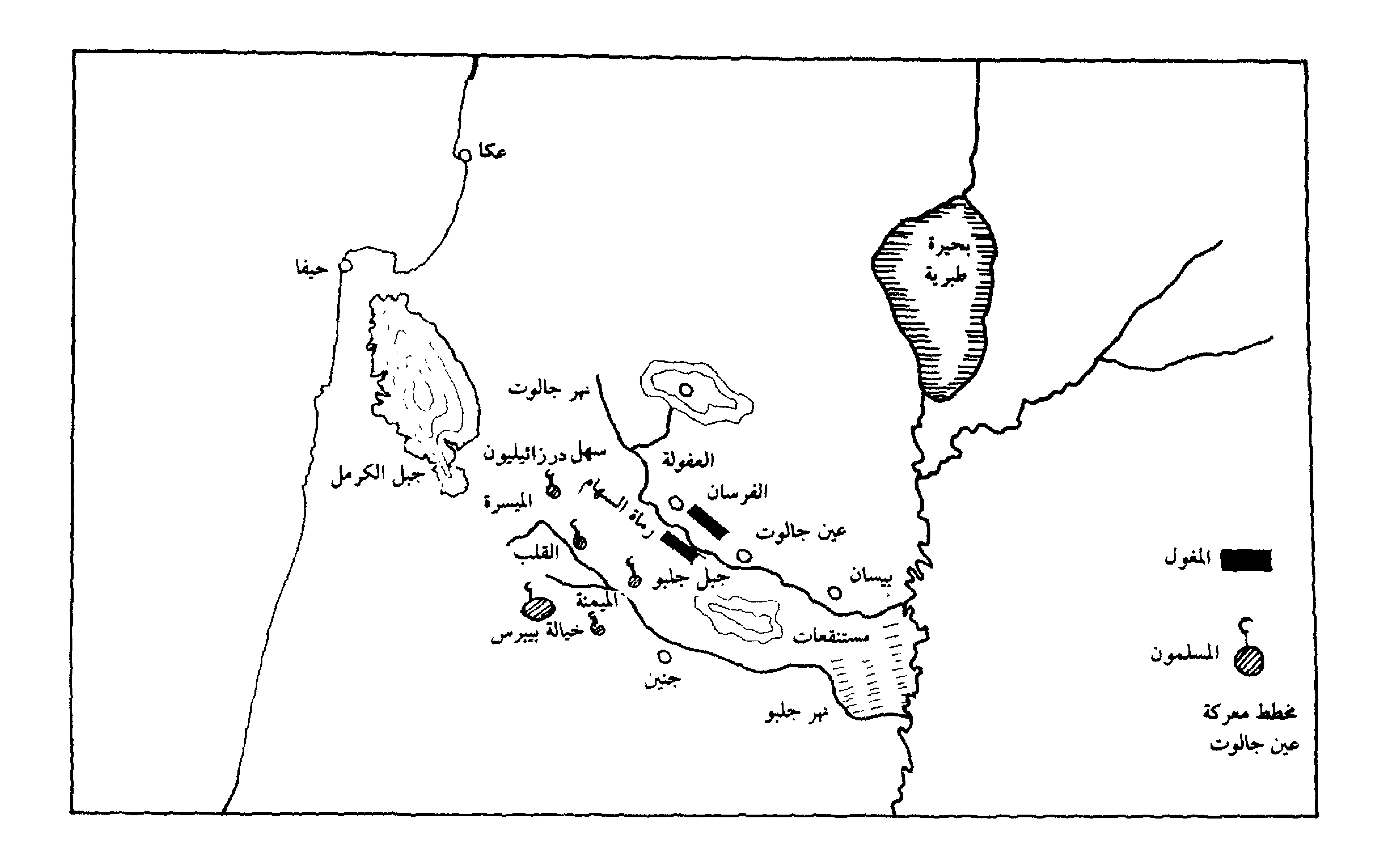
وكانت الخطة تقضي بصمود المشاة بوجه خيالة المغول واجبارهم على القتال القريب المتلاحم فتشل قابلية حركتهم وتنكسر شدة هجماتهم فتقوم خيالة المصريين بالانقضاض عليهم ومطاردتهم .

وفي حالة فشل هذه الخطة يطبق المصريون خطة المغول نفسها فيتظاهرون بالانسحاب من المركز فتحدث ثغرة يندفع منها المغول ثم يطبقون عليهم من ثلاث جهات بعد تورطهم بالتغلغل بعيداً ويتم القضاء عليهم .

المعركة

في صباح يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ ، الموافق ٦ أيلول ، سبتمبر ، ١٢٦٠م ، شن المغول هجومهم المتوقع بعد أن مهدوا له بقصف كثيف من قبل حاملي السهام . ولما تقدمت الخيالة اصطدمت بمشاة المسلمين المتمركزين على الأرض ودارت معركة رهيبة تمكن فيها المغول من فتح ثغرة كبيرة في صفوف المسلمين . فأمر قطز بتنفيذ الخطة البديلة فانسحب القلب إلى الخلف متظاهراً بالفرار بينما لبثت الميمنة والميسرة في محلها . فاندفع المغول من الثغرة وتوغلوا بعيداً في الخلف .

وعند ذاك شرعت الميمنة والميسرة والخيالة ، فرق بيبرس ، بالاطباق عليهم فتمكنوا من سد الثغرة والهجوم على المغول من ثلاث جهات خاصة بعد أن اتخذ القلب موضعاً جديداً في الخلف وثبت فيه . فاختل توازن المغول نتيجة هذه المباغتة التي لم يكونوا يتوقعونها ، ونتيجة الضغط الهائل الذي تعرضوا له ، فتشتت جيشهم وهربوا إلى التلال المحيطة ببيسان ، وهنا قامت خيالة المصريين


مخطط معركة
عين جالوت
المغول
المسلمون
عكا
حيفا
جبل الكرمل
بحيرة
طبرية
نهر جالوت
العفولة
سهل درزائيليون
الفرسان
عين جالوت
رماة السهام
الميسرة
القلب
جبل جلبو
بيسان
الميمنة
خيالة بيبرس
مستنقعات
جنين
نهر جلبو

بالمطاردة وانزلت بالمغول خسائر فادحة ، وقد قتل قائد المغول كيتوبوقانويان .

وقد انهزم المغول إلى الشام والمصريون يطاردونهم حتى تم طردهم من معظم البلاد الشامية .

تجلت في هذه المعركة اهمية دارسة اساليب قتال العدو وتنظيمه وصفاته القتالية الاخرى . فلقد استفاد قطز من هذه الدراسة وتخطى بها كل الاخطاء التي ارتكبتها الجيوش التي سحقها المغول اثناء تقدمهم الطويل من منغوليا إلى غزة .

وكانت هذه الدراسة اهم عوامل نصره على عدوه فقد تمكن من وضع خطة سليمة ومحكمة .

كما تجلت في هذه المعركة أهمية اخذ المبادأة والتقدم نحو العدو بدلاً من الانتظار لحين وصوله . فقد ترك قطز مصر وسار على رأس جيشه لينازل المغول في أرض فلسطين وكانت انتصارات بيبرس الأولية سبباً قوياً في رفع معنويات الجيش المصري وانتهاء خرافة ان الجيش المغولي جيش لا يغلب .

وكان انتخاب المصريين لأرض المعركة في عين جالوت مثالياً حيث أجبروا المغول على قبول المعركة في منطقة تكثر فيها المستنقعات والجداول والانهار ، مما حدد عمل خيالتهم التي كانوا يتفوقون بها ويعتمدون عليها في كل حروبهم ، ثم أن الخطة المرنة والبسيطة التي وضعها قطز وتنفيذها بدقة كان عاملاً حاسماً في النصر .

المصطلحات العسكرية العربية القديمة
الـوارد بعضها في هـذا الكتاب

ومعظمها منقـول من كتاب تنـظيمات الجيش العَـربي في صدر الـدولة العبـاسية الذي شارك المؤلف في تأليفه :

ارباب الخيل: الضباط الفرسان

الاستنفار : النفير

استبراء الكشف: تأييد المعلومات وتدقيقها.

انقلاب : التراجع بانتظام وحذر لفرص الافلات من ساحة المعركة

اذكاء العيون: بث الجواسيس او دوريات الاستطلاع

استظهر : تركه خلفه . فيقال استظهر الجيش الجبل (س) أي تركه خلفه ليستـدرء به

الاجناب : الجوانب

الارهاق : مفردها وهق . وهو الحبل الذي فيه انشوطة فترمى على الفارس لايقاعه

الاستطراد : وهو ان يظهر القائد الهزيمة امام عـدوه فيبعده عن حصـونه ثم بكـر عليه ويهزمه .

اعطية : ومفردها عطاء وهي الراتب

بيات : الغارة الليلية او الهجوم الليلي المباغت

التعبئة : قصد بها العرب تنظيم الجيوش وتحريكهـا وجمعها واستخـدامها ثم صف

الكتائب في المعركة او قبلها .
يقال سار القائد بجيشه على تعبئة : اي سار وقد نظم جيشه وهيئه للقتال فأخرج المقدمة والساقة (المؤخرة) واحياناً المجنبات .

تقاطر : عملية تكامل الصنوف لترتيب وتوزيع القطعات في المعركة

تسريح : قطع التماس في المعركة

تدبير الجيوش: ادارة الجيوش.

التوائب : وهم جماعة من الفرسان يسهرون ليلا على ظهور الخيل بنوبات دورية مخافة مباغتة العدو للمعسكر ليلاً.

التحرز : الحذر والتحفظ من الكمائن عند التقدم .

الثكن : ومفردها (ثكنة) بضم الثاء وسكون الكاف : وهي مراكز الاجناد على راياتهم وتشيد لأقامة الجيش وتأمين راحته ولحماية المدن المستولى عليها

الثغور : ومفردها الثغر : وهي المدن أو الحصون المتاخمة لحدود العدو وفيها اسوار وابراج وخندق واحد او اكثر يحيطها ويملأ بالماء . ولها ابواب ضخمة . وفيها الرجال المقاتلون مع عوائلهم وما يكفيهم من المؤن والماء لحصار طويل . وهي تقام دائماً على طرق التقرب التي قد يسلكها العدو لمهاجمة اراضينا .

العواصم : وهي المدن المحصنة والتي تكون خلف الثغور وغير بعيدة عنها يعتصم بها العرب عند عودتهم من محاربة العدو وهي تسيطر على عدد من الثغور اي الحصون التي تكون قريبة جداً من الحدود وتسيطر على المسالك والطرق الى بلاد العدو .

المسالح : هي حصون صغيرة مسورة ومحاطة بخندق تقام على خطوط المواصلات لحمايتها .

جحفل : يضم من ألف إلى اربعة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان

الجوشن : درع من الزرد يغطي الصدر فقط

الجراية : ما يناله الجندي يومياً من الارزاق .

الجريدة : جماعة من الفرسان وليس بينهم مشاة

الجيش : تشكيل يتألف من ١٠٠٠٠ جندي

الحسك : ويسمى حسك الحديد : واصله نبات شوكي ورقه شديد الصلابة وله شوك ذو ثلاثة شعب . ولقد صنعت الجيوش القديمة قضبان حديدية دقيقة ومدببة على شاكلته تنشرها حول الخنادق والحصون والمعسكرات لمنع تقدم الفرسان والمشاة وقد تكون فكرة الاسلاك الشائكة المستخدمة اليوم في الجيوش مأخوذة منه .

الحملة : الهجوم الراكب

الخميس : وهو اسم بديل للجيش ويطلق على الجيش الذي يتقدم بالنظام الخماسي اي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

دراجة : جماعة من الخيالة واجبها البحث عن كمائن العدو المحتملة في المنطقة القريبة من منطقة التعسكر المنتخبة .

الرجعة : الانسحاب

الركبان : وهي القوافل الخلفية للجيش المتقدم وفيها الارزاق والعلف والماء والنساء والاطفال .

الروعة : جماعة من الفرسان تمشي خلف الساقة (المؤخرة) خوفاً من مباغتة العدو من الخلف للساقة أو القسم الاكبر من الجيش المتقدم .

الرجالة : وهم صنف المشاة .

رشقة : وهي رمية نبال مرة واحدة وعلى هدف واحد من قبل عدد من رماة القسي .

رائد : وهو الذي يستطلع المواضع الملائمة لنزول (تعسكر) الجيش .

الروغان : استعمال الحيلة والمكر والخداع في الحرب

الساقة : قطعات المؤخرة .

سوابق : الخيل السريعة والمدربة لواجبات الاستطلاع والكشافة .

السرية : وتتألف من مئة جندي .

صاحب اللواء: رافع العلم أو الراية.

صاحب الجيش: القائد العام للجيش.

صاحب الاقباض: الشخص المسؤول عن حفظ الغنائم وقسمة الفيء

الطليعة : وهي الخيالة التي تتقدم الجيش المتقدم واجبها استطلاع الاخبار وكشف مواضع العدو ومحلات وجوده .

العسكر : المعسكر .

العسس : الحرس الليلي أو الدوريات الليلية

علامة التنادي : سر الليل وكلمة المرور

العريف : امر العرافة أو الحضيرة وكانت تتكون من عشرة جنود

الفيء : ما يؤخد من أرض العدو دون قتال .

الفرسخ : وهو يساوي ٨كم او ٥ ميل .

القهقرا : الانسحاب الى الخلف اثناء القتال .

كشافة : جماعة استكشاف عن العدو وكمائنه

كنانة : جعبة جلدية تحفظ بها ريش السهام

الكتيبة : وتتألف من (١٠٠٠) جندي

كتيبة الموت: وهم الفدائيون الانتحاريون .

لواء : علم . راية .

ميرة : مواد التموين والارزاق .

المطاردة : قيام الخيالة بمطاردة العدو عند انسحابه

المحامل : وهي النقالات التي توضع على البغال لنقل الجرحى والمرضى .

ميمنة : الجناح الايمن .

ميسرة : الجناح الايسر .

المضرب : مقر الجيش (معسكر القائد) .

مقدم : الأمر ويقال مقدم الطليعة أو الساقة اي امرها .

المنزلة : وجمعها منازل : وهي المأوى أو استراحة المرحلة .

المقاتلة : الجنود النظاميون والمتطوعون .

مسترزقة : الجنود النظاميون المثبتة اسمائهم في ديوان الجند .

المتطوعة : وهم المتطوعون للحرب عند اعلان الجهاد واسماؤهم غير مثبتة في ديوان الجند . وتعطىٰ لهم الصدقات دون الفيء .

المجردة : قوة الفرسان يحتفظ بها القائد في الخلف لمطاردة العدو بعد انتهاء المعـركة ويكون درعها خفيفاً ولهذا دعوها بالكتيبة الخفيفة .

ململمة : كتيبة مجتمعة

المسارب : المسالك والطرق التي يتسرب منها العدو .

النبوت (بفتح النون وتشديد الباء):وهي عصـاغليـظة يستعملهـاالفرسان في الاشتباك القريب.

النغيضة : وهم جماعة يتقدمون الجيش بحثاً عن العدو وكمائنه .

نشابة : وهم رماة الاسهم بالقسي .

نبلة : جمعها نبال وهي السهام .

المبادرة : المبادأة .

الهجانة : المقاتلون على ظهر الجمال .

الهيضلة : جماعة قليلة من الجند .

المصادر

١ ـ تاريخ الامم والملوك	الطبري (طبعة دار المعارف لسنة ١٩٦٢)
٢ ـ فتوح البلدان	البلاذري
٣ ـ الكامل في التاريخ	ابن الاثير.
٤ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية	بهاء الدين ابن شداد
٥ ـ فتوح الشام	الواقدي
٦ ـ مروج الذهب	المسعودي
٧ ـ تاريخ العرب	فيليب حتي
٨ ـ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين	فيليب حتي
٩ ـ تاريخ الامم الاسلامية	محمد الخضري
١٠ ـ الفن الحربي في صدر الاسلام	عبد الرؤ وف عون
١١ ـ الحركة الصليبية (١ و ٢)	الدكتور سعيد عاشور
١٢ ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام	عبد الله عنان
١٣ ـ دولة الاسلام في الاندلس	عبد الله عنان

١٤ ـ فجر الاندلس	دكتور حسين مؤنس
١٥ ـ الصديق ابو بكر	محمد حسين هيكل
١٦ ـ الفاروق عمر	محمد حسين هيكل
١٧ ـ مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية	محمد صبيح
١٨ ـ صلاح الدين الايوبي	قدري قلعجي
١٩ ـ معارك الاسلام الكبرى	جمال الدين حماد
٢٠ ـ تاريخ الصليبين (انجليزي)	ستيفن رنسمان
٢١ ـ قادة فتح العراق	محمود شيت خطاب
٢٢ ـ قادة فتح الشام	محمود شيت خطاب
٢٣ ـ تاريخ العرب العسكري	محمود الدرة
٢٤ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي
٢٥ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	جمال الدين ابي المحاسن يوسف الاتابكي
٢٦ ـ جنكيز خان	هارولد لامب ترجمة بهاء الدين نوري
٢٧ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام	الدكتور جواد علي
٢٨ ـ تنظيمات الجيش العربي في صدر الدولة العباسية	

فهرست الكتاب



«ساءلتها الشمس: أي الخمر تسكرها حتى أصب.
فقالت: يُسكِر الشمم»

كنا نصنع التاريخ
يوم انطلقت خيولنا شهباً تمحق الظلم... والظلمات.
وتزرع الخير والشمم
وتنشر الفكر نوراً وخلاقاً
وحدنا
كان فتحنا تحريراً واحتلالنا تبشيراً
وحكمنا تحضيراً وعقابنا تطهيراً
لسنا المغول ذبحاً وتدميراً
ولا الصليبيين استعماراً واستعباداً
ولا الصهاينة إجراماً وتزويراً... وتهجيراً
ويوم نعرف مَنْ نحن ونستعيد ذاتنا
سيفرح التاريخ بعودته الى أهليه
ونعود نكتبه بأحرف من نور
وهذه وقائعنا
فاقرأ، تعرف

الدار العربية للموسوعات